أغـــــوار

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: أغوار
المؤلف: رشا السيد
موضوع الكتاب: رواية اجتماعية
عدد الصفحات: 280 صفحة
عدد الملازم: 17.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14 x 20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/2663
الترقيم الدولي: 978-977-6697-843

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

أغـــــوار

رواية

تأليف

رشـــا الســـيد

حماوي
للإنتاج الفني

المقدمة

يحكى أن هناك عالمًا موحشًا مخيفًا بائسًا لا يُعرف فيه الجاني من الضحية. عالم فيه أناس كالنبات اللاحم يجذب فريسته بلونه الماتع، حتى إذا أمنت وسكنت ابتلعها واعتصرها بداخله دون رحمة. عالم يغتال البراءة ويقتل الأحلام، لا يُسمح فيه بالبكاء وتُمنع الضحكات. حتى آهة الأنين من الألم إذا خرجت من جوف صاحبها حُسِبت عليه اعتراضًا؛ تألم وأنت صامت وإلا فأنت تعلم!

في هذا العالم زُجَّ بطفلين كالملائكة، ترى العين وجهيهما فتتراقص الروح كفراشة طائرة حالمة مغمضة العينين والثغر باسم مستمتع بنغم ضحكاتهما.

بين عشية وضحاها وجد الطفلان نفسيهما غريبين بعالم أغرب...

الفصل الأول

«انتظار أم تخل؟!»

_ انتظرا هنا سأذهب لأشتري شيئًا وأعود ثانية.

كعادتهما معها تأمر فيطيعان، انتظرا وانتظرا، وكلما طال الانتظار سرى الخوف والقلق كسرطان ينتشر في الأوصال.

بعد ساعات جلس الطفلان على الأرض من التعب. نظر يوسف إلى أخته وقال هامسًا:

_ أين ذهبت زوجة أبي؟ أنا خائف وجائع ومتعب.

نظرت إليه رزان وهي لا تقل عنه رعبًا، بل تزيد، لكنها حاولت طمأنته، وقالت بصوت خافت حنون وهي تربت على كتفه:

_ لا تقلق يا يوسف. ستأتي قريبًا ربما الطريق مزدحم وتأخرت لهذا السبب.

نظر إليها بصمت وقلب غير مطمئن ثم زاغ ببصره فيمن حوله، لم تتوقف كلمات يوسف الخائفة ولا أحضان رزان المطمئنة.

غربت الشمس وأخذت معها الأعذار جميعها وحل الليل وحل معه الخوف والرعب.

بكى يوسف هنا ولم تستطع رزان الصمود أكثر من ذلك فبكت مثل؛ طفلان ضائعان تائهان في بلد لا يعرفان فيها أحدًا ولم يعرفا ماذا يفعلان. تذكرت رزان حينما حذرتها أمها من التحدث إلى الغرباء أو الذهاب معهم إلى أي مكان. جرجرت حقيبة ملابسهما الثقيلة عليها وأمسكت بيد أخيها ومشيا لا يعلمان

إلى أين؟ التفتا ليذهبا فاصطدما بأحدهم.

يا إلهي!

***

فتحت ألبومًا للصور الخاصة بأبنائها وأطفالهم، تقلب في الصور بأعين باكية وقلب متلهف وشهقات عالية، تتلمس بيديها صور رحمة تبكي تقصيرها في حق حفيديها. لكنها لم تقصر، هي أخبرت أباهما أنها ستأخذهما كي تربيهما. وهو من طلب منها تركهما له؛ لا يستطيع فراقهما وهما أيضًا ألا يكفي فقدهما أمهما؟! رق قلبها وخافت تأثر الطفلين بفراق أبيهما فقبلت واعدة الطفلين بدوام الاتصال بهما وزيارتهما.

كانت تشعر أن ابنتها كانت غير سعيدة معه. لكنها كانت دومًا تسألها، فتجيبها رحمة أنهما بخير حال، ولم ترد أن تتدخل بحياتهما. تذكرت كيف أنه حين تقدم إلى رحمة لخطبتها كان يبدو عليه الالتزام والتقوى؛ كان زميل رحمة في الجامعة، لكنه كان أكبر منها بعامين، خُدع الجميع بظاهره.

بعد عقد القران حدثت بعض المواقف المريبة من جانبه والتي تدل على طمعه وجشعه، مما جعل الجميع ينصح رحمة بالانفصال عنه، لكن الحب كان قد أعمى الأخيرة. أبت وأصرت على إتمام الزواج منه. ظنت أنه بعد الزواج سيتغير وتتبدل مساوئه حسنات، حتى إنهم غضبوا منها جميعهم، فازدادت إصرارًا. حاولت مراضاتهم، وأخبرتهم أنها ستعيش معه بهناء، وإذا شكت منه يومًا فستتحمل هي عاقبة أمرها وحدها.

***

لقد كادت دقات قلبيهما تصم آذانها؛ رجل مسن مجذوب بملابس مهلهلة مهترئة غير نظيفة، يبدو أنه لم يستحم منذ سنين. ذو شعر طويل مجعد ملفوف الخصلات مترب؛ يصيح بهما ويشيح بيديه هاتفًا بكلمات غير مفهومة أو أن عقليهما هما اللذان توقفا عن الفهم والعمل.

لم يشعرا بصرخة الفزع التي دوت منهما حتى تكاد تنفطر لها القلوب. ولا بأعينهما التي كانت تجري منها الدموع ولا بنظرات الهلع التي بدت منهما كأن أعينهما تكاد تخرج من محاجرها. ولا بشهقاتهما التي كادت تخرج معها أمعائهما. فقط احتضنا بعضهما لعلهما يحظيان ببعض الأمان. فإذا بهذا المجذوب الهائج يتحول إلى طفل صغير يبكي معهما، ثم اقترب منهما لعله يهدئ من روعهما، فما كان منهما إلا أن ازدادا خوفًا وهلعًا، وتراجعا خطواتهما إلى الخلف دون أن يترك أحدهما حضن الآخر.

كلما اقترب منهما تراجعا حتى توقف وجثا على ركبتيه يبكي!

بعد قليل هدأ الطفلان ونظرا إليه في تعجب ودهشة دون أن تترك ذراع أحدهما الآخر. أحس بهما وقد هدآ قليلًا فهدأ مثلهما. لم يتحدث بل حاول الاقتراب منها بروية.

قلباهما ينبضان بقوة، ثبتا مكانهما بحذر. زاد تشبثهما ببعضهما. دنا منهما وهما ينظران إليه بترقب متوجسين خيفة وفجأة! أغمضا أعينهما وهوى قلباهما بين أقدامهما فقد رفع يديه لـ.. يمسد رأسيهما بحنان ويبتسم!

فتحا أعينهما بدهشة فقال لهما بصوت متقطع متلجلج وثغر مبتسم وعينين دامعتين:

_ لا تخافا ولا تبكيا. أنا هنا لن أدع أحدًا يؤذيكما.

صمت الطفلان والدهشة تعلو وجهيهما. فأكمل قائلًا بلهفة متلعثمًا:

_ لقد انتظرتكما كثيرًا. لماذا تأخرتما عليَّ هكذا؟

لم يفهما عما يتحدث. لماذا كان ينتظرهما؟ وكيف تأخرا عليه؟ هما لا يعرفانه!

أمسكت رزان يد يوسف بتوجس وقالت له هامسة:

_ هيا بنا نذهب من هنا.

فباغتها يوسف بقوله:

_ إلى أين سنذهب؟

ثم أكمل باكيًا:

_ أنا جائع ومتعب وخائف.

لم تعلم بما تجيبه. هي مثله جائعة ومتعبة وخائفة؛ طفلة وجدت نفسها مسؤولة عن طفل وكلاهما تائه في وسع هذا العالم. نظرت إليه بحزن وعطف وربتت على كتفه، ثم قالت بصوت خفيض منكسر:

_ وأنا أيضًا.

كان المجذوب يتابع حديثهما بحزن. ثم ما لبث أن ضحك مقهقهًا، نظرا إليه بتعجب، فقال بطريقة جنونية وهو يشير إليهما ويقفز كأنه طفل مثلهما:

_ لقد سمعتكما. لقد سمعتكما.

ظلا ينظران إليه فاغري الفاه، هدأت ضحكاته شيئًا فشيئًا حتى صمت أخيرًا كأن شيئًا لم يكن ثم قال:

_ امكثا هنا، لا تذهبا.

وتركهما وذهب تائهًا في عالمه.

لم تعلم رزان ماذا تفعل؟ وأين تذهب؟ خوف وهمٌّ وغم يملأ قلبها. كطفلة توفيت عنها أمها. أو كطفلة تائهة ضائعة في عالم موحش لا تعلم عنه شيئًا. أو ربما كطفلة وجدت نفسها في لحظة أمًّا لطفل تخلى عنه والده أو ربما... مهلًا مهلًا، إنها كذلك وكل ذلك بالفعل! فهل من مغيث لها أو منجد؟

مشيا حتى وصلا إلى إحدى إشارات المرور. ابتسمت رزان ودب بقلبها الأمل حينما رأت شرطي المرور فقد كانت أمها توصيها دائمًا «إذا ضللت الطريق فابحثي عن أي شرطي وأخبريه وهو سيساعدك».

بالفعل كادت خطاها تسبق الريح لولا أن أبطأها أخوها لضعفه وتعبه، اقتربا من الشرطي وقبل أن يصلا كانت الصدمة؛ رأوه يمسك بطفل يسبه

ويصيح به ويصفعه وينعته باللص. خاف الطفلان وعاد الخوف يحل محل الأمان بقلبيهما الصغيرين. أيمكن أن يفعل بهما مثلما فعل بهذا الطفل؟

ارتدا بظهريهما خطوات إلى الخلف والتفتا ليذهبا بطريق مغاير.

***

أغلقت ألبوم الصور مرجعة رأسها إلى الخلف، تنهدت مغمضة العينان تعود بذاكرتها إلى الوراء/

_ أنا قلقة على طفلي أختك؛ منذ الأمس كلما اتصلت بهاتف أبيهما أجده مغلقًا.

قالتها الجدة على الهاتف لابنتها مريم التي ردت بصوت يبدو عليه القلق:

_ وأنا أيضًا، لا أعلم لماذا قد يغلق هاتفه؟

أجابتها الجدة بهلع:

_ قلبي غير مطمئن. ربما هناك شيء سيئ قد حدث للطفلين! لا بد أن أسافر إليهم حتى تذهب عن قلبي لوعته هذه.

حاولت مريم تهدئتها قائلة:

_ حسنًا أمي، فلنصبر قليلًا حتى المساء، وإذا لم يفتح الهاتف ويجيبنا أبوهما سأتحدث إلى زوجي ونسافر فجرًا إلى هناك، وإن شاء الله سنصل إليهم، فقط اهدئي لأجل خاطري.

أجابت الأم بصوت حزين متعب:

_ حسنًا سأحاول.

ثم دعت في سرها:

_ يا رب، طمئن قلبي عليهما.

سافرت الجدة والخالة وزوجها إليهم، دق جرس الباب فما من مجيب، دقوا باب أحد الجيران، فأجاب حينما سأله حسام زوج مريم عن الطفلين وأبيهما:

_ لقد أخبرني الأب أنه باع الشقة لزميل له بالعمل، وأنه سيتنقل إلى محافظة بورسعيد ليبدأ عملًا خاصًّا به.

نظروا ثلاثتهم إلى بعضهم بعضًا بصدمة، وسأله حسام:

_ وهل ترك عمله؟

فأومأ له مؤيدًا، سأله حسام ثانية:

_ هل أخبرك عنوانه هناك؟

نفى الرجل علمه بذلك، فلم يجد حسام سبيلًا سوى أن سأله عنوان عمل أبي الطفلين، ربما يفيده أحد زملائه.

ذهب إلى مقر عمله وقابل ذاك الذي اشترى منه الشقة فأجابه:

_ منذ نحو الشهر كان قد ذكر رغبته في الانتقال إلى محافظة أخرى وبدء مشروع خاص به، فعرضت عليه شراء شقته، وبالفعل وقعنا عقدًا ابتدائيًّا وقتها، وقبل يومين أتممنا إجراءات البيع بالشهر العقاري. لا أعلم سوى أنه ترك العمل هنا وسافر إلى بورسعيد.

نزلوا من البناية متأملين والقلق ينهش قلوبهم على الطفلين.

_ المدرسة! ربما لم يسافروا بعد، أو أنه ما زال يعد نفسه للسفر.

قالها حسام فنظرتا إليه بأمل دبَّ في قلبيهما بعد يأس، قال بلهفة:

_ هيا لنذهب في الحال، فالساعة الآن ما زالت الحادية عشرة.

ذهبوا ثلاثتهم إلى المدرسة على أمل اللقاء، لكن كلمات مديرة المدرسة والمعلمات هدمت كل أحلامهم.

_ الطفلان لم يأتيا إلى المدرسة أو الروضة منذ يومين.

صمت ساد بينهم لم يقطعه سوى كلمات حسام:

_ ليس أمامنا حل سوى الذهاب إلى قسم الشرطة، نقدم بلاغًا ربما يصلون إلى عنوانه الجديد، وقتها نستطيع أن نأخذ الطفلين منه.

وافقتاه على فكرته وبالفعل قدموا البلاغ. ثم هاتف حسام صديقًا له يعرف محاميًا في بورسعيد كي يوكله بمتابعة الأمر.

***

وجدت حديقة يجلس بها بعض أطفال الشوارع كما استنتجت من مظهرهم يبدو أنهم يبيتون هنا. قالت بصوت متعب:

_ تعال نجلس بهذه الحديقة كي نرتاح قليلًا.

كرهت شعور الضياع الذي تملك قلبها وروحها. نظرت إلى الفتيان حولها، كان بعضهم يماثلها سنًّا، والبعض الآخر أكبر منها أو أصغر؛ عددهم لا يتجاوز الستة، متفرقون. اتسعت عيناها دهشة وهي ترى بعض هؤلاء الصغار يشرب السجائر وينفث دخانها كشارب محترف. أفاقت من شرودها على صوت صبي يقف أمامها ومعه فتاة تبدو أصغر منها بقليل:

_ ما اسمكما؟ ولماذا تجلسان هنا؟ لا تبدوان هاربين من أهلكما. فما الذي أتى بكما هنا؟ أم أنكما تائهان؟

لم تعرف عن أي سؤال منهم تجيب أولًا، لكن هناك من سبقها:

_ أنا يوسف وهذه أختي رزان. ونحن ضائعان لسنا من هنا. قالت لنا زوجة أبينا أن ننتظرها لكنها لم تعد.

هكذا أجابه من يسبق لسانه عقله. ضيقت رزان عينيها ونظرت إليه بغيظ واضح. نظر إليه الصبي وقال:

_ إذَنْ فإنكما ستصبحان مثلنا؛ تسكنان الشوارع وتكون لكما مسكنًا.

حركت رزان رأسها بالنفي وقالت:

_ لا بالطبع. نحن سنذهب إلى جدتنا ونعيش معها.

نظر إليها الفتى عاقدًا ما بين حاجبيه وقال:

_ أتعرفان عنوانها لتذهبا إليها؟

أخفضت رأسها بحزن، وقالت بصوت حزين متألم:

_ لا، لا نعرفه.

فأجابها الفتى بصوت يشوبه بعض الحدة متهكمًا:

_ إذَنْ فكما قلت ستصبحان مثلنا.

همت أن ترد عليه حين بدأ يجري مسرعًا هو والفتاة، فتعجبت، ثم التفتت إلى الأطفال الآخرين فرأت شابًّا يبدو أكبر منهم جميعًا، يبدو عليه الشر، لم تسمع حواره معهم، لكنها رأتهم يخرجون بعض المال ويعطونه له.

التفت كي يرحل ولكنه فجأة رآهما نظر إليهما متفحصًا ثم ذهب إليهما. بصوت مخيف أجش:

_ أنتما، هاتما ما معكما من أموال.

نظرا إليه بخوف، قالت رزان محتضنة أخيها بصوت مرتجف:

_ ليس معنا مال. نحن تائهان هنا. شعر من مظهرهما بصدقهما، لكن عينيه وقعتا على حقيبة ملابسهما، فمد يده وجذبها ثم فتحها وأخرج ما فيها هاتفًا:

_ ملابس وبعض الصور. هذا فقط ما بها؟ لا بأس، يمكنني بيع الحقيبة والملابس أيضًا.

وقبل أن يكمل حديثه سمع دوي صافرة سيارة شرطة تمر بالقرب من الحديقة فترك ما بيده وفر هاربًا.

تنفسا الصعداء، وحاولا لملمة شتات نفسيهما. نظرت إلى وجه أخيها تطمئن عليه، ثم احتضنته وقبلت رأسه. قامت تجمع ملابسهما وتنظمها في الحقيبة وقام يوسف بمساعدتها. ثم وقعت عيناها على الأطفال، ووجدتهم يختبئون خلف الأشجار القصيرة الكثيفة، لا يحركون ساكنًا، فقط ينظرون إليهما بنظرات لم تفهم كنهها؛ خافت أن يعود ذاك البلطجي مرة أخرى. فقامت وقالت لأخيها:

_ هيا نذهب من هنا نبحث عن مكان آخر آمن.

سارا حتى خرجا إلى الطريق العام. جلسا على الرصيف ينظران أمامهما بأعين لا ترى، تذكرت رزان أمها وعينيها تذرفان الدموع. طفلة صغيرة لم تعرف كيف تصيغ دعاءها، فقط رددت دعاءين كانت تسمع أمها ترددهما كلما ضاقت بها الدنيا

«رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين»، «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

رددتها بقلبها لا بلسانها فقط. لا تعلم معناهما لكن ربها يعلم ما بقلبها.

نظرت إلى أخيها فوجدته متوسدًا فخذها وقد غاص في سبات عميق، مسدت على شعره وأسندت رأسها إلى حقيبة ملابسهما ونامت مثله.

***

_ أمي! أهذه أنت حقًّا؟

قالتها رزان بدهشة، وهرولت إليها فرحة فاحتضنتها أمها مبتسمة. طال عناقهما، لم ترد أن تخرج من حضنها أبدًا. كم اشتاقت إليها. إلى أمان حضنها، بسمة ثغرها، صوتها الدافئ الحنون...

أخرجتها أمها من حضنها بهدوء وحنان ثم مسحت بإبهامها على وجنتها مبتسمة. أرادت رزان أن تبث إليها همها وشكواها، لم تستطع التحدث فسبقتها أمها وقالت بحنان:

_ الله معكما ولن يضيعكما.

ثم ربتت على كتفها، ازداد التربيت قوة ففتحت عينيها

_ يا إلهي! أكان هذا حلمًا؟ ليتني ما استيقظت أبدًا! .

قالتها بحزن ثم نظرت إلى من كان يربت على كتفها؛ إنه ذاك المجذوب!

اعتدلت في جلستها بهدوء كي لا توقظ أخاها، ثم فركت عينيها، نظرت إلى المجذوب فوجدته يمد يده إليها بشطيرة كبيرة وعلى وجهه ابتسامة حنونة.

نظرت إلى يده بتردد فشعرت بمن يضع يده على ذراعها، كان هذا يوسف قد استيقظ التفتت إليه بوجهها، فأومأ لها برأسه وهو يبتلع ريقه لتقبل الشطيرة. مدت يدها لتأخذها فتقززت من يده؛ متسخة عليها طبقات من التراب والطين، لكن نظرة واحدة إلى وجه أخيها الجائع ثم وكزات أمعائها التي كانت تعتصر جوعًا جعلتها تتغافل عن أي شيء، أخذتها منه وشكرته ثم قسمتها بينها وبين أخيها تحت نظرات المجذوب المبتسم، التهماها بنهم، ثم اختفى المجذوب دون أن يشعرا كما أتى.

***

استيقظ الطفلان فزعين على أصوات أبواق السيارات وصوت أقدام الناس حولهما. نظرا حولهما ولم يدركا لوهلة لم هما بهذا المكان وليسا ببيتهما، حتى استفاقا على ذكرى ما حدث بالأمس.

وجم وجهاهما واحتل الهم قلبيهما. نظر كل منهما إلى الآخر، نظرات أحدهما تسأل ماذا بعد؟ وتجيب نظرات الآخر لا أعلم.

وقفت ومدت يدها لتساعد أخاها على النهوض:

_ أريد أن أقضي حاجتي.

نظرت إليه بصدمة؛ ماذا تفعل من أجله؟ جابت ببصرها هناك بعض المحلات، هل يوجد بها دورات مياه؟ أمسكت يده، ثم تنهدت وأخذته وحقيبة ملابسهما، وظلت تبحث في المحال عن محل به الكثير من الناس .

بأحد المطاعم سألت أحد العاملين الواقفين لاستقبال الزبائن عن وجود حمام فنظر إليهما وأجابها:

_ نعم يوجد بالداخل حمام.

ثم أعاد النظر إليهما وإلى حقيبة الملابس التي يجرانها متفحصًا وباغتها بسؤاله:

_ أين والداكما؟

لم تجب رزان فهي تذكر جيدًا ما حذرتها أمها منه من عدم التحدث إلى الغرباء، لكن يوسف أجابه بصوت يملأه الحزن:

_ أمنا توفاها الله كانت مريضة تتألم فأراحها الله من الألم وأخذها إلى الجنة، وأبونا...

قالها بصوت متألم ما جعل العامل يحزن لأجلهما، ثم أخفض يوسف رأسه وأكمل:

_ ذهب وتركنا لزوجته التي قالت لنا أن ننتظرها ريثما تذهب لشراء شيء ما...

_ يوسف!

هتفت بها رزان قبل أن يكمل وهي تنظر إليه نظرة تحمل عتاب أمٍّ أخطأ طفلها. فسألها ببراءة ودهشة:

_ ماذا فعلت؟

أجابته بصوت هامس:

_ ألم تحذرنا أمنا من التحدث إلى الغرباء؟

فأجابها مبررًا:

_ هو سألني سؤالًا وأجبته، ألم تقل أمنا إننا يجب أن نحترم الكبار ونجيبهم إذا تحدثوا إلينا؟

أجابته رزان بحنق طفولي هامسة:

_ نعم قالت كذلك؛ لكن مع أهلنا وأقاربنا وليس مع الغرباء، يجب ألا نقص على أحد ما يحدث في بيتنا أو بيننا.

نظر إليها يوسف يمط شفتيه بحركة طفولية، ثم طأطأ رأسه قائلًا:

_ نعم. لديك حق.

كان العامل يستمع إلى حديثهما الذي كانا يظنانه همسًا وابتسامته تتسع، ثم سألها:

_ ما اسمك؟

فأجابه يوسف باندفاع:

_ هذه أختي رزان.

اتسعت عيناها تحدق إلى أخيها غاضبة، تكز على أسنانها، وتضرب بقدميها الأرض.

التفت إليها يوسف في دهشة مرة أخرى وهتف:

_ ماذا بك؟

أجابته من بين أسنانها:

_ ألم أكن أقول لك شيئًا منذ قليل؟

أجابها مستفهمًا:

_ ماذا كنت تقولين؟

حركت رأسها يمينًا ويسارًا في يأس. ضحك العامل منهما ثم قال:

_ هيا ادخلا كي تقضيا حاجتكما قبل أن يبلل أحدكما ملابسه. وقبل أن تعود زوجة أبيكما ولا تجدكما فتقلق عليكما.

هكذا إذَنْ فهم الأمر، أنهما ينتظران زوجة أبيهما الآن لتعود إليهما. لا بأس، فليكن ذلك

نظرت رزان إلى المحل متفرسة بتوتر، فقال لهما العامل بابتسامة متفهمة لما سمع من حديثهما:

_ لا تخافا، لن يؤذيكما أحد، هناك بعض الزبائن بالمحل، ثم إن المحل كله زجاج وكل من يمر بالشارع يرى ما بداخله.

أوكزها يوسف بذراعه فابتسمت له، هي أيضًا تريد قضاء حاجتها! لكن تنبيهات أمها وتحذيراتها نصب عينيها.

«العالم به الكثير من الأناس الطيبين، لكنه أيضًا مليء بالأشرار المخادعين

الذيـن يبـدون الخير ويبطنـون الشر، فـلا تخدعنـك المظاهر يـا حبيبتي وخذي حذرك دائمًا».

«لا تسـمعي كلام أي غريب مهما ألح عليك وقال «تعالي معي أوصلك إلى مكان ما» ولا تسمحي لغريب أو قريب أن يقف أو يسير قريبًا منك كثيرًا أو أن يلتصق بك، ولا أن يوجد معك بعيدًا عن أعين الناس، لا أحد يتلمس جسدك أو يضـع يده على أماكن عوراتك. جسـدك وعوراتك لا أحد غيرك يراها حتى أنا. لا... لا».

دلفا معه إلى المحل. فقال لهما:

_ تعاليا معي أريكما مكان دورة المياه.

باغتته رزان بقولها الحازم:

_ فقط أشر لنا من هنا، ونحن نذهب إليه.

أومأ لها العامل برأسه وأشار لها ثم تركهما، دخل الطفلان إلى الحمام وأوصدا الباب خلفهما.

***

في طريقهما للخروج من المطعم قبض يوسـف بشـدة على يد أخته، فتوقفت ناظرة إليه مستفهمة ففاجأها بطلبه ونظرات عينيه تجوب فيما حوله:

_ أنا جائع.

نظـرت إلى مـا ينظر إليه. فكأنما أمعاؤها هي الأخرى اسـتيقظت من غفلتها وقامت تثور عليها مطالبة بسد حاجتها بما لذ وطاب.

بلعت ريقها وانحنت إليه وقالت بصوت حنون خافت:

_ ليس معنا مال لنشتري به الطعام. لعل الله يرزقنا كما رزقنا من قبل.

ومسحت بإبهامها خده وقبلت رأسه وعانقته.

***

شاردة حزينة لفقدان حفيديها، قطع شرودها كلمات مريم:

_ أتذكرين أمي حينما أتى لاستلام ميراثه وكان سعيدًا جدًّا. وحينما سألناه لماذا لم يحضر الطفلين معه فأجاب:

_ أنا أتيت اليوم لأنهي الإجراءات وسأعود مباشرةً بعدما تنتهي، وسيكون إرهاقًا شديدًا عليهما السفر ذهابًا وإيابًا في نفس اليوم لذلك تركتهما لدى صديق لي وزوجه. كم كان ممثلًا بارعًا وكم كنا سذجًا، وتذكرين أيضًا حينما أخبرته:

_ أخي هارون سيشتري منك نصيبك من ميراث رحمة في بناية أبي رحمهما الله بتوكيل منه للمحامي.

فرح فرحًا شديدًا وحينما أخبره المحامي بقيمة نصيبه ظهر عليه الغضب المكنون وهتف:

_ كيف ذلك؟ أهذا فقط نصيبي ونصيب طفلاي؟

فأجابه المحامي:

_ لا. هذا نصيبك فقط، فالطفلان ما زالا قاصرين ونصيبهما يخضع للمجلس الحسبي حتى يبلغا السن القانوني.

أذكر جيدًا أمي كم احمرت عيناه غضبًا لكنه لم يستطع فعل شيء لأنهما تحت وصاية القانون.

قالت الجدة بصوت متحشرج من البكاء:

_ أتظنينه فعل ذلك وأخذهما ورحل دون أن يخبرنا انتقامًا منا لعدم حصوله على نصيبهما؟

شهقت مريم وهتفت:

_ يا إلهي! أتظنين ذلك حقًّا!

أومأت لها أمها برأسها بالإيجاب فقالت مريم:

_ يا له من حقير!

ابتسامة حزينة متهكمة من جانب ثغرها تذكر ابنتها:

_ أتذكرين كم تحايلت عليه كي آخذ الطفلين أربيهما؟ لكنه لم يقبل وحين أصررت وقلت إن حضانتهما حقي وفقًا للقانون

قال وهو يضمهما وينشج بصوتٍ عالٍ:

_ لا أستطيع الابتعاد عن طفليَّ، ألا يكفى أنني فقدت أمهما؟

بادلتها مريم ذات الابتسامة المتهكمة قائلة دون قصد:

_ يبكي فقد زوجته ويتزوج بعد شهرين من موتها.

اتسعت عينا الجدة وفغر فاهها هاتفة:

_ ماذا؟

تلجلجت مريم وبعينين زائغتين قالت:

_ المحامي هو من أخبر حسام أنه بعد البحث علم بزواجه من امرأة ببورسعيد. لكنه لم يصل إلى عنوانه بعد؛ فوثيقة الزواج ببطاقته الشخصية التي ما زالت بعنوانه القديم وسوف يبحث من خلال عنوان زوجته بالوثيقة.

هتفت الأم بحدة:

_ متى علمت هذا؟ ولماذا لم تخبريني؟

ازدردت مريم ريقها قائلة:

_ لم أرد أن أزيد حزنك. آثرت الانتظار حتى يصل المحامي إلى عنوان أحدهما كي أبشرك. وها نحن قد قمنا برفع دعوى ضم حضانة للطفلين لصالحك.

تنهدت الأم فابتسمت مريم مستطردة:

_ المحامي أكد لحسام أنه في خلال أيام سيصل إليه بإذن الله، فلا تقلقي.

أومأت لها أمها برجاء متمنية بشرى تطمئن قلبها الملتاع.

***

يتسكعان في الشوارع دون وجهة، قلبان صغيران استوطنهما الخوف والتيه وهُجِّرَت عنهما السعادة والأمان.

الله أكبر، الله أكبر. تعالى صوت أذان المغرب ليوقظ قلبها البريء، رددت الأذان كما علمتها أمها، تذكرتها حينما كانت تذهب بهما إلى المسجد لتلحق بالصلاة كلما ذهبوا إلى التسوق، فابتسمت وقالت:

_ هيا نبحث عن ذاك المسجد الذي سمعنا الأذان منه.

جذبته من يده وذهبا ليسألا أحدهم عن مكان المسجد.

توضآ ولحقا بصلاة الجماعة في المسجد رزان تصلي ويوسف ينظر إليها مقلدًا لها، أنهت صلاتها ثم جلست تستند إلى أحد أعمدة المسجد ففعل يوسف مثلها. نظرت إليه بطرف عينيها مبتسمة بحب.

مكثا بالمسجد حتى صلاة العشاء.

_ هيا. أريد أن أغلق المصلى.

هكذا قالت عاملة المسجد.

لم يريدا الذهاب. ألا يمكنهما البقاء والاحتماء بالمسجد من هذا العالم المريع؟

***

الفصل الثاني

«بعض الطيبين»

أخذتهما أقدامهما إلى أحد الشوارع الجانبية؛ قاذورات ملقاة بكل مكان وصندوق ممتلئ بالقمامة عن آخره بالأكوام. فتى يكبر رزان ببضعة أعوام فقط يبحث في أكوام القمامة ويفتح الأكياس السوداء. يستخرج منها بعض الأشياء ويضعها في جعبة كبيرة من الخوص، يا لفرحته، ها قد وجد قطعة من اللحم في أحد الأكياس، أكلها بنهم واستمتاع! يا لحظه السعيد، هناك قطع أخرى من اللحم في الكيس، أفرغ كيسًا صغيرًا من القمامة التي بداخله ليضع فيها كنزه الثمين.

ظلت رزان وأخوها يتابعان الفتى بفضول دون أن يلحظهما أو يشعر بهما حتى انتهى وهمَّ بالرحيل، فالتفت ورآهما شاردين أعينهما تتابعانه لا تتزحزحان عنه. نظر إليهما ثم أخفض رأسه بحرج وضيق وقهر وذل، فتى تمنى أن يكون كمن في سنه يتذمر من ملل الدراسة يقضي وقته بين المرح مع أصدقائه وأمام ألعاب الحاسوب، يهديه أبواه أحدث الهواتف كلما مل من القديم، لكنه القدر؛ ها هو يبحث في القمامة بين قاذورات الناس وفضلاتهم عن أي شيء يمكن بيعه ليحصل على بعض من الجنيهات لا تكفي وجبة واحدة له ولمن ينتظرونه في البيت .

حمل جعبته وحمل معها ما لاقى من ظلم في هذه الحياة. سار أمامهما بعين هاربة من نظراتهما. وبعد أن تجاوزهما التفت إليهما فوجدهما ما يزالان يتابعانه بنظراتهما.

_ ماذا؟ إلام تنظران؟

قالها لهما بصوت عالٍ وبعض الحدة، يحاول بهما إخفاء ما بقلبه من حرج

تشبث يوسف بيد رزان ونظر إليها يستمد منها الأمان. فاعتذرت رزان إلى الطفل بقلب دب فيه الخوف قائلة:

_ آسفة. لم نقصد ذلك. فقط كنا شاردين.

لم يستطع يوسف وأد فضوله، وسأله بصوت متردد:

_ علام كنت تبحث في أكياس القمامة؟ ولماذا كنت تأكل منها؟ ألا تعلم أن ما تأكله منها غير نظيف فاسد قد يمرضك؟

ابتسم الطفل إليه ابتسامة حزينة متهكمة وقال:

_ وأين سأجد الطعام النظيف؟ هل ستأتياننى به لأطعم إخوتي الجياع؟

ثم أكمل متهكمًا بألم:

_ ألهذا كنتما فيَّ تحملقان، أأعجوبة كنتما تشاهدان؟ ألم تريا من قبل فقيرًا لا يجد قوت يومه ويبحث في قمامتكم عما يسد به جوعه وجوع أهله؟ أم أن لديكما والدين يوفران لكما كل ما تشتهيان من طعام وملبس وألعاب، ولم تريا من هم محرومون مما مللتم منه؟

بكى الطفلان كعادتهما في صمت فلمن يبثان شكواهما؟

رق قلب الفتى لحالهما، لكنه لم يبدِ لهما ما يشعر به.

وقعت عيناه على حقيبة الملابس. فنظر إليهما مستفهمًا:

_ أين والداكما؟ ولماذا أنتما وحدكما هنا بحقيبة الملابس هذه؟ أكنتما مسافرين مع والديكما وضللتما الطريق وضعتما منهما؟

نظر الطفلان إلى بعضهما وكعادته بادر يوسف بسرد مأساتهما تحت نظرات رزان المحتقنة من تكرار أخطائه.

حزن الفتى لمصابهما وسألهما باهتمام وعطف:

ـ وأين ستذهبان، وأنتما لا تعرفان عنوان جدتكما؟

أجابه الطفلان بنفس الوقت:

ـ لا نعلم .

سأله يوسف بفضوله المعتاد:

ـ وأنت أين تبيت؟ أتنام مثلنا على أحد الأرصفة؟

أجابه الفتى بابتسامة حانية:

ـ لا بل أبيت ببيتي مع أمي وإخوتي الصغار؛ نعيش في منزل صغير متهالك لكنه يؤوينا.

استطرد يوسف في إرضاء فضوله وسأل الفتى:

ـ وأين أبوك؟ لماذا تبحث أنت عن طعام لإخوتك؟

نظر إليه الفتى بحزن وقال بصوت متألم:

ـ أبي مثل أبيكما تركنا ورحل. وأمي تعمل مثلي تبحث عن أي شيء يمكن بيعه في صناديق القمامة، لكنها اليوم بقيت مع أخي الصغير لأنه مريض.

ودعهم الفتى كي يلحق بأمه وإخوته ليتناولوا طعامهم، وبعد أن التفت ليرحل ناداه يوسف وسأله:

ـ ما اسمك؟

فأجابه الفتى:

ـ سيد.

ثم بادله السؤال:

ـ وأنتما؟

أجابه يوسف وعرفه باسميهما، فابتسم له سيد ورحل.

حدقت رزان إلى أخيها بنظرة مطولة فسألها:

_ لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟

استمرت بالنظر إليه وهي تجيبه:

_ ألا تعلم؟ كم مرة قلت لك ألا تتحدث مع الغرباء؟ ولم تكتف بهذا بل قصصت عليه قصتنا وأخبرته باسمينا!

أخفض بصره هاربًا من نظراتها وهو يقلب شفته السفلى بندم وقال:

_ آسف لن أكررها.

نظرت إليه بعتاب ثم قالت:

_ حسنًا، لكنها المرة الأخيرة التي سأسامحك فيها.

أومأ مبتسمًا وتعلق بها يعانقها ويقبل وجنتها.

فجأة اصطدم بأقدامهما شيء، نظرا أسفل أقدامهما فإذا به فأر كبير يجري مسرعًا، صرخ الطفلان فزعًا وفرا في هلع حتى خرجا إلى طريق عام. ظلا لبعض الوقت يبكيان بقلب واجف وجسد يختض فزعًا حتى هدآ.

***

_ أمي! حسام اتصل وأخبرني أن المحامي قد وصل إلى عنوان أم زوجة أبي الطفلين.

قالتها مريم فرحة مبشرة أمها.

قالت الجدة بلهفة:

_ حقًّا حبيبتي؟! إذن نسافر ونذهب إليهم.

أجابتها مريم:

_ يجب أن ننتظر أمي ونرى إلى ماذا ستصل الشرطة والمحامي؟

قاطعتها أمها بلهفة وشوق:

_ لا أستطيع الانتظار هنا هكذا، إذا لم تذهبا معي سأذهب وحدي.

ابتسمت مريم بتفهم وقالت:

_ حسنًا سأتصل بحسام ونرى.

***

فتاة تبدو في الثامنة عشرة من العمر متبرجة، وزينتها متوهجة، متلألئة بملابس قصيرة ضيقة تكاد تنفجر إلى أشلاء. تمشي متبخترة متمايلة وقفت أمامها إحدى السيارات فتحدثت مع سائقها قليلًا لكنه تركها ورحل. فعادت لتكمل مسيرها ذهابًا وإيابًا.

كانت رزان تنظر إليها حتى أفاقت من شرودها على صوت يوسف يهمس في أذنها:

_ فيم تشردين رزانتي؟

ابتسمت إليه تعانقه، كم تحب أن يدللها كما كانت تدللها أمها. رفعت عينيها فرأت من تتابعها بعينيها؛ إنها ذات الفتاة ذات الملابس القصيرة الضيقة والزينة الصاخبة. تلاقت أعينهما فابتسمت لها الفتاة، ثم اقتربت منهما وقالت بحنان مداعبة:

_ كيف حالكما؟

نظرا إليها وقالا بنفس الوقت:

_ حمدًا لله بخير.

فأكملت حديثها معهما بود:

_ ما اسمكما؟

وكعادته متسرعًا أخبرها يوسف باسميهما. وكعادتها الرزينة رزان حاولت التحكم في غضبها ومسحت بكفيها وجهها تستعيذ بربها من الشيطان حتى لا تتهور.

_ اسماكما جميلان. أنا اسمي ليلى.

هكذا قالت الفتاة مستأنسة بحديثهما، ابتسما لها مجاملة، جلست بجانبهما على الرصيف وسألتهما عن والديهما.

التفتت رزان مسرعة إلى أخيها تحذره حتى لا تفلت الكلمات من فمه. لكنها لم تلحق به فها هو يخبر الفتاة عن قصتهما. حركت رزان رأسها بيأس يمينًا ويسارًا.

تأثرت الفتاة لحالهما واحتضنتهما على حين غفلة منهما، مما أثار دهشتهما، ثم ابتعدت عنهما وقالت بابتسامة حزينة:

_ أأخبركما سرًّا؟ أنا مثلكما أشتاق إلى أمي وأبي وإخوتي.

عقدت رزان حاجبيها، وسبقها يوسف بسؤاله لليلى:

_ هل ماتوا جميعًا؟

قالت وهي تومئ برأسها بالنفي وتحرك سبابتها:

_ لا. ما زالوا على قيد الحياة. بارك الله في أعمارهم جميعًا.

هذه المرة سبقت رزان بسؤالها مستفهمة:

_ إذَنْ لماذا تشتاقين إليهم؟ ألا تعيشين معهم؟

أجابتها الفتاة بابتسامة حزينة:

_ لا، لا أعيش معهم. بل أعيش مع إحدى الصديقات.

سألتها رزان بفضول قد انتقلت إليها عدواه من أخيها:

_ ولماذا لا تعيشين مع أمك وأبيك وأخوتك؟

_ أين ذهبتما؟ ألم أخبركما أن تبقيا مكانكما ولا تذهبا؟ لقد ظننت أنني فقدتكما مرة أخرى!

صاح بها ذاك المجذوب مهرولًا إليهما بأعين قلقة متوترة. قاطع حديثهما فنظروا إليه ثلاثتهم في دهشة وقد أفزعهم صياحه. مسد بيديه على شعر الطفلين مكررًا ذات الجملة التي قالها بأول لقاء لهم وبأعين متحجرة بها الدموع قال لهما:

_ لا تخافا. أنا هنا لن أدع أحدًا يؤذيكما.

ما زالت نظرات الدهشة تسكن وجوههم. فأكمل قائلًا بصوت محب حنون وكلمات متلعثمة:

_ بحثت عنكما طوال اليوم في كل مكان.

ثم مسح دموعه بيديه وأكمل قائلًا:

_ ها أنا قد جئتكما بطعام؛ لا بد أنكما جائعان.

فاغري الفاه متسعي الأعين. كيف علم بهذا؟ ولِمَ يعاملهما هكذا كأنه يعرفهما؟

كالمرة السابقة آتاهما بشطيرة كبيرة. هذه المرة لم تتردد رزان ولم تنظر إلى يده المتسخة. أخذتها بهدوء ودهشة لم تنقطع.

ابتسم وقال لهما وهو ماضٍ في سبيله لا تذهبا بعيدًا مرة ثانية ثم هرول بعيدًا عنهما صائحًا بكلمات غير مترابطة.

أفاقا من دهشتهما على سؤال ليلى:

_ هل تعرفان المجذوب؟

أجابها يوسف قائلًا:

_ لا نعرفه. اصطدمنا به بالأمس. ثم جاءنا بشطيرة نأكلها حينما كنا جائعين بالأمس وها هو قد فعلها اليوم ثانية.

ضحكت ليلى قائلة بمرح:

_ أنتما لا تعلمان كم يخيفني هذا المجذوب! هذه المرة الأولى التي أراه بها يتكلم هكذا. دائمًا ما يصيح بكلمات غير مترابطة تائهًا في عالمه لا يُحَدِّث أحدًا أو صامت شارد.

ثم أكملت بود قائلة:

_ لا بد أن الله يحبكما كي يرسله إليكما بطعام.

ابتسما إليها، ثم سألت رزان ليلى:

_ هل تعرفين هذا المجذوب؟

هزت ليلى كتفيها وأجابتها:

_ لا أعرفه لكنني سمعت عنه الكثير من الحكايات. هناك من يقول إن قريبًا له قتل زوجته وأطفاله ذبحًا وأنه حين رآهم هكذا فقد عقله. وغيرهم يقول إن أولاده كبار وهم من طردوه من بيته فسار هائمًا في الشوارع حتى جن. وآخرون يقولون إن أولاده سافروا وتركوه وحده في منزله حتى أصبح يحدث نفسه وتاه عقله من الوحدة، هناك الكثير من الحكايات عنه.

تألم الطفلان لحاله وظهر على وجهيهما الحزن فربتت الفتاة على كتفيهما وقالت:

_ هيا تناولا طعامكما وأنا سأذهب إلى عملي.

باغتتها رزان بسؤالها:

_ وما هو عملك؟

ابتسمت لها ليلى بتصنع، ثم قالت بمرح محاولة الهرب من إجابتها:

_ فيما بعد، نكمل حديثنا فيما بعد.

ثم تركتهما ومضت في سبيلها.

تناولا الشطيرة ثم ناما كما ناما بالأمس دون أن يشعرا بأعين تراقبهما من بعيد.

***

استيقظا في الصباح على يد تربت عليهما بحنان. فتحا أعينهما فإذا بها إحدى الشحاذات تحمل طفلها النائم:

_ صباح الخير. لماذا تنامان على الرصيف هكذا؟

نظرت رزان إلى يوسف كعادتها محذرة، فقال لها بطفولة وصوت هامس رافعًا كفيه أمام كتفيه:

ـ لن أقول شيئًا.

ثم وضع باطن كفه على فمه، مما جعل رزان تضحك منه.

ابتسمت الشحاذة وربتت على كتفه وقالت:

ـ أنا أم فتحي.

أشارت إلى طفلها النائم على كتفها وقالت:

ـ وهذا طفلي الصغير علي.

ثم أكملت:

ـ يبدو أنكما لم تتناولا إفطاركما بعد، ما رأيكما أن نتناول إفطارنا معًا. هناك مطعم صغير بالقرب من هنا يبيع شطائر، تعاليا معي لنأكل هناك.

قبضت رزان على يد يوسف وأجابتها:

ـ أشكرك، لا نريد، فلتذهبي أنت حتى لا نعطلك.

نظر إليها يوسف بغيظ. فهو جائع فنصف شطيرة المجذوب بالأمس لم تكف لإخماد ثورة أمعائه.

همست إليه رزان في أذنه:

ـ يجب ألا نذهب مع الغرباء. أنسيت تحذيرات أمنا؟

فأجابها بهمس كهمسها:

ـ لكننا سنذهب معها على أول الطريق أمام الناس.

فقالت له:

ـ وما يدرينا أن كلامها صحيح؟

أخفض رأسه ناظرًا في الأرض بيأس. قاطعت الشحاذة همسهما قائلة بحنان:

ـ لا تخافا أنا مثل أمكما وأنتما كأطفالي، أعلم أنكما وحدكما وأنكما تائهان فأنا أشاهدكما منذ الأمس، وقلبي يؤلمني من أجلكما، ما رأيكما أن تمكثا معي

وأولادي حتى تصلا إلى والديكما؟

سعد يوسف بكلامها؛ طفل تائه ضائع فقد حنان أمه ثم يهديه الله أمًّا حنونة تعوضه، لكن رزان كعادتها لا تثق بغريب كما علمتها أمها مهما قال أو أبدى، صدقت كلماتها ونظراتها الحانية، لكنها اتخذت الريبة رفيقة لها.

أجابتها بأدب:

_ شكرًا لك. لا نريد إتعابك.

نظر إليها يوسف بصدمة، وحاول أن يعترض لكن نظرة حادة من عيني رزان ألجمته. فما كان منه إلا أن ضرب الأرض بقدمه.

نظرت إليها الشحاذة بحرج وقالت بحزن:

_ لن تتعباني أبدًا، ما يرزقني الله به هو قسمة بينكم وبين أولادي.

شكرتها رزان ثانية رافضة، فابتسمت الشحاذة بحزن وغادرت.

التفت يوسف إلى رزان هاتفًا بصوت محتقن:

_ لماذا رفضت؟ أتريدينا أن نظل في الشارع هكذا، دون بيت وننام دائمًا على الرصيف لا نجد ما نأكله وننتظر شطيرة المجذوب؟

أجابته رزان بهدوء:

_ لا تغضب يوسفي، لا يمكننا أن نأمن لهذه المرأة فنحن لا نعرفها. ألم تقل أمنا ألا نذهب مع أحد من الغرباء حتى لو قال إنه سيوصلنا إلى أهلنا؟ لأنه ربما يخدعنا ويحاول اختطافنا. وقد يُفعل بنا أشياء سيئة أو ربما يسرقون أجزاء من جسدنا ويبيعونها، أنسيت كل هذا؟

أجابها وما زال به بعض الضيق:

_ أنا تعبت. أفتقد بيتي وسريري وألعابي وحضن أمي وطعامها.

احتضنته رزان بحنان وحزن وألم وقالت:

_ وأنا أيضًا تعبت وأفتقد كل ذلك. لكنني أخاف أن يصيبنا مكروه. ثم

أمسكت يده وحقيبة ملابسها وقالت:

_ هيا، تعالَ نتمشى قليلًا.

سارا ولم يريا عيني من كان يتربص بهما وينوى لهما شرًّا.

***

طفل يلعب أمام أحد المحلات بالكرة. يكبر يوسف بعام أو عامين؛ تعلقت أنظار يوسف به، كم افتقد ألعابه! كرته وقطاره ومكعباته، هل سيعود إليها يومًا أم أنه لن يلعب بها ثانيةً؟

التفتت إليه رزان ثم نظرت إلى ما ينظر إليه. ففهمت ما بقلبه وعقله. تشعر به وبألمه. أوليست طفلة مثله؟! توقفت عن السير ومسدت على شعره وقالت:

_ أتحب أن تلعب معه؟

نظر إليها يوسف بغبطة وأومأ برأسه بالموافقة فذهبت إلى الصغير الذي يلعب بالكرة وطلبت منه أن يسمح ليوسف باللعب معه. ابتسم الطفل بترحاب وظلا يلعبان وأنظار رزان عليهما تراقبهما وتحرسهما كأم تخاف على طفلها إلى أن شاركتهما اللعب.

منهمكان في اللعب لا يشعران بالعالم حولهما، فرحان نسيا ما حدث وما رأيا فقط عادا إلى أصلهما؛ طفلان. ليس لهما شغل ولا شاغل إلا اللعب. ما أخرج ثلاثتهم من عالمهم سوى صوت رجل ينادي:

_ مهند.

التفت الطفل إلى صاحب الصوت الواقف أمام المحل وترك اللعب وأجاب هاتفًا:

_ نعم أبي.

هتف الرجل قائلًا:

_ هيا تعال كي تأكل.

يا إلهي! يأكل؟! كم أنسى اللعب يوسف ورزان جوعهما، لكنهما بمجرد أن توقفا تذكرا. نظر يوسف إلى رزان نظرة ذات مغزى، أجابته بنظراتها تصبره فأخفض بصره أرضًا.

ابتسم مهند إليهما. وقال:

_ سأذهب إلى أبي أراكما لاحقًا.

ثم ذهب.

نظر الرجل إلى الطفلان وإلى حقيبة ملابسهما. ثم سأل ابنه:

_ من هذان؟

أجابه مهند كأنهما صديقاه المقربان منذ زمن:

_ إنهما صديقاي يوسف وأخته رزان.

كان الطفلان قد التفتا ليذهبا فناداهما الأب:

_ يوسف ورزان، أيها الطفلان تعاليا.

التفتا إليه عائدين، ثم قالا بأدب:

_ نعم أيها العم.

نظر إليهما متفحصًا ثم سألهما السؤال الذي اعتادا عليه

نظرت إلى يوسف محذرة ثم أخيرًا ومضت في رأسها فكرة وقالت بصوت يحاول الخروج بثبات وثقة:

_ نحن قادمان من السفر مع زوجة أبي. وقالت لنا أن ننتظرها بجانب حقيبة السفر ريثما تشتري بعض الأشياء.

هي لم تكذب؛ لقد قالت الحقيقة لكنها لم تقل جل الحقيقة، لم تقل له إن زوجة أبيهما ذهبت لا لتشتري بعض الأشياء ولكن لتتخلى عنهما، لم تخبره أن إخوة يوسف لم يموتوا وأنهم تركوا من خلفهم سلالة متمرسة في الغدر والخيانة.

تعجب الرجل في نفسه كيف تتركهما زوجة أبيهما وحدهما وهما طفلان صغيران في بلد غريب لتذهب للتسوق؟! تألم لأجلهما ثم سألهما:

_ هل والداكما مطلقان؟

نظر إليه يوسف بعدم فهم للكلمة «مطلقان»! طفل بريء لا يعلم من الدنيا سوى القليل، أما رزان فابتسمت ابتسامة حزينة وأجابته قائلة:

_ لا، بل أمنا توفاها الله.

حزن قلبه لأجلهما وقال:

_ تعاليا تناولا طعامكما مع مهند، لا بد أنكما متعبان جائعان من السفر.

نظرت رزان إليه باستحياء وأخفضت رأسها. أما يوسف فنظر إلى أمه الصغرى؛ أتقبل الدعوة فيقبل مثلها؟!

أومأت إلى العم بالقبول ولكنها قالت:

_ حسنًا. لكن أيوجد حمام نريد أن نغسل أيدينا ووجهينا.

ابتسم إليهما وأشار لهما إلى طريق الحمام، دخلا وأغلقا الباب. غسلا وجهيهما وأيديهما وبدلا ثيابهما وخرجا ليتناولا طعامهما بعد جوع طويل.

بعد تناول الطعام استأذنت رزان الرجل لتذهب فأجابها:

_ ألن تأتي زوجة أبيكما لتأخذكما من أمام المحل هنا حيث تركتكما؟

تلجلجت رزان وقالت:

_ لا، هي لم تتركنا هنا. نحن تعبنا من الانتظار فتمشينا.

هتف مهند مترجيًا:

_ ابقيا معي لنلعب قليلًا بالكرة.

نظر إليها يوسف مترجيًا متوسلًا، نظرت هي أيضًا إليه بقلب متألم؛ لا يهون عليها حزنه لكنها مجبرة على الرحيل وأخذه معها.

وجهت حديثها إلى مهند مع ابتسامة مصطنعة وقالت:

_ إذا جئنا إلى هنا مرة أخرى سنمر عليك كي نلعب معًا، لكننا يجب أن نرحل الآن.

قلب مهند شفته السفلى خافضًا رأسه بحزن. فابتسم أبوه وودعهما حتى لا يتأخرا على زوجة أبيهما ويتوها عنها.

***

الفصل الثالث

«طريق اللا عودة»

يشاهدان معروضات المحلات يتذكران أمهما وتسوقهما معها. كم كانا يكلان ويملان ويتذمران من السير والتسوق. وكم كانت أمهما تصبِّرهما وتصبر عليهما. الآن يتمنيان لو تعود فقط تعود ولن يتذمرا أبدًا. فلتعد لتعود الحياة إليهما.

التفتا يكملان سيرهما فإذا بها تناديهما:

_ أيها الطفلان.

نظرا إليها بتعجب، فقالت مبتسمة بعطف وحنان:

_ لم تقبلا أن تأتيا معي إلى المطعم لتتناولا إفطاركما معي في الصباح، جئت إليكما بالطعام والشراب كي نأكل معًا.

نظر إليها يوسف بغبطة، فلم ترد رزان أن تحزنه وترفض جلست الشحاذة معهما وأعطتهما الطعام والعصير. وبدأت تحكي معهما وسألتهما عن والداهما وقبل أن يجيباها رأيا سيدًا وأشارا إليه فلوح إليهما مبتسمًا من بعيد ثم ذهب. فسألتهما:

_ أتعرفانه؟

فأجابها يوسف بتلقائية مبتسمًا:

_ نعم تعرفنا عليه البارحة.

فابتسمت له بحنان وأخذت علبتي العصير وفتحتهما له ولأخته ووضعت

بها قشتي الشراب وقالت:

_ هيا اشربا العصير مع الطعام كي يساعد في الهضم.

***

_ لماذا تأخرت هكذا سيستفيقان وننكشف؟ هيا أسرع قبل أن يفيقا.

قالتها بعصبية وتوتر وهي تحدث أحدهم في الهاتف.

_ أنت. إلى أين تأخذينه وأين أخته؟

هتف بها المجذوب صائحًا حينما رآها تحمل يوسف نائمًا على كتفها. وهرول إليها جزعًا:

_ أيتها المجرمة اتركيه، إلى أين ستأخذينه وظل يجذبه منها وهي متمسكة به تهتف بكل قوتها:

_ كفى أيها المجذوب هذا ولدي. أتريد أن تختطفه؟ ابتعد عنا.

تجمع الناس على صياحهما وما زال كل منها متشبثًا بالطفل الذي لا يعي ما يحدث.

فإذ بفتى كان في طريقه إلى بيته سمع الشجار ولم يلتفت أو يهتم. وسار يكمل طريقه بجوارهم لكن. يا إلهي! التفتت المرأة بعدما جذبها المجذوب ورأى الفتى يوسف نائمًا وهي تحمله، إنها تلك المرأة التي كانت تأكل معهما. لكن أين رزان؟ ولماذا المرأة تحمل يوسف نائمًا هكذا؟!

ترك سيد جعبته التي يحملها على كتفه أرضًا وهرول مسرعًا متسللًا بين الجموع.

_ إنه ليس ولدك، المجذوب محق.

هكذا قال سيد محاولًا إنقاذ يوسف، ثم أكمل مردفًا:

_ أين أخته أيتها الخاطفة؟ ماذا فعلت بها وبه؟

صاحت به هو الآخر مكذبة ومؤكدة على أمومتها ليوسف، منكرة ما قاله

أكد المجذوب على كلام سيد وقال بتلعثم:

_ نعم نعم هو محق. هذا ليس طفلك أنت خاطفة ماذا فعلت به وبأخته؟

قالها وهو ما زال ممسكًا بملابس يوسف من ظهره. تعرق وجهها وزادت دقات قلبها وقالت متلجلجة مدافعة:

_ أنتما كاذبان!

ثم وجهت حديثها إلى الجمع الواقف متابعًا هاتفة:

_ أتصدقون مجذوبًا وفتى متشردًا، من المؤكد أنهما فردان في عصابة تخطف الأطفال هو طفلي وولدته من بطني.

عند هذه الجملة قال أحدهم متفرسًا فيها:

_ أتقولين إنك أمه وإنك من ولدته؟

هتفت بصوت يحاول النجاة:

_ نعم، نعم. هو ولدي صغيري.

سألها الرجل يختبرها:

_ ألديه إخوة أو أخوات؟

أجابته محاولة إبعاد شبهة ما قاله المجذوب والفتى وقالت:

_ نعم له إخوة لكن ليس له أخوات.

نظر إليها الرجل وهتف:

_ أنت كاذبة، تقولين إنك أمه من ولدته وهو أمه متوفاة. لو كنت قلت إنك زوجة أبيه كنت صدقتك. لكنك كذبت هذا الطفل اسمه يوسف وأمه متوفاة وله أخت اسمها رزان.

أكد على كلام أبيه بصوته الضعيف الصغير مهند. فأردف أبوه هاتفًا:

_ ثم لماذا هو نائم هكذا؟ لماذا لم يستيقظ رغم كل هذا الصخب؟ أيقظيه لنسأله.

لم تعرف ماذا تفعل؟ صرخت بفزع:

_ أنتم كاذبون، هو طفلي وأنا أمه.

نزع المجذوب يوسف من بين ذراعيها وحمله ضامًّا إياه باكيًا، شهقاته تؤلم القلوب قبل الآذان.

حاوط الجمع الشحاذة وأبلغ أبو مهند الشرطة وطلب منهم إحضار الإسعاف معهم. لم يروا من نزل من سيارته حينما رأى الجمع وفر فور أن رآها هكذا ناجيًا بنفسه قبل أن تراه وتعترف بأنه شريكها.

_ حمدًا لله ها هي.

قالها سيد لنفسه حامدًا لله شاكرًا له بعدما تركهم، وتسلل إلى المكان الذي رآهم فيه آخر مرة. ظل يربت بيديه على وجهها محاولًا إفاقتها. لكنه لم يفلح. ذهب إليهم ودلهم عليها. ذهب أبو مهند وطفله إليها جاؤوا ببعض الماء وحاولوا إفاقتها لكنها لم تستفق. حملها الرجل وذهب بها إلى الجمع مع أخيها، هرول المجذوب إليها وهو ما زال يحمل أخاها، جلس أرضًا مستمرًّا ببكائه وشهقاته، وضع أبو مهند رزان مغشيًّا عليها بجواره.

بعد مرور القليل من الوقت بدأت رزان تحرك أهدابها وعينيها بحركات زائغة. ابتسم المجذوب وأبو مهند وسيد ونادوها، حاولت أن تستعيد وعيها ونظرت حولها.

_ ماذا حدث؟ رأسي تؤلمني.

قالتها بصوت متعب متألم.

قال لها أبو مهند بحنان مبتسم:

_ حمدًا لله على سلامتك.

عقدت ما بين حاجبيها تحاول فهم ما يجري. حاولت أن تجلس، لكن الألم برأسها لم يبرحها. تحملت الألم وجلست تلتفت بهدوء حولها حتى رأت يوسف

والمجـذوب يحملـه؛ صرخت وصرخ قلبهـا، كأن هناك من قطع نياطه بسـكين ثلم. شق روحها نائم بلا حراك. أتفقده كما فقدت أمها؟!

_ يوسف.

نادتـه وقد سـبقت دموعها صوتها في الخـروج هاربة من مقلتيهـا، ربت أبو مهنـد على كتفها محاولًا تهدئتها وسـيد أيضًا لم يدعهـا، لكن المجذوب نظر إليها وقد عادت إليه روحه وقال مبتسمًا:

_ لا تبكي، لا تخافي، أنا هنا، لم أدع أحدًا يؤذيكما.

قالهـا كأنـه يواجـه الدنيا بها مفاخـرًا متحديًا؛ هو ليس إنسـانًا بـلا قيمة ولا أهمية، حتى ولو كان وحيدًا شاردًا شريدًا، حتى وإن هجره الناس وسخروا منه فهو طوق نجاة لأحدهم، هو استطاع إنقاذ من لا حيلة له.

اقتربت منه وربتت بيدها الصغيرة على وجه أخيها هاتفة باسمه، ثم مسدت على شـعره فإذا بعينيه تتحـركان. قهقهت ضاحكة وكذلـك المجذوب وارتمت على يوسـف تحتضنه بسـعادة وهـو ما زال على وضعه نائم عـلى ذراع المجذوب لكن عينيه مفتوحتان.

ابتسـم الجميع واكتمل فيض المشـاعر باحتضان المجذوب لهما، لم يتقززا منه ولا من رائحته وثيابه القذرة بل فقط شـعرا بالأمان، أمان أب وحنانه لم يشـعرا به من قبل.

_ ماذا حدث؟ لا أذكر شيئًا سوى أننا كنا نتناول الطعام وشربنا العصير.

قالتها رزان ناظرة إلى يوسف الذي قال بصوت متحشرج:

_ وأنا أيضًا لا أذكر شيئًا سوى ذلك.

ابتسم أبو مهند وقص عليهما ما حدث وسيد يشاركه قَصَّه.

صمتا وتحجرا في مكانهما، أهذا ما حذرتهما أمهما منه؟! أهو حقًّا وليس مجرد تخويف لهما حرصًا عليهما؟! تشـبثت رزان بيد يوسـف ثم جذبته وشـددت من

احتضانها له.

التفتت على سؤال أبو مهند مستفهمًا:

_ أين زوجة أبيكما؟ لماذا لم تأتِ إليكما؟

توترت وتلجلجت، ثم نقلت بصرها بينه وبين سيد والمجذوب، ماذا تقول؟! لا حيلة لها سوى الاعتراف والمصارحة، سيد يعرف الحقيقة لكن المجذوب وأبو مهند لا يعرفانها.

قصت عليهم قصتها، تاه المجذوب في عالمه حالما سمعها، فقط بكت عيناه تفيض بما يحكى ما لم يبح به صاحبه.

صدم أبو مهند مما سمع، أيمكن لأب أن يرحل عن أطفاله هكذا، كأن شيئًا لم يكن؟!

مسد على رأسيهما وقبل جبينيهما وسألهما عن أقاربهما فأخبراه بأمر جدتهما وخالتهما فقال:

_ حسنًا، أنا اتصلت بالشرطة وهم في الطريق والأفضل أن تقصا عليهم قصتكما كي يساعدونكما في الوصول إلى جدتكما.

نظرت إليه رزان بخوف وهتفت:

_ لا، الشرطة لا.

سألها أبو مهند عن السبب مستفهمًا فقصت عليه ما فعله الشرطي بالصبي، ربت على كتفها بحنان وقال:

_ لا تخافي ولا تقلقي، كل مكان فيه الطيب والسيئ. ثم إنك لم تفعلي سوءًا لتخافي، بل على العكس أنت هنا الضحية، هذا هو الحل الوحيد لتعودا إلى أهلكما.

نظرت إليه رزان ثم إلى أخيها وأومأت له بالموافقة.

بعد وقت قصير أتت الشرطة وأخبرهم الطفلان والشهود بما حدث وقام

أبـو مهند بإخبارهـم بقصة الصغيرين فأخـبره الشرطي أنه سـيأخذهما معه إلى القسم لعمل إجراءات البحث عن أهلهما، سأله أبو مهند:

ـ هل يبقيان بالقسم حتى تصلا إلى أهلهما؟

فأجابه الشرطي:

ـ لا. بعد عمل الإجراءات سنقوم بإيداع كل منهما في دار رعاية اجتماعية.

فسأله الرجل:

ـ أهذا يعني أنكما ستفرقون بينهما؟

فأجابه الشرطي:

ـ نعم. فقط حتى نصل إلى أهلهما.

نظر إليه أبو مهند بضيق وحزن فهو لا يتمنى لهما أن يفترقا.

ذهب الشرطي ومن معه إلى الشـحاذة وأخذوها كي تركب سـيارة الشرطة معهم ليذهبوا بها إلى القسم. ثم التفت ليساعد رزان وأخاها في ركوب السيارة ليأخذهما أيضًا إلى القسم لكنه لم يجدهما.

بحث الجميع عنهما لكنهما اختفيا كذرتي ملح ذابتا في الماء.

هربا؛ خافا من الفراق! ألا يكفى فراقهما لأمهما؟

هذه المرة لم يكن الهروب قرار رزان وحدها بل كان قرارًا مشتركًا بينهما.

***

ربما مرت سـاعة أو سـاعتان تعبا من السـير وتعبت من جر الحقيبة، خرجا من الشارع الجانبي إلى الطريق العام حتى يشعرا بأنس ولا يتأذيا بعيدًا عن أعين الناس، هكذا قررت تلك الأم الصغيرة كي تحمي صغيرها ثم نفسها.

بعد إغـلاق المحلات حاولا النوم. لكن النوم قد أبـى زيارة أعينهما. قامت رزان واعتدلت في جلستها، وكذلك فعل يوسف مثلها. ألقى برأسه على كتفها يلقي معها كل ما يقلقه. أمسـكت رأسـه بيدها وقبلته، ثم تقابلت نظراتهما تبث

شـكواهما، فقط عبرات تخرج من ينابيعها، فضفضة دون كلام حديث لا يفهمه سوى كلاهما.

_ يوسف، رزان، كيف حالكما؟

هتفـت بها ليـلى فرحة، التفتا إليها بأعين متربصة وشـددا مـن قبضتيهما على كفي بعضهما بعضًا.

ابتسمت لهما واقتربت منهما ومسحت بكفيها على وجهيهما وقالت:

_ ماذا بكما؟ لماذا تبكيان؟

ما زال الصمت جوابهما. شعرت بالقلق فقالت بارتياب:

_ لماذا لا تجيبانني؟ أأنتما غاضبان مني؟ أفعلت شيئًا أغضبكما؟

حرك الطفلان رأسيهما يمينًا ويسارًا. فسألتهما:

_ إذَنْ أخبراني ماذا حدث لكما؟ ولماذا كنتما تبكيان؟

تنهـدت رزان تنهيدة حارة تحاول بهـا التنفيس عما بداخلها من بركان الحزن والهم والقهر. ثم أجابتها:

_ لماذا تسألين؟ أهناك شيء سيئ تضمرينه لنا؟

سـألتها وكأنها تسـأل هذا العالم المخيـف بأكمله. أهناك من السـوء ما لم نره بعد؟! سألت ولم تعلم أن الإجابة «هناك الأسوأ دائمًا».

وضعت ليلى يدها على قلبها وشهقت من سؤالها وهتفت:

_ لمـاذا تقـولان هكـذا؟ أنـا لم أرد بكما سـوءًا قط، أنـا فقط أحببتكـما فأنتما تذكرانني بإخوتي الصغار.

واغرورقـت عيناهـا بالعبرات. رقت لهـا رزان، نظـرت إلى أخيها وعادت ببصرها إليها، ثم ربتت على يديها وقالت:

_ آسفة. لم أقصد أن أحزنك.

ابتسمت لها ليلى ابتسامة حزينة وقالت بحنان:

_ لا عليكِ، فقط أخبريني ماذا حدث لتحزنا هكذا؟

وبالطبع كان يوسف هو من تسلم منصة القص.

كانت ليلى تستمع إليه غير مندهشة فقد اعتادت على قصص الرعب التي تسمعها وتراها، لكنها كانت مشفقة عليهما. تألم قلبها من أجلهما، وقالت وهي تربت عليهما:

_ هذا أفضل لكما اذهبا إلى الشرطة، ربما تفترقان ليس لوقت طويل؛ فقط ريثما يصلون إلى جدتكما.

وقبل أن تكمل حديثها أومآ بالرفض فأكملت:

_ حسنًا إذا لم تريدا ذلك فأنا أعتقد أنكما يجب أن تسافرا إلى القاهرة عند جدتكما!

صمتت قليلًا ثم أردفت موضحة:

_ حتى لو لم تعرفا مكانها ستجدان وسيلة للوصول إليها.

عقدا ما بين حاجبيهما وسألاها:

_ كيف نسافر؟ نحن لا نعرف الطريق.

ابتسمت لهما ليلى وقالت:

_ لا تقلقا بهذا الشأن، المهم أن تصلا إلى جدتكما. أخاف عليكما من الشارع، لا أريدكما أن تمكثا فيه فيسحق براءتكما.

ثم أخفضت رأسها وبصرها بانكسار وأكملت:

_ لا أريد لكما أن تصبحا مثلي.

قطبت رزان جبينها وقالت باستفهام:

_ مثلك كيف؟

هربت ليلى بعينيها وقالت:

_ هيا حاولا أن تناما ولا تسهرا أكثر من ذلك.

وتركتهما وذهبت مسرعة.

***

استيقظا على صوت الحياة بصخبها، أناس تمشي بجانبهما لا تراهما كأنهما هواء، قاما وجلسا ثم نظرا حولهما فرأيا من يجلس بجوارهما كأنه حارسهما، إنه المجذوب، فالآخرون حينما لم يجدوهما يئسوا إلا هو أبدًا لم ييأس، جاب في الجوار حتى وجدهما نائمين فجلس ينتظرهما حتى يستيقظا.

نظرا إليه في دهشة. ابتسم لهما وقال في تلعثم:

_ بحثت عنكما كثيرًا، لماذا ذهبتما هكذا؟

ابتسمت له رزان وقالت بود:

_ صباح الخير يا عم.

نظر إليها بوجه متجمد وعينين متسعتين من الدهشة؛ أهناك من يعتبره إنسانًا ويقول له صباح الخير؟! لم يرد إليها التحية فقد نسي كيف يكون الرد.

قطع دهشته وجموده صوت يوسف يسأله:

_ هل ذهبت الشرطة وذهب الجميع؟

نظر إليه وهو ما زال شاردًا، ثم أومأ برأسه أن نعم.

_ حمدًا لله وجدتكما قبل أن تذهبا من هنا.

قالتها ليلى وهي تنهج، ثم أكملت:

_ هاتان تذكرتا قطار إلى القاهرة، هيا أسرعا فموعد القطار بعد أقل من ساعة. وهذه أكياس بها بعض الشطائر والمعجنات والحلوى، وهذا مبلغ قليل من المال احتفظا به كي تشتريا طعامكما لأيام قادمة. أعلم أنه قليل لكنه ما لديَّ حاليًا.

نظرا إليها متعجبين مما تفوهت مرت بعقليهما الكلمات، لكنهما لم يستوعبا. أجابت تساؤلهما الذي رأته في عينيهما وأردفت موضحة:

ـ تسافران إلى القاهرة حيث جدتكما، ربما تجدان سبيلًا لإيصالكما إليها. لا تيأسا، فقط ابحثا عنها حتى في وجوه كل من ترونهم وعن خالتكما، ولا تفترقا أبدًا مهما حدث حافظا على نفسيكما. اذكراني وادعيا لي أن يغفر الله لي ويتوب عليَّ.

هما ضالان ضائعان هنا لكنهما أيضًا خائفان من المجهول، ربما هو الاعتياد؛ الاعتياد على المكان، الاعتياد أن هناك من يأتي إليك لحظة يأسك منقذًا، الاعتياد على وجوه ألفتها وطرقات حفظتها.

أومأ إليها الطفلان برأسيهما مبتسمين فعانقتهما عناقًا طويلًا وقبلت رأسيهما باكية، ثم قالت:

ـ هيا كي أوصلكما إلى محطة القطار، انتظراني هنا حتى أوقف سيارة أجرة.

نظر الطفلان إلى المجذوب، جالسًا محتضنًا ساقيه بذراعيه محركًا رأسه بتوتر وعصبية. وضعا كفيهما الصغيرين على كتفيه وقالا بآنٍ واحد:

ـ وداعًا أيها العم.

وقبلت رزان رأسه ومثلها يوسف قد فعل، لم يجبهما فقط تاه في عالمه مرة أخرى، فمن كانا يستحقان أن يخرج من عالمه سيتركانه، سيتركانه في عالم هو له ككيس قمامة ملقى مهمل إلا من نظرات الخوف والفزع وأيضًا الاشمئزاز والتقزز.

سمعا صوت ليلى تناديهما:

ـ هيا أيها الصغيران. السيارة منتظرة.

سارا في طريقهما إلى السيارة بأنظار معلقة بمن كان دومًا منقذًا لهما.

***

وصلوا إلى قسم الشرطة مستبشرين يكاد قلب الجدة يخرج من صدرها متلهفًا لفرحة اللقيا بعد الغياب فكانت الصاعقة:

_ للأسف زوجة أبيهما قالت إن أباهما طلقها منذ أيام وأخذ الطفلين ورحل مسافرًا.

هكذا قالها الشرطي بحزن متوقعًا أثر كلماته على الجدة والخالة بعدما رأى لهفتهما على الطفلين.

خرجت من فم الجدة الكلمات بجهاد مستفهمة:

_ سافر إلى أين؟

أجابها الشرطي:

_ قالت إنه لم يخبرها.

هل ضاعا منها هل خسرتهما؟ تكاد دقات قلبها تتوقف!

_ معذرة، أيمكن أن تعطينا عنوانها، ربما نستطيع معرفة أي معلومة منها.

سأله حسام فأومأ الشرطي بتفهم وأعطاه العنوان. ذهبوا ثلاثتهم إلى العنوان بأمل ضعيف كنبض قلوبهم لكن لا يمكنهم تجاهله.

***

تذاكر، تذاكر!

كلمة أفاقتهما من شرودهما وخوفهما من المجهول القادم، أخرجت رزان تذكرتيهما من الحقيبة تستعد لإعطائهما لمحصل التذاكر حينما رأته يتحدث إلى أحد أفراد الشرطة. دب الخوف في قلبها أن يرتاب المحصل فيهما ويسألهما عن والديهما ثم يسلمهما إلى الشرطة ويفترقا.

ما زال المحصل يقترب حتى وقعت عيناها على رجل قابع على الكرسي المقابل لهما فومضت في رأسها فكرة.

_ معذرة أيها العم، هلا أعطيت هاتين التذكرتين للمحصل ريثما أخرج بعض الشطائر لي ولأخي من الحقيبة كي نتناول إفطارنا؟

قالتها له في محاولة للهروب من المحصل، أخذهما منها وضم إليهما تذكرته

ثـم أعطاهم للمحصـل اليى أخذهم ومـضى، تنهدت براحة ثـم أعطت أخاها الشـطيرة وقضمت من شـطيرتها قضمة توقفت في حلقهما حينما سـألهما الرجل متعجبًا:

ـ أين والداكما؟ ولماذا تسافران وحدكما؟

لم تعرف بما تجيب؟ نظرت إلى أخيها الذي كان يبادلها ذات النظرة وصمتت هنيهة، ثم أجابته:

ـ جدتي وخالتي تنتظراننا بالقاهرة.

لم تزد. قالتها وقلبها يأمل ذلك. لم تقنع الرجل الإجابة فقال مستفهمًا:

ـ وأين والداكما؟ كيف يتركانكما تسافران وحدكما هكذا؟

أجابه يوسف:

ـ والدتنا توفيت و...

قبـل أن يكمل قاطعته رزان وهي تنظر إليه معاتبة، ألم يتعلم الدرس بعد؟! وقالت:

ـ زوجة أبينا ركبت معنا القطار ثم تركتنا وذهبت.

ابتسـم الرجل بتهكم وحـزن من زوجة أبيهما لكنها القلـوب؛ والرحمة التي تقززت من سوادها فأبت أن تسكنها.

***

ـ لا أعلم إلى أين ذهب بهما!

قالتها زوجة الأب بتلعثم، فهذا ما يحدث بالإنسـان عندما يكذب؛ طرقات قلبه تزيغ عينيه وتثقل لسانه وتفضحه.

نظروا إليها جميعًا بشك، لكن لا حيلة لهم ماذا يفعلون؟

أجبرت الجدة قدميها على الوقوف، وقالت بتوسل ورجاء محاولة استعطاف قلب المرأة بداخلها:

_ أرجوك أخبريني أي شيء عنهما يطمئن قلبي الملتاع، وسأعطيكِ ما تطلبين وإذا كنت خائفة من شيء لا تخافي لن أسمح لشيء أن يضرك.

حسنًا، ربما رق قلبها قليلًا لكن ماذا تخبرهم؟ أتخبرهم أنها ألقت بطفلين بريئين في عالم التيه والضياع انتقامًا من زوج طلقها بعد زواج لم يدم سوى أسبوعين تاركًا لها طفليه؟! لن تنجو بفعلتها إذَنْ أبدًا.

خرجت عن صمتها بجوابها بثبات وقوة استمدتها من نفس ينحني لها الشيطان تحية قائلة:

_ لا أعلم شيئًا غير ما قلته لكم.

خرجوا من بيت أمها مطأطئي رؤوسهم، ذراع مريم يحاوط كتف أمها ويدها الأخرى تساندها، دموع تنهمر من أعينهما ورعب وضيق احتل قلبيهما

***

_ أما زلت جالسًا هنا أيها العم؟

سألته ليلى متعجبة، فالمجذوب ما زال جالسًا شاردًا في عالمه بوجه متجمد.

لم يجبها كأنه لا يسمعها. نظرت إليه بحزن وسألته:

_ أأنت حزين على فراقهما؟

لم يجبها هذه المرة أيضًا، فجلست بجواره وقالت بصوت يخرج من حلق متألم من غصة تكاد تفتك به:

_ أنا فعلت ذلك من أجل مصلحتهما، ربما يساعدهما أحدهم هناك ويعطف عليهما ويبحث عن جدتهما، لا أريدهما أن يبقيا في الشارع ويتلوث قلباهما، لا أريدهما أن يتدنسا مثلي، أترضاها لهما؟ ألا تخاف عليهما من وحوش الشارع؟

لم يعقب، ولم ينبس ببنت شفة، فقط التفت ينظر إليها بأعين شراينها تكاد تنفجر لتبكي دمًا. ثم عاد ينظر أمامه مرة أخرى بأعين تائهة بعالمه.

أكملت حديثها باكية:

_ أعلم أنك تسمعني رغم أنني كنت أظن عكس ذلك من قبل، لكن دعني أقص عليك قصتي.

منذ قرابة العامين كنت في المرحلة الثانوية لم أكن هكذا.

ثم أشارت إلى ملابسها وأردفت:

_ كنت طالبة مجتهدة. ذات خلق حتى..

أدارت وجهها بعيدًا عن نظرات المجذوب

_ حتى تعرفت على شاب عبر الفيسبوك، كنت أشعر بخطأ ما أفعله لكن الشيطان أغواني واتبعت خطواته. فأنا لم أكن أفعل شيئًا سيئًا فقط نتحدث حديثًا عامًّا. هكذا كانت أولى خطوات الشيطان ثم بعدها أحببته وأحبني أو هكذا أوهمني، حتى إنه قال لي إنه يتمنى الزواج بي لولا أنني ما زلت أدرس ولن توافق عائلتي على زواجنا، بدأت خطوات الشيطان تزداد اتساعًا طلب مني تشغيل الكاميرا؛ فأنا سأصبح زوجته وهو يشتاق إلى رؤيتي، هكذا قالها، ترددت في البداية وضميري لم يطاوعني لكنني راوغته ووافقت بشرط أن أكون بحجابي. وافق بالطبع فهو يحبني ويخاف عليَّ، وكانت هذه قمة الجبل التي سقطت من فوقها التنازلات واحدة تلو الأخرى إلى أن وصلت إلى قاع الوحل، بعد أن كنت أحادثه عبر الكاميرا بحجابي أصبحت بشعري ثم بملابس البيت ثم من بعدها...

صمتت خجلًا مطأطأة رأسها ثم استطردت:

_ فهل هناك من تخاف من زوجها المستقبلي ولا تثق به؟

أنبني ضميري فأخبرته «يجب أن نتوقف عن هذا ويجب أن يأتي لخطبتي» في البداية كان يتحجج بحجج واهية حتى أخبرته أنني سأقطع علاقتي به. وقتها شعرت أنه شخص آخر، أهذا الذي تنازلت عن كل شيء من أجله؟ ديني وأخلاقي وكل شيء؟ هددني بصوري وفيديوهاتي التي كنت أحدثه عبرها

دون ستري. وقتها فقط أفقت من غفلتي. ماذا فعلت بنفسي وبأهلي؟ ألهذا الحد بخست نفسي؟! ماذا سأفعل إذا نفذ تهديده وأوصل هذه الصور والفيديوهات إلى أهلي؟ محال! سيقتلونني دون شك.

بدأت مقايضاته، إما أذهب إليه وإما ينفذ تهديده، لم أعرف ماذا أفعل، ليس هناك من أحد أشكو همي وخطئي له! أمي طيبة لكنها لم تكن أبدًا صديقتي، كلما حادثتها بمشاعري تبتسم وتسخر قائلة:

_ لو سمعتك جدتك لأهلكتك ضربًا، وقالت عليك قليلة الأدب والحياء.

أما أبي فرجل شديد العصبية، لا أذكر يومًا أن أخبرنا بحبه لنا أو احتضننا، إذا دخل البيت فجميعنا هادئون طائعون فهو لا يسمح بالخطأ، وإذا حدث فما أشد عقابه صياح شديد، وإذا زاد حجم الخطأ فصفعات قاسية تعرف طريقها إلى وجوهنا، فكيف أطلب منه المساعدة في أمر كهذا؟ مؤكد سيكون عقابي هو القتل .

اسود العالم بوجهي لم أجد بدًّا سوى أن أذهب إليه. وكانت هذه تذكرة الذهاب بلا رجعة. فعلت معه ما يغضب ربي. وبالطبع عرف ثغرتي أصبح كل مرة يهددني إن لم أذهب إليه سينفذ تهديده فهذه المرة أيضًا صور ما حدث بيننا. لكنني كرهت نفسي وكرهت ما حدث، أبيت أن أذهب إليه ثانية فأرسل صوري معه إلى أبي الذي بالفعل كاد يقتلني، أفلتُّ من بين يديه بأعجوبة وفررت ومن وقتها لم أعد إلى البيت، وكان الشارع هو بيتي. لم أكن أجد لقمة واحدة أتناولها لأيام، ثم انتهكت حرمتي رغمًا عني مرة أخرى من وحوش البشر، قررت أن أسافر إلى مدينة غير مدينتي حتى لا يقابلني أحد يعرفني فيخبر أهلي، جئت إلى هنا ثم بعد فترة تعرفت على إحداهن واستأجرنا شقة نسكنها معًا، وأصبح هذا هو عملي؛ الحرام.

ثم استطردت:

_ كم أبغض نفسي وأتمنى أن أعود إلى حياتي الطاهرة النقية فأنا حائرة في

وسـط الطريـق لا أنا أنتمى لمـن اخترن طريق الفحش برغبتهن ولا أنا سـلكت طريق التوبة.

كانـت تقص قصتها دون أن تتوقف سـيول عينيها مـن الندم ثم التفتت إليه تقول:

ـ أتظن أنني يمكنني التوبة والعودة إلى أهلي يومًا ما؟

***

ساعات مضت حتى توقف القطار ورأت يافطة كتب عليها محطة القاهرة.

زفـرت زفرة تحاول بها طرد ما بقلبها مـن خوف تبادلت النظرات مع أخيها ثم أمسكت الحقيبة تجرها خلفها، نزلا من القطار ثم خرجا من المحطة.

ينظـران حولهما، يتذكـران لحظة أن تركتهما زوجة أبيهـما منذ أيام معدودات فقط، تغيرت فيها الحياة وانقلبت رأسًا على عقب.

سارا بغير هدى حيث تأخذهما أقدامهما يجلسان ليستريحا، زحام وضوضاء، سيارات كثيفة وأناس كثر.

وقعـت أعينهـما على رجل مـشرد يجلس على الرصيـف المقابل لهما يشـبه في الصفات ذاك العم منقذهما، ابتسمت رزان حينما رأته وكذلك يوسف قد فعل.

جلسا على أحد الأرصفة يتناولان الشطائر التي أعطتهم إياها ليلى.

ـ ماذا سنفعل الآن؟ كيف سنصل إلى جدتنا؟

تنهدت رزان بألم وضيق وأجابته:

ـ لا أعلم، سننتظر ونرى ما سيحدث.

أومأ لها يوسـف هو الآخر بحزن، فابتسـمت له محاولـة أن تهون عليه قليلًا وقالت:

ـ منذ ما حدث ولم أقص عليك قصة، ما رأيك أن أقص عليك قصة نبي الله يوسف؟ ضحك وقال وهو يشير إلى نفسه:

_ أهناك نبي اسمه يوسف مثلي!

أومأت برأسها بابتسامة صافية:

_ نعـم، لقـد قصت أمي رحمها الله قصته عليَّ مـرات عديدة، وأخبرتني أن هناك سورة في القرآن باسمه.

_ إذَنْ هيا، فلتقصيها عليَّ.

بـدأت رزان بقصهـا عليه تبـث في قلبه الأمان، بل تبثه في نفسـها هي أيضًا. أولم يخن إخوة يوسـف أخاهم ويرموه في بئر عميق والله أرسـل له من يخرجه؟! ألم يجعل الله من قاع الجب سببًا لحكمه خزائن الأرض؟!

***

الفصل الرابع

«قانون الغاب!»

مـضى يـوم عـلى وجودهمـا بالقاهـرة يتنقلان مـن هنـا إلى هنـاك يبيتان على الرصيف ولا جديد سوى أن ما معهما من طعام قد نفد.

أخرجت رزان ما معها من مال قليل لتشـتري به طعامًا لهما، كانت تشـترى فقط ما يسد جوعهما حتى توفر ما يبقى لأيام أخرى.

طفل يبدو في نفس عمر رزان أو أكبر بعام. وجه متسـخ قليلًا حليق الشعر، ثيـاب غير مهندمة، يقترب منهما وهما يجلسـان على الرصيـف نظر إليهما مطولًا حتى شعرا به وبنظراته. جلس بجوار يوسف ثم قال:

_ أنـا أراكـما منذ أمس بهذه المنطقـة، ورأيتكما تنامان عـلى الرصيف، أليس لديكما بيت تنامان فيه؟ أين والداكما؟

وقبل أن يتفوه يوسف بكلمة أسرعت رزان بسؤالها للطفل:

_ ولماذا تسأل؟

توتر الطفل وتلعثم قائلًا:

_ لا شيء فقط أردت أن أتحدث معكما.

هذه المرة ستبادر هي بالحديث مباغتة حتى لا يحاول مرة أخرى:

_ وأنت أين والداك؟

أجابها بعيون تكاد تدمع:

_ والدي مات بحادث وأمي تزوجت من رجل شرير كان يضربنا ويعذبنا

أنا وهي، ويحرقنا بالسكين الساخن.

لم تستطع الدموع إلا أن تنهمر مصاحبة شهقات عالية تخرج من قلبه وهو يردف قائلًا:

ـ انظرا إلى ذراعي.

ورفع كم قميصه ليريهما. نظرا إلى ذراعه، وبالفعل كانت هناك آثار حرق بها. رق له قلباهما، وتعاطفا معه فأكمل قائلًا:

ـ في يوم من الأيام تشاجر مع أمي وضربها حتى نزفت دمًا من فمها، وحينما رآني أجهز عليَّ أنا الآخر، فلم تحتمل أمي وحاولت إبعاده عني، فألقاها أرضًا فأحضرت سكينًا ثم جرت عليه وقتلته به، طعنته في قلبه حتى مات، قبضت عليها الشرطة فلم تحتمل أمي، ابتلعت حبوب الدواء وماتت على إثرها، ومن يومها وأنا وحدي في الشارع فليس لي أقارب.

تأثرا بقصته، وربت يوسف على ظهره يؤازره. جلسوا معًا لبعض الوقت. ثم قام الطفل فجأة وقال:

ـ لقد مللت. أتحبان أن نتسكع قليلًا في الشارع؟

أومآ برأسيهما بالقبول، وقعت عينا الطفل على حقيبة الملابس التي بيد رزان فسألها:

ـ ما هذه الحقيبة؟

فأجابته متنهدة بأعين حزينة:

ـ هذه حقيبة ملابسنا.

صمت الطفل متحسرًا؛ أليس من حقه أن يكون لديه ملابس كثيرة يبدل بينها كباقي الأطفال؟

أفاق من شروده على صوت رزان هاتفة:

ـ هيا! ما بك؟

أجابها بمرح :

_ لا شيء، هيا، أنا أعرف حديقة بها ألعاب قريبة من هنا، ما رأيكما أن نذهب ونلعب قليلًا؟

اندفع يوسف وهتف:

_ حقًّا! حقًّا! هيا لقد اشتقت إلى الألعاب، أفيها أرجوحة ولعبة تزحلق؟

أجابه ضاحكًا:

_ نعم، نعم بها.

_ صحيح، ما اسمكما؟

سألها الطفل بفضول متأخر.

أجابه يوسف بالطبع:

_ أنا يوسف وهذه أختي رزان، وأنت ما اسمك؟

أجابه الطفل:

_ سيف، أنا سيف.

***

ساروا قليلًا، ثم أشار إليهم سيف أن يسيروا معه إلى شارع خلفي، في أثناء سيرهم توقف قائلًا لرزان:

_ دعيني أساعدك في جر الحقيبة، لا بد أنها أتعبتك.

توقفت هي الأخرى وقالت بابتسامة مجاملة:

_ أنا لم أتعب.

أصر على مساعدتها، وفجأة!

_ يـــــــــوسف. يـــــــوسف.

صرخت بها رزان صرخة تفزع لها القلوب وتنشطر نصفين بعد أن سمعت

يوسف يصرخ باسمها.

***

امرأة بثياب غير مهندمة تبدو كإحدى الشحاذات حملته وفرت هاربة، هرولت خلفها رزان ولكن المرأة كانت قد سبقتها.

لا لن تيأس لن تستسلم، لن تفقد أخاها شقيق روحها، زادت سرعة خطواتها صارخة:

_ أخي، هذه المرأة اختطفت أخي.

لسوء حظها أن الشارع الخلفي لم يكن به أحد، وحينما خرج الناس على صراخها كانت المرأة قد خرجت إلى الطريق العام.

كاد قلبها أن يتوقف عن العمل من سرعة خفقاته وتكاد أنفاسها تنقطع من الجري والخوف.

كانت إشارة المرور حمراء بمجرد وصول تلك المرأة إلى الطريق فتحت، فاضطرت المرأة إلى الوقوف بعد أن كادت تصطدم بإحدى السيارات، لكن المرأة لم تقف طويلًا؛ وأفاقت بعد لحظات لتتجاوز السيارات وتمر من بينها، وبمجرد أن صعدت على الرصيف الفاصل كانت رحمة الله قد نزلت في صورة رجل توقف أمام المرأة وأمسك بها.

أحد حراس البنايات كان آتيًا من الطريق أمام مدخل الشارع الجانبي، رأى المرأة تجري حاملة طفلًا باكيًا صارخًا باسم رزان، وخلفها طفلة تصرخ باسم يوسف تحاول اللحاق بها فأسرع لاحقًا بها.

اجتمع الناس لما رأوا ما حدث وتوقفت السيارات فعبرت رزان الطريق في ذهول مما حدث يكاد قلبها يهشم قفصها الصدري مهرولًا إلى صغيرها، فاضت عيناها بأمطار دموعها، اقتربت مسرعة تنسل بين الواقفين للمشاهدة، حتى وصلت إلى أخيها ففتحت ذراعيها تجذبه من بين يدي تلك اللعينة، فألقى يوسف بنفسه في حضنها، ترى أكان شعور عودته إلى حضنها كشعور

أم موسى بعد أن رده الله إليها؟! أم كفرحة نبي الله يعقوب برؤية يوسف؟!

لم تستطع تلك الخاطفة الإنكار فكل شيء واقع أمام العيان، فر مساعدها هاربًا حين رأى ما حدث فمن المؤكد أنها ستخبر عنه.

_ سأتصل بالشرطة، لا بد أن يقبضوا عليها تلك الخاطفة اللعينة؟

قالها أحد الواقفين المجتمعين حولهم.

«لا لن يحدث، لن نفترق ثانية» هكذا فكر الطفلان معًا، وكعادتهما بنظراتهما اتفقا على لحظة الانسحاب والهروب، تسللا من بين الناس ثم فروا بعيدًا عنهم.

تذكرت حقيبة ملابسها تركتها مكان الواقعة، عادا إلى الشارع الخلفي خلسة، حمدًا لله ما زالت بمكانها. يبدو أن جميع من مروا انشغلوا بما حدث. لكن مهلًا أين سيف؟

قبضت على يد أخيها تجر حقيبتها ومعها خيبتها من هذا العالم، يجب عليهما الابتعاد عن هذا المكان حتى لا تأتي الشرطة فتأخذهما وتفرقهما.

***

في أثناء سيرهما التفتا على صوت صياح، فوجدا فتاة صغيرة، ربما تبلغ من العمر ست سنوات، يبدو أن الماء لم يمس وجهها منذ أيام وشعيراتها واقفة فوق رأسها تنشد التمشيط والدهان وبعض الاهتمام، تتسول الفتاة بعض المال من أحدهم لكنه نهرها صائحًا بتقزز واكزًا كتفها بقوة، مما أسقطها في الأرض وتركها ورحل، جذبت رزان كف أخيها في يدها مسرعة وجرت معه حقيبتها، ثم اقتربت من الفتاة تساعدها على الوقوف.

_ هل أنت بخير؟

سألتها رزان بصوت حنون. لم تجب الفتاة فقط أومأت برأسها بنعم.

ربتت رزان على كتفها مبتسمة وقالت لها:

_ لا تحزني، هو أخطأ وسيعاقبه الله.

ما زال صمتها هو الجواب. فقال يوسف:

_ مهلًا. أأنت صماء وبكماء؟

اقترب منها وقال ببراءة وكأنها إذا كانت صماء ستسمعه:

_ لا بأس، لا تحزني.

نظرت إليه الفتاة وأخيرًا قالت:

_ أنا أسمع وأتكلم.

اتسعت عيناه دهشة وصاح هاتفًا بغضب طفولي:

_ ولماذا لم تجيبيني أنا وأختي؟

صمتت ثانية فتدخلت رزان وقالت:

_ لا بأس، ما يهم أنك بخير!

وأخرجت من حقيبتها قطعة حلوى كانت قد اشترتها من قبل واحتفظت بها ليوسف وآثرته على نفسها، ثم أعطتها إياها مبتسمة.

مدت الفتاة يدها إليها فرحة وأخذتها منها فباغتها يوسف بقوله:

_ عندما يعطينا أحد شيئًا نشكره.

نظرت الفتاة باستحياء إلى الأرض وقالت لرزان:

_ شكرًا لك.

ثم تركتهم ورحلت مسرعة.

***

كانا ينامان على الرصيف؛ سريرهما الجديد حينما شعرا بمن يوكزهما بشدة موقظًا إياهما:

_ أنتما، هاتا ما معكما.

لم يستفيقا بعد، لم يفهما ما يقول؟ مهلًا أهذا كابوس أم ماذا؟ دب الخوف

بقلبيهما الصغيرين وتدافعت دقاتهما من شدة الفزع.

شل لساناهما وتجمدا لا يعرفان بماذا يجيبان؟ فقط حركا رأسيهما بعدم فهم.

صاح فيهما أحدهم:

_ ماذا أتدعيان الغباء؟ هاتما ما معكما من أموال؟

نظرت رزان إلى يوسف الذي كان يرتعد من الخوف مثلها، ثم جذبته إلى صدرها تحتضنه، وأجابت الفتى الذي يقارب السادسة عشرة بصوت مذعور متلعثم:

_ ليس معنا مال فقط القليل نشتري به طعامنا.

هتف بها بحدة:

_ هاتهم.

نظرت إليه بخوف راجية، ثم قالت:

_ إنها أموالنا نشتري بها طعامنا، إذا أنت أخذتها فكيف سنأكل؟

صاح بهما هاتفًا:

_ هاتيهم وإلا...

وأخرج من جيبه مطواة وفتحها وأشاح بها في وجههما.

ذعرا وارتجف قلباهما مؤازرًا جسديهما الضعيفين، أسرعت رزان بفتح الحقيبة وإخراج ما بها من مال. اختطفه من يدها وأخذ يعده وجده قليلًا، نظر إليه يقلبه بين يده بازدراء.

ابتسم بخبث هو ومن معه ثم نظروا إلى بعضهم البعض _ منهم من هم في مثل عمره ومنهم من هم أصغر منه بأعوام _ ثم اقتربوا من الطفلين، جذباهما من أذرعهما إلى مكان موحش مظلم، ثم هتف الفتى ذو الستة عشر عامًا قائلًا:

_ أنا من سيبدأ بالفتاة.

وقال آخر:

_ وأنا من سيبدأ بالصبي.

والآخرون يضحكون ينتظرون المشاركة.

لم يفهما ما يحدث تشبثا ببعضهما، لكن كل شيء حدث في غمضة عين، فُرِّقا عن بعضهما بقوة نُزِعت يد كل منهما من يد الآخر نزعًا، صرخا بصوت مرتفع هاتفين:

_ ابتعد عني.

هذا ما علمتهما أمهما إذا اقترب منهما أحد وحاول خلع ثيابهما أو لمس جسديهما، لكن من يجيبهما في مكان موحش مظلم هكذا؟! امتزج صراخهما كل باسم الآخر، لم يشفع لهما صراخهما ومقاومتهما لما يحدث لهما.

وانتهى الأمر ..

انتهى بنظرات شامتة وفرحة انتصار متشفية بضعف وانكسار فريستها، فعلوا فاحشتهم الشنعاء وتركوهما كفريستين خانهما القطيع وتخلى عنهما وتركهما لتتكالب عليهم الذئاب وتنهشهما.

لم يفهما ما حدث لهما! طفلان بريئان ما زالا على الفطرة؛ لا يعلمان مسمى اغتصاب أو هتك عرض، لا يعلمان سوى أنه انتهاك لحرمتهما وحرمة جسديهما، هما اعتادا أن لجسديهما حرمة؛ «جسدك عورة لا يراها سواك ولا حتى أنا، فقط الطبيب إذا مرضت وفي حضوري أنا أو أبوك» هكذا علمتهما أمهما، لكن ها هي عوراتهما قد كشفت وانتهك عرضهما وحرمتهما دون طبيب أو دون حضور أمهما.

يبكيان بجسدين يرتجفان ليس من البرد ولكن من الصدمة، لملمت رزان ثيابها التي تمزقت وارتدتها تستتر بها واقتربت زاحفة نازفة متألمة بقلب وجسد مرتجفين منهكين من يوسف، وضعت يدها على كتفه كي تؤازره، فإذا به يفزع وينتفض مبتعدًا عنها رافعًا يديه أمامه بوضع الدفاع عن النفس.

_ هذه أنا رزان، لا تخف.

هكـذا قالت بصوت مرتجف باكٍ كي تسـاعده، ثم لملمـت ثيابه وأعطتها له كي يواري سوءته هو الآخر أخذها منها وارتداها.

احتضنته رزان ليجهشـا بالبكاء، كلاهما يحتاج إلى هذا العناق، كلاهما يحتاج إلى من يؤازره؛ من يحتويه ويبثه الأمان ويسمح له بالبكاء داخل صدره.

***

أشرقت الشـمس بنورها على أجفان فر النـوم منها، أينام من زار الفزع قلبه وروحه؟! أتقر العين بعد أن سرق منها الأمن؟!

لم تتوقـف دموعهما ولم يترك أحدهما الآخر، ظلا هكذا في عناق بلا إفلات! أفاقا على صوت فتاة صغيرة:

ـ هل أنتما بخير؟

التفتا إليها وأيديهما تضم بعضهما، إنها تلك الفتاة الصغيرة التي وكزها الرجل بالأمس فأوقعها. صمتا ولم يعقبا لكن أعينهما بثت بكل ما يجيش بصدريهما.

نظـرت الفتـاة إلى ملابسـهما الممزقـة بعض الـشيء، ففهمت مـا حدث لهما، وكيـف لا تفهـم وقـد مرت بما مـروا به وما زالـت! اقتربت منهما وهـا هي ترد إليهـما معروفهما، وأخذت تربت على كتفيهما بكفيها الصغيرين فانتفضا لم يعودا يأمنان للمسـة من أحد. ابتسمت لهما بحنان، ثم تفكرت قليلًا وقالت بتعجب:

ـ أليس لديكما أهل؟ أم أنكما ضائعان؟ لم يبد عليكما بالأمس أنكما مثلنا!

هـذه المرة لم يأخذ يوسـف دوره بالمبـادرة ليقص عليها قصتهـما، وكذلك لم تفعل رزان فقد خارت قواهما ووهن قلباهما.

أومـأت الفتاة برأسـها بتفهـم كأن الأمر ليس عليها بجديـد، لكنها باغتتهما بسؤالها:

ـ أقاموا بالتحفيل عليكما؟

صعـق الطفلان مـن الكلمة، لم يفهما معناها، وكيف لبريئين أن يفهما كلمات

من قاموس من دنسـت براءته من قبل محتل مغتصب بغيض؟ لكنهما فهما أن ما تقصده هو ما حدث لهما!

ابتسمت الفتاة وقالت:

_ لا تحزنـا هكـذا، ربما لأنكما جديدان هنا ولأنها أول مرة، هذا شيء عادي اعتبراه لعبة.

نظرت إليها رزان بصدمة وهتفت بحدة:

_ لعبة! هذا حرام، جسدنا عورة ليس لأحد أن يكشفه أو يمسه.

نعم هذا ما علمتها إياه أمها، لكن ليس للجميع أم كأمها.

حزنت الفتاة لأنها أغضبتها وقالت:

_ حسنًا، لم أقصد إغضابك، لكن هذا يحدث بالشارع دومًا.

دهشت رزان من كلماتها وحل الخوف بقلبها واحتله فحاوطت كتف أخيها بذراعها وقالت:

_ كيف يحدث هكذا؟ هل هذا يعني أنه سيحدث لنا ثانية؟

أومأت لها الفتاة برأسها مؤيدة لظنها، لكنها قالت:

_ يمكنكـما طلب الحماية من المعلم ولكن عليكما أن تعطياه حصته، عندها لن يستطيع أحد من المنطقة أن يؤذيكما.

نظر يوسف إلى رزان التي ضيقت عينيها بعدم فهم وقالت مستفهمة:

_ ماذا تعنين بالمعلم وحصته؟

ابتسمت لها الفتاة وقالت شارحة:

_ هناك أحدهم ينادونه بالرئيس أو المَعلم هو أكبر منا سنًّا وهو قائد لأطفال الشـوارع بهذه المنطقة وكل منطقة لها رئيس، نحن نتسول وبالليل نجتمع للنوم في مكاننا المعتاد ونعطيه جزءًا مما حصلنا عليه من التسول.

دهشت رزان مما سمعته، لكنها انتبهت لكلمات الفتاة وقالت:

_ لكننا لن نتسول، نحن لن نشحذ من أحد شيئًا، سنذهب إلى مكان آخر غير هذا بعيدًا عن هؤلاء الأطفال وهذا المعلم.

ابتسمت الفتاة بسخرية من براءتها وقالت:

_ أتظنين أن هذا يحدث هنا فقط في هذا المكان وهذه المنطقة؟! كم أنت مسكينة! هذا هو قانون الشارع في كل مكان.

نظرت رزان إليها بعينين متسعتين من الصدمة فاغرة فاهها، ازدردت ريقها ثم قالت بصوت خفيض منهك:

_ لكننا لا نقدر أن نشحذ، لا نستطيع.

فباغتتها الفتاة بسؤالها:

_ وكيف ستعيشان وتأكلان؟ أمعكما أموال؟

خفضت رزان بصرها وأومأت برأسها بالنفي، ثم تذكرت حقيبة ملابسهما وهتفت بصوت مبحوح من الصراخ:

_ الحقيبة! لقد تركناها بالأمس على الطريق قبل أن...

وصمتت لم تستطع أن تكمل وصف ما حدث، ثم هتفت:

_ هيا يا يوسف نذهب للبحث عنها.

وقف يوسف بجسد متألم متهالك أما رزان! همت أن تقف ليذهبا للبحث عنها، لكن الألم لم يسمح لها والنزيف قد ازداد يسحب روحها دون أن تفهم ما يحدث لها. خافت وارتعبت وازداد ارتجافها. فمن يغيثها ويخفف عنها ألمها؟

_ لا أستطيع الوقوف، بطني وجسدي يؤلمانني.

قالتها بصوت باك يكاد يجهش.

ربتت الطفلة على كتفها وجلس يوسف على ركبتيه متألمًا قلقًا على شقيقة روحه وهتف بصوت فزع:

_ ماذا بك يا رزان؟ هل أنت مريضة؟

أغمضت عينيها تبكي بصمت تكتم شهقاتها. ربتت على كتفه وقالت:

_ لا تقلق يا يوسف، سأكون بخير.

ساندتها تلك الصغيرة، وأمسكت يدها تساعدها للنهوض قائلة:

_ هيا، استندي على كتفي.

نظرت إليها بكسرة ووهن. ففعل يوسف كما فعلت الفتاة متحاملًا على ألمه.

استندت عليهما، على صغيرة رأت من السوء أضعاف ما رأيا حتى اعتادته، وعلى صغيرها هو سندها المتبقي لها، ذهبوا ثلاثتهم بتروٍّ وخرجا إلى الطريق العام حيث مكانهما الذي كانا ينامان فيه قبل أن تحدث الفاجعة لكنهم لم يجدوا الحقيبة!

_ لقد ضاعت!

قالاها بصوت تحرقه الغصة. نظرا إلى بعضهما بأعين مهتزة منكسرة. ثم سأل يوسف رزان:

_ ماذا سنفعل؟ هل سنبقى بثيابنا هذه هكذا؟

لم تعرف بماذا تجيبه؟ ليس لديها جواب.

هنا ألقت عليهما الفتاة بكلماتها:

_ كنت أعلم أنكما لن تجداها، لا شيء يترك في الشارع هكذا ويبقى.

ثم حاولت أن تهون عليهما وقالت:

_ لا تقلقا، سأخبركما لاحقًا بمكان تحصلان منه على ملابس، لكن عليكما أولًا أن تقررا ماذا ستفعلان، حتى لا يعتدي عليكما أحد؟ وإذا قررتما طلب الحماية أخبراني، أنا هنا في المنطقة سأذهب الآن لأبدأ عملي وأعود إليكما لاحقًا.

تركتهما في تيه أفكار وشتات أمر.

***

كلًّا من الجلوس والتطلع حولهما، وجهت رزان بصرها إلى يوسف تسأله:

_ أتريد أن تذهب إلى دورة المياه؟

لكنه فزع وقال بحدة وهو يشيح بيده:

_ لا، لا أريد.

نظرت إليه رزان متعجبة من ردة فعله وقالت:

_ حسنًا، أنا أريد قضاء حاجتي وغسل وجهي.

ثم نظرت إلى أخيها وإلى نفسها وثيابهما التي اتسخت مما حدث بالأمس وقالت بحزن:

_ أتعلم أننا لم نستحم منذ أيام؟ لقد أصبحنا نشبههم؛ نشبه أطفال الشوارع!

سقطت دموعها على وجنتيها فاقترب منها يوسف، مسحها بيديه الصغيرتين ثم قال مبتسمًا محاولًا تخفيف ما بقلبها من ثقل:

_ لا تحزني، كل هذا سيزول وسنعود إلى جدتنا.

ابتسمت له بحب وأعين سكن بها الحزن ثم عانقته وقالت:

_ هيا نبحث عن أحد المحال يكون به دورة مياه أو مسجد قريب.

لم يذهب عنها الألم لكنها تحاملت على نفسها واستندت على عضدها وسندها، سارا يبحثان عن مكان به دورة مياه.

وجدا أحد المحال الكبيرة المملوءة بالناس فاقتربا من العامل يستأذنانه الدخول إلى دورة المياه، نظر إليهما متفحصًا بتقزز ثم قال بحدة:

_ لا، لن تدخلا، دورة المياه خاصة بالزبائن والعاملين فقط.

لماذا ينهرهما هكذا؟ ولماذا رأيا هذه النظرة في عينيه؟ هل يزدريهما؟!

نظرت رزان إلى يوسف نظرة حزينة كسيرة ثم ذهبا بعيدًا مطأطئي الرأس. ظلا يبحثان عن مكان به دورة مياه وكلما رأى أحد مظهرهما يأبى دخولهما لكن أخيرًا قبل أحد أصحاب المحلات دخولهما وكعادتها أغلقت رزان الباب خلفهما

جيدًا ودخلت لتقضي حاجتها لكن استوقفها أن رأت يوسف في مكانه متجمدًا فسألته متعجبة:

_ يوسف، ألن تقضي حاجتك؟

أجابها بتوتر وتلعثم وهو يحرك كفه بالرفض:

_ لا، لا أريد.

زادت دهشتها فهذه ليست عادته، فسألته بقلق:

_ لماذا يا يوسف؟ وكيف ذلك؟ أنت لم تقضِ حاجتك منذ الأمس.

أجابها بحدة يشوبها الخوف وهو ممسك ببنطاله:

_ قلت لا أريد.

حزنت من غضبه غير المبرر عليها وقالت:

_ لماذا تصيح هكذا؟

ثم نظرت إليه وجدته ضامًّا ساقيه بوضع من يحتاج قضاء حاجته، ويحاول أن يتماسك قبل أن يفعلها دون إرادة منه.

لم يجبها وترقرقت عيناه بدموعها، لم تفهم لماذا يفعل ذلك؟ ولا تعلم ماذا تفعل هي؟ استندت على الحائط متعبة وقالت بحنان وهي تمسح على شعره:

_ أخبرني ماذا بك؟ أخبر رزانتك حبيبتك لماذا لا تريد دخول دورة المياه لقضاء حاجتك؟

أخفض رأسه وفاضت عيناه بالدموع وقال بصوت كسير خفيض يشبه الهمس:

_ لا أريد أن أخلع ملابسي، أنا خائف.

لم تفهم مقصده، أمسكت ذقنه بإصبعيها ترفع رأسه ونظرت إلى عينيه مستفسرة فهرب بعينيه وأخفض رأسه ثانية، تنهدت بحزن، ثم قالت بصوت حنون مطمئِن وابتسامة تحاول انتزاع مكانها على وجهها بعد أن احتلته معالم الهم:

_ لا تخف يا يوسف، أنا هنا أنتظرك، قل دعاء دخول الخلاء ثم ادخل وأغلق الباب عليك ولن يصيبك مكروه.

ربتت على كتفه وأشارت برأسها إلى الداخل بابتسامة مشجعة وقالت:

_ هيا يا يوسف.

لم يجد بدًّا من أن يواجه خوفه؛ ردد الدعاء ودخل وأغلق الباب يتأكد من إحكامه جيدًا، ظل ممسكًا ببنطاله لم يطاوعه قلبه المرتجف على خلعه، حتى أفاقه نداء رزان التي شعرت بسكون في المكان:

_ هل انتهيت يا يوسف؟ هيا قبل أن يطرق أحدهم الباب.

حسنًا، هو قوي لن يخاف! نظر إلى المرحاض ثم قرر. سيفعلها سريعًا وينتهي الأمر.

وبالفعل طرقات على الباب وصوت أنثوي عقبه نداء رزان القلق ذو الصوت المتعب على يوسف، والذي قطعه صوت فتح باب المرحاض.

نظرت إليه بقلق فقابلها بابتسامة حزينة تنهدت بعدها براحة مستقطعة، ثم فتحت باب دورة المياه للطارقة، ودخلت هي كي تقضي حاجتها

_ يا إلهي! ما هذا؟ هل أصبت أو جرحت؟ كيف حدث هذا؟

صعقت حينما وجدت ثيابها مغرقة بالدماء، بكت خوفًا وفزعًا وكتمت شهقاتها فمن يجيرها أو يجيبها؟

جلست على المرحاض شاردة تقضي حاجتها، كم آلمها بطنها ومكان عورتها وتبولت بعد عناء وألم، وقبل أن تخرج مسحت دموعها. يكفي صغيرها خوفه وعدم رغبته في قضاء حاجته.

خرجا من المكان حائرين؛ ماذا يفعلان؟ قرقرة أمعائهما تصيح طالبة للغوث! نظرت إلى أخيها ثم نظرت نظرة أليمة إلى الأرض فقد سرق هؤلاء الفتيان ما كان معهما من فتات أموال.

جذب يوسف يدها مبتسمًا وحاوط بذراعها كتفه، هذه المرة سيكون هو من يؤازر ويحنو:

_ هيا نتسكع قليلًا والله سيرزقنا، ألا تتذكرين كيف كان يرسل إلينا العم المجذوب؟!

ابتسمت رزان على إثر كلماته وسارت معه بوهن.

***

_ أشتاق إلى أمي جدًّا، وأشتاق إلى حديثها ولعبها ومزاحها معنا، أشتاق إلى صوتها وكل شيء بها.

قالتها رزان متألمة ثم نظرت إلى ذلك الشارد بعينيه المتعلقتين برجل يسير وهو يأكل إحدى الشطائر الكبيرة الممتلئة بما لذ وطاب، تألمت فكم تشتهي مثل هذه الشطيرة كأخيها

ربتت على كتفه وقالت:

_ تعال نجلس على الرصيف هنا كي نرتاح قليلًا، فأنا متعبة ولا أستطيع السير أكثر.

كيف سيصلان إلى جدتهما في هذا البحر الخضم؟! وإذا لم يصلا إليها كيف سيحصلان على طعام ولباس؟ أين سينامان؟ أيمكن أن يتكرر لهما ما حدث بالأمس؟!

فزعت رزان وانتفضت وابتعدت بجسدها حينما أخرجها من شرودها وكزة خفيفة على ذراعها:

_ تفضلا، هذه الشطيرة لك وهذه لك أيها الطفل الجميل.

قالتها إحدى الشابات بابتسامة جميلة من قلب رحيم، تعجبا؛ كيف علمت بجوعهما؟! ابتسما إليها بامتنان واستحياء وشكراها بتعفف.

لم يعلما أنها كانت هناك تسير بالقرب منهما ورأت نظرات أعينهما لذاك

الرجل ذو الشطيرة الممتلئة.

***

غربت الشمس وبدأ الليل يغشى ما حولهما ويغشى معه القلق والخوف قلبيهما، هل سينامان على الرصيف ويحدث لهما كما حدث بالأمس؟! أم يتسولان؟! فقط كي يحصلا على بعض من الأمان!

رأيا بعضًا من أطفال الشوارع يسيرون مجتمعين على الجانب الآخر من الطريق، فزعا! أيمكن أن يروهما ويفعلوا بهما كما فُعِلَ بالأمس؟!

_ ها، ماذا قررتما أن تفعلا؟

قالتها الفتاة الصغيرة مما أفزعهما فهما لم يشعرا بوجودها من شدة التوتر والقلق.

نظرا إليها وقالت رزان:

_ لا نستطيع أن نشحذ. لم نعتد.

تنهدت الفتاة بتعب وقالت بعطف:

_ وماذا ستفعلان؟ هكذا ستكونان عرضة لكل شيء ليس فقط من أطفال الشوارع لكن من أي بلطجي أو خاطف! ما حدث لكما بالأمس يمكن أن يتكرر في أي وقت رغمًا عنكما ما دمتما خارج حماية المعلم؟!

نظرا إلى بعضهما بعضًا بحزن ويأس، ثم قالت رزان بألم:

_ لا نعرف كيف نفعل ذلك، كيف نتسول؟

ابتسمت لها الفتاة وقالت بمرح:

_ لا بأس سأعلمكما، ها هل ستأتيان معي إلى المعلم قد تأخرت، ويجب ألا أكون بعيدة عن تجمعنا لهذا الوقت؟

لم يفهما مقصدها، ولكنه ليس وقت استفهام وشرح نظرت رزان إلى يوسف بانكسار، وقالت بصوت حزين:

_ هيا يا يوسف.

الفصل الخامس

«كيف يربي الشارع أولاده؟»

بأقدام يثقلها الخوف والقلق يسيران مع الفتاة، يتشبث يوسف بكفها التي تستند بها على كتفه، يستجدي منها الأمان فتنظر إليه بعينين تائهتين مع ابتسامة مصطنعة تطمئنه، ولكن من يطمئنها هي؟

وصلوا إلى مكان على جانب النيل، الكثير من الأطفال بأعمار متفاوتة حتى الشباب بنات وأولاد، منهم من يعوم ويلعب في النيل ومنهم من يجلس يتحاكى ويلعب مع أصدقائه، وكثير منهم يدخنون، توقفا فجأة وتجمدا مكانهما، ما كل هؤلاء الأطفال؟! نظرت رزان إلى يوسف بخوف وهي تفكر انتهى كل شيء وسيكون الشارع لهما هو المستقر؟ أقدِّرَ لهما أن يكونا مثل هؤلاء – أطفال شوارع مشردين؟!

التفتت إليهما الفتاة الصغيرة هاتفة:

_ ما بكما؟ لماذا توقفتما؟ هيا تعاليا.

واصلا طريقهما إلى المجهول متوجسين خيفة، حتى توقفت الفتاة، ثم التفت إليهما وأشارت إلى شاب يبدو في أواخر العشرينيات من عمره وقالت:

_ هذا هو المعلم، انتظراني هنا ريثما أعود.

وذهبت لتتحدث معه، كانت رزان ويوسف يتفحصان المكان والأطفال حولهم وكذلك هم كانوا يتفحصونهم.

_ أنرتم المكان!

قالها بنبرة صوته الخبيثة ففزعا؛ إنه ذات الفتى وفريقه الذين اعتدوا عليهما! هلع قلباهما واتسعت أعينهما واغرورقت بدموعها فزعًا! أمسك يوسف بثوبها وكذلك هي شددت من محاوطة كتفيه بذراعها وصرخا بكل قوتهما:

_ ابتعدوا عنا، لا تلمسونا!

التم الجميع حولهما، هم اعتادوا على السكوت والصمت على ما يحدث لهم من أذى بل أصبحوا يتلذذون به كمريض نفسي اعتاد أن يؤذي نفسه ويستمتع بألمه بل ويؤذي غيره ليشاهد عذابه منتشيًا بنصره.

_ ما هذا؟ ابتعدوا جميعًا عودوا إلى أماكنكم.

قالها بصوت قوى أجش ذاك من يدعى المعلم فابتعدوا جميعًا عنهما فاستطرد قائلًا:

_ أنا المعلم سرحان، أخبرتني سمكة _ قالها وهو ينظر إلى الفتاة الصغيرة _ أنكما تطلبان الحماية، قبل كل شيء أخبراني باسميكما؟

أجاباه باسميهما بصوت مرتجف فقال:

_ حسنًا، وأين حصة اليوم؟

نظرا إليه بتوتر وقالت رزان:

_ ليس معنا أموال، قد سرقها هؤلاء منا البارحة.

ربتت سمكة على كتفها وقالت:

_ أنا سأقرضهما إياها الليلة وسيأتون بها إليك بالغد.

ثم أعطتها له فأخذها ثم قال لهما:

_ سأترككما مع سمكة الآن تفهمكما النظام.

أومآ إليه برأسيهما ولم يتكلما، ابتسمت لها رزان ابتسامة باهتة مهتزة.

_ هيا تعاليا نجلس هنا ونتحدث.

قالتها سمكة بقلب عطوف ما زال يحتفظ ببعض طهارته.

جلسا بتوتر بادٍ على وجهيهما وتكاد نبضات قلبيهما تسمع الأصم من الخوف، نظرا حولهما بأعين متفحصة، من آذوهما بالأمس أصبحوا زملاء لهما؟!

لاحظت سمكة شرودهما وخوفهما فقالت:

_ فيم تشردان؟

أجابها يوسف بألم وخوف وهو يشير برأسه وبسبابته:

_ هذا الفتى ومن معه هم من آذونا بالأمس.

نظرت إلى الفتى ورفاقه ثم عادت ببصرها إليهما، لا تخافا ولا تقلقا ما دمتما أصبحتما تحت حماية المعلم الآن لا يستطيع أحد إيذاءكما أو لمسكما رغمًا عنكما.

أومآ لها برأسيهما لكن كلماتها هذه لم تزح عن قلبيهما ما سكن بهما من خوف، شكرتها رزان بامتنان على ما فعلته معهما.

خجلت الفتاة وتوردت وجنتاها ولم تعرف بما تجيبها، لم يشكرها أحد من قبل ولم تتعلم هي أيضًا الشكر.

_ لماذا أنت هنا؟ وأين أهلك؟

باغتها يوسف بسؤاله فأجابته بتلقائية:

_ لا أعلم لي أحدًا سوى سمارة! كانت تشحذ بي حتى كبرت وأصبحت أستطيع التسول وحدي، فجاءت بطفل آخر تشحذ به وأنا كنت أشحذ وأعطيها ما أحصل عليه، كنا نعيش ببيت في منطقة أخرى حتى قبض عليها وسجنت! لم أعلم ماذا أفعل؟ عدت إلى البيت لأجده مغلقًا وحينما رآني الجيران رفضوا أن يدخلوني بيتهم لأنهم لم يكونوا يحبون سمارة، ودائمًا ما كانوا يتشاجرون معها ويسبونها بالمتسولة خاطفة الأطفال، فاضطررت إلى النوم أمام باب الشقة وكل من يصعد أو ينزل، إما ينهرني وإما يتجاوزني كأن لم ير شيئًا، وفي الصباح ذهبت إلى عملي، وحين عدت في المساء طرقت الباب لعلها تكون قد عادت ففتح الباب أحدهم وقال إنه أخوها وإن هذا بيته وطردني، وإذا عدت ثانية أو رآني سيبلغ عني الشرطة أنا الأخرى، فسكنت الشارع وأصبح هو بيتي.

تعجبت رزان مما سمعته فقالت:

_ وهل سمارة هذه هي أمك؟

فأجابتها:

_ مذ وعيت في هذه الدنيا وأنا معها، لم تخبرني يومًا أنها أمي! حينما كنت أسمع طفلًا ينادي أمه بكلمة أمي كنت أظنه اسمها، كما اسمي سمكة! حتى سكنت الشارع وتعرفت على الأطفال، جميعهم لهم أو كان لهم أب وأم وأخوة كلمات لم أعلم معناها من قبل.

قالت كلماتها والحزن بين طياتها، تأثر الطفلان بقصتها وقال يوسف ببراءة:

_ لا تحزني سمكة، فنحن الآن أخواكِ.

ثم توجه ببصره إلى رزان وقال:

_ أليس كذلك رزان؟

ابتسمت رزان له بألم ثم قالت:

_ نعم يا يوسف.

_ مرحبًا بكما أيها الجديدان ما اسمكما؟

قالها أحد الغلمان والذي يقارب الخمسة عشر عامًا فانتفضا وتمسكا ببعضهما والخوف والقلق غشيا أعينهما. لم ينطقا فشعرت سمكة بخوفهما وقالت:

_ لا تخافا إنه فجر زميلنا، لا تقلقا منه هو ليس سيئًا.

ربما هدآ قليلًا من كلماتها لكنهما لم يأمنا، جلس الغلام معهم فقامت سمكة بتعرفيهم إلى بعضهم ثم قالت:

_ كنت أخبرهما عن سمارة وعن قصة حياتي.

قالتها بمرح ربما يحمل سخريةً من واقع ليس لها به ذنب. وكطفل يأخذه الفضول وجه يوسف حديثه إلى فجر وسأله:

_ وأنت ما قصتك لماذا أنت في الشارع، ولست مع أهلك؟

نظر إليه بجمود، ثم ظهر على ثغره شبح ابتسامة وقال:

_ إذا أخبرتك بقصتي ستصدقني؟

أومأ إليه يوسف برأسه بنعم فابتسم وقال:

_ يا لبراءتك!

ثم نقل بصره بين رزان ويوسف وهمس:

_ أأخبركما سرًّا؟

فأومأ يوسف برأسه ولم تبد رزان أي فضول فأكمل هامسًا:

_ الجميع هنا كاذبون، ولن يخبركما أحد منهم بقصته الحقيقية فلا تصدقا أحد منهم أبدًا!

نظرا إليه بدهشة؛ من هذا الغلام العجيب؟ وإذ برزان يقع بصرها على أحدهم ثم نظرت إلى يوسف تسأله هامسة وهي تشير إلى الآخر:

_ أليس هذا سيف؟

نظر يوسف إلى من تشير إليه فأجابها بتوكيد:

_ بلى! إنه هو!

ثم ناداه فلم يجبه، كرر يوسف نداءه فنظر إليه بدهشة من وجودهما ثم اقترب منهما هاتفًا:

_ يوسف ورزان! ما الذي أتى بكما إلى هنا؟

نظرا إليه بحزن وألم ولم يجيبا. هنا توجهت إليه سمكة بالسؤال:

_ أتعرفهما؟

قاطعها يوسف قائلًا:

_ نعم، قابلناه بالأمس وكان سيأخذنا إلى حديقة بها ألعاب لكن...

أخفض رأسه وبصره وصمت، فما مر به في يوم وليلة كاف لتمزيق نياط

قلبه فزعًا.

تذكرت رزان فسألته مهاجمة هي لم تفترض سوء الظن به قبلًا لكن بعد ما حدث فسوء الظن هو المسيطر مع الجميع:

ـ أين ذهبت حينما حاولت هذه المرأة خطف يوسف؟ لماذا تركتنا ولم تساعدني في اللحاق بها واسترداد يوسف؟

تلجلج قليلًا ثم قال:

ـ بل جريت مسرعًا معك خلفها لكنني ضللت الطريق وفقدتك بعدها.

نظرت إليه بغير تصديق لكنه قطع تفكيرها وقال مسرعًا:

ـ سأذهب إلى رفاقي إنهم ينادونني.

وهرول بعيدًا عنهما.

كان فجر متابعًا الحديث وقد استنتج ما حدث لكنه قاطع شرودهما وتعجبهما مستفهمًا:

ـ حسنًا، من هذه الخاطفة وكيف تعرفتما على العقرب؟

ـ العقرب!

قالاها بذات الوقت متعجبين فضحك منهما فجر مقهقهًا وقال:

ـ يا إلهي! لا أصدق مدى براءتكما! إنه ماهر الملقب بيننا بالعقرب وليس سيف لقد خدعكما أيها الساذجان! هيا أخبراني ماذا حدث؟

اتسعت أعينهما وفغرا فاهيهما، وهنا جاء دور راوي الحكايات يوسف فقص عليه كل شيء مذ تعرفا إلى العقرب.

قهقه فجر ضاحكًا منهما مرة أخرى وقال:

ـ ألم أقل إنكما بريئان ساذجان؟! إنه هو من ساعد تلك الخاطفة وفر حينما أمسك بها.

جحظت عيناهما من الدهشة وقالت سمكة:

_ العقرب وُلِدَ بالشارع لأم كانت من ساكنيه ولا يعرف من أبوه، أمه مرضت مرضًا شديدًا وماتت بالشارع منذ أكثر من عام وجاءت الشرطة وأخذوا جثتها.

ثم أكملت:

_ وهذا الحرق بيده.

نظرت حولها ثم همست:

_ لأنه حاول سرقة أحد الغلمان هنا فتشاجرا فعاقبه المعلم بحرقه.

حسنًا، لقد تخطى هذا العالم حدود عقل الطفلين، أهؤلاء أطفال بقلوب بريئة وأرواح طاهرة مثلهما؟!

_ ألم أقل لكما ألا تصدقا أحدًا هنا؟

قالها فجر متهكمًا.

لم يجيباه فقط شردا فيما حولهما متفحصين، أشارت رزان إلى بعض الصبية تحاول مواراة ارتجاف قلبها وهلعه سائلة سمكة:

_ لماذا يدخن هؤلاء الأطفال؟ ألا يعلمون أن التدخين ضار جدًّا بالصحة؟

لم تفهم سمكة سؤالها فالتدخين في عالمهم ليس له عمر، فأجابتها:

_ هذا أمر عادي.

تعجبت رزان من إجابتها وقالت:

_ لكن ألا ترين كم أعينهم حمراء ويبدو على هذا الطفل _ وأشارت على أحدهم _ عدم الاتزان.

ضحكت منها سمكة وقالت:

_ يبدو أنه تناول البانجو وهو شديد عليه ولا يتناوله سوى الأكبر منه سنًّا.

نظرت لها رزان بعدم فهم وقالت باستفهام:

_ وما هو البانجو؟

ابتسمت سمكة من براءتها وقالت:

ـ هو نوع من المخدرات يلف كالسيجارة ثم يقوم بتدخينه.

صعقت رزان من كلمة مخدرات، كانت قد سمعت هذه الكلمة في إحدى نشرات الأخبار حين تم القبض على عصابة تبيع المخدرات. وعندما سألت أمها عن معناها أجابتها «أنها شيء حرام، لأنها تذهب العقل وتجعل الإنسان يفعل أشياء دون سيطرة منه أو إدراك لعواقب أفعاله، والله ميزنا بالعقل كي نسيطر ونتحكم به في أفعالنا، سواءً عند الغضب أو الرغبة في الحصول على شيء ليس من حقنا».

بهتت مما سمعت ومما ترى فما كان منها إلا أن حاوطت أخاها بذراعها داعية الله أن ينجيها ويجمعها بجدتها، ثم رفعت رأسها لتلتقي عيناها بعيني فجر فسألته بريبة وخوف:

ـ وأنت أيضًا تفعل مثلهم؟

فما كان منه إلا أن قال وهو ينهض من جوارهم:

ـ ربما وربما.

ثم ذهب بعيدًا يجلس وحده.

نظرت رزان حولها بخيبة فكل ما تعلمته وتربت عليه تعيش وسط نقيضه هنا. شعرت بثقل فوق فخذها فنظرت لتجده يوسف وقد غلبه النوم فاتخذ ساقها وسادة، تؤلمها ساقها لكن لا يهون على قلبها إيقاظه مسحت بيدها على شعره تمده بعض الحنان الذي حرما منه، تنهدت بتعب شاردة بكل ما حدث.

مسحت بأناملها البريئة دموعها التي لم تشعر بهطولها إلا حينما سألتها سمكة:

ـ لم تبكي يا رزان؟

لم تجبها، نظرت أرضًا بانكسار ثم رفعت رأسها حينما سمعت بعض الفتيات

الصغيرات يتحدثن إلى سمكة:

_ أستقضين الليل كله مع هذين الجديدين؟

ثم التفتت إحداهن إلى رزان قائلة:

_ ما اسمك؟ وما اسم هذا الصغير؟ أهو أخوكِ؟

أومأت إليها رزان برأسها ولم تجب فعرفتهن سمكة بها، فبادلتها الفتاة التعريف بنفسها ومن معها:

_ أنا زبدة وهذه...

وقامت بتعريفها على رفيقاتها. ثم سألتها:

_ يبدو أنكما جديدان في الشارع ولم تنتميا إلى أي منطقة من قبل، لا تقلقي ستعتادان الأمر، هنا لن يجبرك أحد على شيء فقط تعطين المعلم حصته وتفعلين ما تشائين فقط تكسبين المال وتلعبين مع زملائك وتمرحين.

تعجبت رزان من حديثها، كيف تجد الراحة بعيدًا عن بيتها وأهلها؟

وقبل أن تهم بسؤالها تذكرت كلمات فجر «الجميع هنا كاذبون، لا أحد سيخبركما بقصته الحقيقية» وتذكرت كذب سيف عليهما، لكن فضولها الذي أصابها كعدوى من يوسف حثها على السؤال:

_ منذ متى وأنت تسكنين الشارع؟ وأين أهلك؟

ابتسمت زبدة وقالت:

_ لا أعلم بالضبط منذ متى لكنه منذ زمن، أنا من محافظة أخرى فررت من بيت أهلي وركبت القطار حتى وصلت إلى هنا، القاهرة.

سألتها رزان بتعجب وضيق وربما غضب:

_ ولماذا تركتِ أهلك؟ أهناك عاقل يترك أهله ليعيش مشردًا في الشارع هكذا؟!

ضحكت دجنة وقالت:

ـ بلى أنا، سئمت من أهلي؛ أبي وأمي مطلقان وكل منهما متزوج، عشت مع جدتي لأمي والتي كانت دائمة الصياح فيَّ وتوبخني دائمًا، وكلما لعبت أو شاهدت التلفاز تمنعني بحجة الضوضاء وأن رأسها قد تصدع من صوت التلفاز أو صوتي، حتى الهاتف الذي اشترته لي أمي كي ألعب به كلما رأتني أمسك به تصيح في كي أتركه وأذاكر وأنا لا أحب المذاكرة ولا أفهم شيئًا من المعلمة، وفي النهاية أرسلتني أمي إلى أبي كي أعيش معه ومع زوجته التي كنت خادمة لها ولطفلها الرضيع أخي من أبي، وإذا لم أنفذ طلبها أو تأخرت في تنفيذه تضربني بحزام أبي. وحينما حاولت الدفاع عن نفسي أمام أبي أخبرني أنني كاذبة، وبالطبع كان عقابي من زوجته على شكواي لأبي بالحبس في الغرفة وقطع النور عنها ومنع الطعام عني والشراب لمدة يومين بعد ضربي مجددًا، وبعد أن فك عني الحصار استغللت فرصة خروجهم لزيارة أمها وفررت من البيت. ولهذا أحب الشارع الذي أجد فيه حريتي.

تجمد وجه رزان وآلمها قلبها؛ أيمكن أن يكون الأهل بهذا السوء وهذه القسوة على طفلتهما الصغيرة؟! من المؤكد أنها كاذبة كما قال فجر وهي لن تصدق حكايتها، ثم ابتسمت بتهكم وقالت في نفسها:

ـ ولماذا أكذبها؟ ألا يملك أبي وزوجته من القسوة ما جعلهما يتخليان عنا هكذا؟!

قطع عليها شرودها صوت فتاة أخرى وهي تقول:

ـ هيا بنا نلعب في النيل قليلًا ونعوم، لقد مللت.

أيدها الجميع وجذبت سمكة يد رزان وقالت:

ـ هيا يا رزان، تعالي معنا نلعب في الماء قليلًا.

أجابتها رزان بتعب:

ـ لا، أريد أن أنام، لم أنم منذ الأمس وأشعر بالمرض وجسدي منهك.

قالتها بحزن وألم بادٍ على وجهها وصوتها، فأومأت لها سمكة وذهبت مع

الفتيات وتركنها وأخاها.

تابعتهـن قليلًا وقد خلعن ثيابهن إلا الداخلية منها دون اسـتحياء ونزلن إلى المـاء، يلعـب معهم بعض الصبيـة، تضايقـت رزان مما رأت، هـي اعتادت على الحياء وألا تخلع ملابسها هكذا أمام الجميع وخاصة الصبية.

تنهدت بتعب، حسنًا فالنوم هو الحل الأمثل لعلها تنام وتصحو وتجد أن كل هذا ليس إلا أضغاث أحلام. أزاحت رأس أخيها من فوق ساقها برفق كي تنام بجانبه فإذا به يقوم من النوم فزعًا يدفعها بيديه صارخًا:

_ ابتعدوا عني! ابتعدوا عني!

حاولت رزان تهدئته وقالت بحنان وألم:

_ لا تخف، لا تخف، هذه أنا رزان لن يؤذيك أحد، لا تخف.

فـرت من أعينهما دمعات تبث شـكوى قلبيهما مما عانيـا، ضمته إلى صدرها حتى هدأ،

أخرجته من حضنها بابتسامة حانية وقالت:

_ هيا أكمل نومك، وأنا سأنام بجانبك.

ظلت تمسد بباطن كفها على شعره حتى نام ولحقت به هي الأخرى.

***

أيادٍ تجذبها بعيدًا أيقظتها من نومها فزعًا.

_ يوسف!

تناديه بأعلى صوتها فإذا بها تسمعه يناديها بذات الوقت، لا ليس ثانية!

_ ابتعدوا عنا.

يزداد صراخهما، الاعتداء ذاته والصبية ذاتهم، نفس الصراخ وذات المقاومة. من ينقذهما بمن يستغيثان سوى ربهما؟

_ الله أكبر، الله أكبر.

استيقظت فزعة من نومها على صوت أذان الفجر من مسجد بعيد، لا تفهم ماذا حدث؟ نظرت حولها في محاولة لاستيعاب الأمر.

_ حمدًا لله، كان كابوسًا.

بكت عيناها في محاولة تبدو فاشلة في تهدئة بحر آلام قلبها الهائج، مسحت بكفيها الرقيقين دموعها ورددت الأذان، استندت بيديها على الأرض متعبة لتقوم كي تتوضأ وتصلي لربها.

_ يا إلهي! ما هذه المياه؟ لماذا الأرض مبتلة تحتي هكذا؟ وملابسي؟! أيمكن أن؟!... لا! لا يمكن أنا لم أفعلها من قبل! لم أبلل نفسي في أثناء نومي من قبل!

زادت الصدمة من خوفها وضربات قلبها.

ماذا ستفعل؟ كيف ستغتسل؟ وكيف ستبدل ملابسها؟ نظرت في اتجاه النيل وتذكرت أن الأطفال كانوا يلعبون فيه ويعومون، أيمكنها الاستحمام فيه؟ قامت من مكانها بوهن واقتربت من النيل لكنها خافت أن تغرق وهي لا تعرف السباحة.

يا الله! شعرت بالبرد فعادت باكية بجوار صغيرها وتمددت في ناحية أخرى غير التي كانت تنام بها، حاولت النوم واتخذت وضع الجنين تلتمس الدفء والأمان، وهل في هذا الكون قلعة حصينة منيعة آمنة دافئة كرحم الأم لجنينها؟!

***

_ رزان. هيا استيقظي، لقد استيقظ الجميع.

قالها يوسف محاولًا إيقاظها. فتحت عينيها بضيق من أشعة الشمس المسلطة عليهما، أفاقت من نومها وقد تصنعت الابتسام في وجه أخيها وقالت:

_ صباح الخير يا يوسف.

رد عليها تحية الصباح ثم التفتا على صوت سمكة هاتفة:

_ هيا رزان ويوسف كي نبدأ عملنا، ستصحباني كي تتعلما مني.

قالتها سمكة بتلقائية، لكنها ذكرتهما بواقعهما ومصيرهما المؤلم الذي يتمنيان لو استطاعا الفرار منه.

نظرت رزان ويوسف إلى بعضهما بحزن، ثم أومأت رزان برأسها منكسرة، تحسست ملابسها قبل أن تقوم من مكانها دون أن تشعرهما فوجدتها قد جفت. حمدت ربها في قلبها ثم سألتها:

_ ألا يوجد حمام قريب من هنا أريد أن أستحم؟

ثم وجهت نظرها إلى أخيها وقالت:

_ لم نستحم مذ تركتنا زوجة أبينا.

لم ترد أن تخبرهما بسرها أنها بللت ملابسها، قد جفت لكنها تخاف الرائحة.

ضحكت سمكة مقهقهة وهتفت:

_ حمام! لا، لا يوجد حمام قريب من هنا لكن يمكنكما الاستحمام في النيل هنا، اخلعا ملابسكما وبللا جسديكما بالماء.

نظرت إليها رزان بدهشة وقالت بضيق:

_ نخلع ملابسنا هكذا أمام الجميع؟! بالطبع لن يحدث، لا نكشف جسدنا على غيرنا.

تعجبت سمكة من كلماتها وقالت:

_ حسنًا يمكنكما النزول بملابسكما ولكنها ستبتل وربما تمرضان هكذا.

فكرت رزان قليلًا ثم قالت ليوسف:

_ أنا سأستحم هكذا بملابسي، أستفعل مثلي أم أنك لن تستحم؟

أجابها يوسف:

_ بل سأستحم مثلك، ولكن ألن نغرق؟

نظرت رزان إلى سمكة، فأجابتها سمكة بابتسامة مطمئنة:

_ لا تقلقي، يمكنك التعلق بإحدى هذه القوارب بإحدى يديك. وهناك

من الصبية من يعرفون السباحة فإذا حدث شيء سيساعدانكما. هيا أسرعا كي لا نتأخر.

ترددت رزان قليلًا ثم نهضت متألمة كي تستعد، ضمت كف أخيها إلى كفها مع استعجال سمكة لهما ووقفت على شاطئ النيل بجوار أحد القوارب، ثم تبادلا النظرات هي وأخيها ونزلا الماء.

***

_ هل سنسير هكذا بملابسنا المبتلة؟

قالها يوسف سائلًا رزان، وقبل أن تجيب باغتتهما سمكة وقالت:

_ قلت لكما أن تخلعا ملابسكما وتبقيا بالملابس الداخلية وأنتما من أبيتما. من الممكن أن تمرضا هكذا.

نظرت إليها رزان بغيظ تحاول كظمه، ثم قالت موجهة حديثها إلى يوسف:

_ الشمس والهواء سيجففان ملابسنا لا تقلق.

سارا مع تمتمات سمكة الغاضبة منهما لتأخرها عن عملها.

***

_ ستبقيان بالقرب مني تراقبانني وتتابعان ما أفعله وما أقوله أفهمتما؟

قالتها سمكة لهما بنفاد صبر في محاولة تهيئتهما للعمل. أومآ إليها برأسيهما بأسى بالغ. وبدأ الدرس العملي.

_ أي شيء لوجه لله سترك الله. أي شيء لوجه الله لم آكل منذ البارحة.

قالتها سمكة مرددة إياها على كل من يمر. البعض كأنهم لا يسمعون ولا يرون وآخرون يجيبونها « الله يسهل لك» وغيرهم يشفقون عليها ويلين قلبهم ويعطونها ما يتيسر معهم من المال.

جمعت بعض المال، ثم اتجهت إلى يوسف ورزان وقالت:

_ ها هل تعلمتما كيف ستعملان؟ الأمر بسيط للغاية فقط تمدان يديكما

وتطلبان بعض المال من كل من يمر بكما.

نظرا إليها بوجه متجهم وقلب خائف من الخزي. ولِمَ لا؟ أيستطيع قلب اتخذ الليل رايته أن يرفع راية الذل؟!

لم يجيباها، رفعت حاجبيها بتعجب وهتفت:

_ ماذا؟ لماذا لا تجيباني؟ هل تعلمتما؟

نظرا إلى بعضهما باضطراب وخوف وأجابا بآن واحد:

_ لا نستطيع.

فاض بها الكيل، صاحت بهما هاتفة:

_ حسنًا أيمكنكما أن تخبراني كيف ستأكلان وتشربان؟ وكيف ستعطيان للمعلم حصته كل يوم؟ أم أنكما ستبقيان في الشارع وحدكما بلا حماية تتعرضان للاعتداء من الجميع بلا استثناء حتى زملائنا؟!

لم يستطيعا منع دموعهما من الانهمار، لماذا كل شيء قاس هكذا؟

زفرت سمكة زفرة تخرج بها ضيقها من ضعف وبكاء قد نسته منذ صغرها. ثم قالت محاولة كظم ضيقها:

_ ألديكما حل آخر؟

فأومآ برأسيهما بلا، فقالت:

_ إذَنْ فلتبدئا ولا تقلقا، ستعتادان الأمر.

أعينهما تعلقت ببعضهما تبث شكوى قلبيهما، أحكم كل منهما قبضته على يد الآخر ورددت رزان دعاءي أمها وكذلك رددهما يوسف خلفها تحت أعين سمكة غير الفاهمة لما يحدث.

بأقدام مثقلة بالخوف والتردد اتجها إلى المارة حولهما يمدان يداهما للسؤال

_ عماه لو سمحت، أيمكنك إعطاؤنا أي شيء لوجه الله؟

قالتها رزان بقلب تكاد تتمزق أوصاله من الخزي، نظرت إليهما سمكة

ضاحكة من طريقتهما في السؤال.

لم يعرها الرجل أي اهتمام فخفضت رأسها بحزن ويأس، نظرت إلى سمكة التي أومأت لها مشجعة لتستكمل طريقها.

أعادت رزان الجملة على رجل آخر بعده ومن ثم امرأة، حتى عطف عليها رجل بعدها وأعطاها بعض المال. نزلت بيدها فأحرقت قلبها، لكن ليس هناك من سبيل غير هذا أمامهما للبقاء على قيد الحياة.

هنا أتت إليها سمكة فرحة وقالت:

_ فتاة جيدة، هكذا تكملين طريقك، يمكنك أن تذهبي إلى الشارع المقابل أنتِ ويوسف وتعملان هناك، وأيضًا يمكنكما الوقوف أمام المسجد الذي يقع بعد شارعين من هنا في أوقات الصلاة.

أومأت رزان برأسها والتفتت لتكمل طريقها وعملها فأوقفتها سمكة قائلة:

_ يمكنكما الافتراق وكل منكما يتسول وحده، وحينها سيزداد مكسبكما.

جحظت عيناهما وحركا رأسيهما بالرفض، ماذا إذا حاولت إحداهن خطف يوسف ثانية بل ثالثةً؟ لا لن يفترقا، مكسب قليل يكفي عيشهما أفضل من فراق دائم.

ابتسمت سمكة بيأس منهما وقالت:

_ أنتما حران، لن أتدخل في شأنكما مرة أخرى.

وتركتهما لتكمل مسيرتها، تنهدت رزان واتجهت إلى الطريق المقابل لتكمل هي الأخرى، تسأل الناس ويتعجبون من طريقتها في السؤال، ليس أسلوب شحاذين اعتادوا على الإلحاح في الطلب بل أسلوب طفلة تربت وتعلمت على يد أم أكرمت طفليها.

بعد ساعات وفي أثناء عملهما سمعا آذان الظهر يؤذن من بعيد فقالت رزان ليوسف بصوت حنون:

_ أذن الظهر، هيا لنصلي.

فأومأ لها يوسف برأسه وذهبا في الاتجاه الذي دلتهما عليه سمكة حتى وصلا إلى المسجد، دخلا دورة المياه تحت أعين عاملة المسجد التي نظرت إليهما متفحصة ملابسهما المقطعة قليلًا وشعرهما الذي تشعث أيضًا:

_ لا أريد أن أخلع ملابسي، أنا خائف.

كانت هذه كلماته ذاتها التي قالها بالأمس قالها اليوم أيضًا، وكما فعلت من قبل حاولت أن تبث بقلبه الأمان حتى دخل إلى المرحاض وقاوم خوفه.

توضآ وقبل أن يدخلا إلى المصلى نادتهما:

_ أنتما، أيها الطفلان، إلى أين تذهبان هكذا؟

التفتا إليها وقالا ببراءة:

_ نحن ذاهبان إلى الصلاة.

فصاحت فيهما:

_ إلى الصلاة أم إلى السرقة كي تسرقا المصليات؟ هيا اخرجا من هنا.

كيف لها أن تتهمهما اتهام قاسٍ كهذا؟! اتسعت عيناهما دهشة واحترقت فروع أشجارها غضبًا وقالت رزان:

_ نحن لسنا بسارقين، نحن فقط نريد أن نصلي.

بالطبع لم يكن هذا دور عاملة المسجد وحدها، أتت بعض المصليات العجائز المتخذات المسجد بيتهن بوضع اليد وشاركنها في اتهامهما ومحاولة طردهما، نسين أن بيت الله للجميع حتى العصاة ومن منا ليس بعاص؟! الله لا يرد من يلجأ إليه، وعباده العصاة يخرجونهم من بيته ويمنعونهم لجوءهم إليه!

بكيا بكاء طفلين شن العالم أجمعه حرب ضروس عليهما، لكن الخير ما زال يسكن بعض قلوب الطيبين، تسللت من بينهن شابة وقالت بصوت هادئ يفيض بطيبة القلب:

_ يـا أخـوات لا يجوز المشـاحنات والجـدال في بيت الله هكـذا؟ اذكرن الله واستعذن من الشيطان.

فعلن كما قالت بألسنتهن لا بقلوبهن وقبل أن يكملن باغتتهن:

_ الله رحيم لا يرد لاجئًا إليه خائبًا ولا يطرده، أنطرده نحن؟

هممن بالرد والاتهام لكنها أكملت ولم تتوقف:

_ سيصليان بجانبي هذان القمران.

ثم جذبت رزان بيد ويوسف باليد الأخرى ووقفت بنهاية الصف وأوقفتهما بجانبها، تركتها رزان وذهبت لإحضار إسدال صلاة لترتديه وعادت إلى مكانها بالصف حتى نادى المؤذن بإقامة الصلاة.

انتهـوا مـن الصـلاة، نظـرت رزان إلى تلك الشـابة بامتنان ثم شـكرتها على مؤازرتها لهما، ابتسـمت لها الشـابة وسـألتهما عن اسـميهما وعرفتهما عن نفسـها ثم سـألتهما عن قصتهما؟ وقبل أن يتفوها بكلمة أتاها مكالمة هاتفية فاسـتأذنت تنصرف لكنها وعدتهما بلقاء آخر.

خلعت رزان عنها إسدال الصلاة وطوته وهمت بوضعه بمكانه حتى أوقفها صوت إحدى العجائز:

_ مـاذا تفعلـين؟ لقد اتسـخ هذا الإسـدال بعدمـا ارتديتـه لا تضعيه فوق الآخرين النظيفين.

ألقت كلماتها كقاتل محترف يقذف رصاصته تخترق الصدر لا تذهب إلى هنا أو هناك بل تعرف مكان ثقبها مباشرة في مركز القلب.

لم يعلقا على كلماتها ولم يبكيا أيضًا فقد استنزفا ما لديهما من قوة للرد أو حتى البكاء.

الفصل السادس

«هل ستصبحان مثلنا؟»

خرجا من المسجد تائهين من الحزن والغضب، وقفا فجأة لمرور أحدهم بطريقهما فوجدا آخر يمد يده إليهما ببعض المال، أعاد إليهما ذاكرتها وواقعها الذي أصبحت عليه؛ «شحاذة متسولة»، مدت يدها تأخذه منه وشكرته، ثم وقفت أمام باب مصلى الرجال تفعل كما علمتها سمكة.

بعدما خرج جميع المصلون وحصلت على بعض النقود عادا إلى الطريق الذي كانا فيه من قبل وأكملا عملهما حتى انتبهت رزان على صوت أخيها:

ـ رزان انظري هناك، إنه فيلم الديناصورات!

قالها يوسف بسعادة طفل كان معاقبًا بالحرمان من حلواه، ثم انتهى عنه العقاب وحان وقت الثواب. ابتسمت له متصنعة سعادة سرقت منها، اقتربا من أحد محلات بيع الأجهزة المنزلية يشاهدان الفيلم الكرتوني من خلال إحدى شاشات التلفاز خلف زجاج المحل، نسيا ما حولهما وما حدث لهما بل نسيا الكون بأكمله وعاشا في أحداث الفيلم. لكنه انتهى كأي شيء في الحياة؛ له وقت وينتهي سواء كان حلوًا أو مرًّا ينتهى بسعادته وآلامه ينتهي لكنه لا بد أن يترك أثره في القلب والنفس.

ـ كم اشتقت إلى تلفازنا ووقت الكرتون الذي كانت تحدده لنا أمنا، واشتقت إلى أمي ذاتها.

قالتها رزان بصوت مختنق.

نظر إليها يوسف وهو يوشك على البكاء وقال:

_ وأنا أيضًا اشتقت إليها كثيرًا.

عانقته وشددت من ضمه لعل قلبها يلتحم بقلبه يزيل عنه همه ويطفئ نار شوقه إلى أمه.

***

مضى النهار ما بين تسول وذهاب إلى المسجد للصلاة، ثم التسول أمامه حتى أتى وقت صلاة المغرب، أدت رزان صلاتها في المسجد ويوسف بجوارها.

_ أنتما تعاليا.

التفتا على صوت إحدى العجائز تناديهما، تنهدت رزان وأومأت لها برأسها ثم أمسكت يد أخيها وذهبت إلى تلك العجوز بقلب متوجف:

_ نعم أيتها الجدة.

قالتها رزان بأدب منتظرة وابلًا من التوبيخ. فسألتها العجوز:

_ هل كنتما تصليان حقًّا؟

نظرت إليها رزان بدهشة من سؤالها، ثم تنهدت ثانية وقالت:

_ نعم كنا نصلي حقًّا.

لوت العجوز شفتيها بغير تصديق؛ كيف لطفلي شارع مثلهما أن يحافظا على الصلاة هكذا؟

باغتتهما عجوز أخرى بأسئلتها متتالية:

_ ما قصتكما؟ وأين أهلكما؟ وكيف أصبحتما طفلي شوارع؟

صمتا فإذا أخبراهن وأردن مساعدتهما فهذه المساعدة تعني الفراق بينهما، هما الآن بالشارع لكنهما تحت حماية المعلم ولن يتأذيا.

تنهدت رزان وبالطبع قبل كل شيء نظرت إلى يوسف محذرة كي لا يبادر كعادته، وقبل أن تفكر في إجابة كان أذان العشاء قد أذن. ابتسمت مجاملة وقالت:

_ أذن العشاء يجب أن نردد الأذان.

ثم جذبت يد أخيها وعادت إلى مكانهما.

❋❋❋

انتهت الصلاة وخرجا مسرعين قبل أن تواصل العجائز ما بدأن من حديث، أكملا عملهما وبعد أن انتهيا ذهبا إلى المكان الذي تركتهما سمكة عنده صباحًا كما اتفقا معها كي يعودوا إلى مكان التجمع والمبيت فهما لم يحفظا الطريق بعد.

_ أروني ماذا جمعتما من مال؟

سألتهما سمكة بفضول لترى مقدار تعلمهما منها، أرتها رزان ما جمعته، فأومأت برأسها وقالت:

_ لا بأس، ليس بالكثير ولكنه يكفي أن تدفعا حصتكما للمعلم وتردا إليَّ ما أقرضتكما إياه بالأمس.

أومأت لها رزان برأسها بالموافقة ثم ذهبوا إلى مكان التجمع.

❋❋❋

جلسا بجانب النيل، انضمت إليهما سمكة وبعض الفتيات والصبية الصغار، وكان بأيديهم بعض العلب المعدنية، يستنشقون ما بداخلها مغمضي الأعين ويبدو عليهم الاستمتاع والانتشاء ويتبادلون العلب مع بعضهم.

تبادلت رزان النظرات مع يوسف متعجبين والفضول يقتلهما. فسألهم يوسف مستفهمًا:

_ ما هذا الذي في العلبة؟ ولماذا تستنشقونه هكذا؟

سعلت سمكة، ثم عندما هدأ صدرها قليلًا من شدة السعال أجابته بتلقائية:

_ إنها الكلة .

قالتها كأنها شيء يجب أن يكون معلومًا بالفطرة فكيف لا يعرفه هو؟

قطبا حاجبيهما وضيقا أعينهما. وسألت رزان:

_ وما هي الكلة؟!

تعجبت سمكة من تعجبها ثم أردفت:

_ الكلة هي الغراء الذي يلصق به الجلود والأحذية رائحته قوية تشعرك بالانتشاء والانتباه والنشاط والقدرة على الحركة. يمكنك أن تجري لمسافات طويلة وتلعبي كثيرًا أتعلمين؟ لا أستطيع أن يمر علي يوم دون استنشاقها أشعر أنني وهنة ومشتتة.

دهشت رزان مما سمعت، ما هذا الهراء الذي يحدث؟ لاصق الجلود يشم هكذا كوسيلة للحصول على السعادة والقوة؟

عرضت عليهما سمكة أن يجربا، فنظرت لها رزان بحدة وقالت بصوت حازم:

_ لا، لن نفعل هذا.

رفعت سمكة كتفيها ولوت شفتيها ثم عادت لما بدأته، حاوطت رزان كتف يوسف بذراعها ثم تحدثت معه كأم تنصح ابنها:

_ يوسفي، يجب ألا نفعل مثلهم، كيف نستنشق شيئًا لا نعلم هل يضرنا أم لا ثم إن رائحته نفاذة قد تضر صدرنا وتنفسنا، أتذكر كيف كانت أمنا تنهانا أن نتناول من أحد شيئًا لا نعرف ماهيته، وأنت ترى بنفسك كم يسعل بعضهم، لذلك لن نفعل مثلهم، أليس كذلك يوسفي؟

فأومأ لها برأسه بنعم لكن بأعين حائرة زائغة مما يرى، ربما فضول وربما خوف، هو طفل صغير والفضول رفيقه. لكن الخوف أيضًا يصاحبه.

_ كيف حالكما اليوم أيها الجديدان؟

أفاقا من شرودهما فزعين على سؤال فجر. هدآ قليلًا ثم أجاباه بصوت واحد:

_ حمدًا لله.

بادله يوسف السؤال عن حاله فأجابه بذات الإجابة، أجابه بلسانه الذي اتفق مع ملامح وجهه ألا يخبر بما شعر بقلبه حينما قلَّب عليه سؤال يوسف ذكرياته الدفينة. باغتهما بسؤاله:

_ يبدو عليكما أنكما مهذبان وأن أهلكما أناس محترمون، فما الذي أتى بكما إلى الشارع؟

نظر يوسف إلى رزان، نظرة استئذان واستفسار أيمكننا أن نأمن له؟ بادلته رزان نظرة تخبره «كلنا هنا سواء، لم يعد هؤلاء عنا غرباء، أقلها لن يخبر أحد هنا الشرطة عنا فنتفرق». قص يوسف عليه قصتهما، لم يبدِ الصبي أي مشاعر لا بحزن ولا تعاطف أو حتى شماتة. لكنه عقب بشيء واحد:

_ ستتبدلان وتتحولان إلى مسخين مثلنا، لن يسمح لكما ضباع الشوارع أن تحتفظا بطيبكما.

نظرت إليه رزان بعدم فهم كامل لما يقول وهتفت:

_ لكننا لن نعيش في الشارع طويلًا، يومًا ما سنعود إلى جدتنا وخالتنا.

قالتها لنفسها قبل أن تكون له. سألهما بتهكم وهو يرفع حاجبه:

_ وكيف ستعودان وأنتما لا تعرفان عنوانيهما، ولا تريدان الذهاب إلى الشرطة حتى لا تتفرقا.

حسنًا، لقد خسرت هذه الجولة من المعركة وكسا الحزن وجهها. لكنها تذكرت كلمات أمها:

_ «الله معنا ولن يضيعنا».

همست بها لنفسها لكنه سمعها فتجهم وجهه .

❋❋❋

أذان الفجر كالأمس أنقذها من كابوسها الذي تكرر، يبدو أنه سيظل يلاحقها، ما حدث لها ولأخيها تلك الليلة المنكوبة، ونداء ربها يوقظها.

_ حمدًا لله، كان كابوسًا وانتهى.

قالتها في نفسها ولنفسها تطمئن بها قلبها. ثم أسندت يدها جوارها لكنها فوجئت للمرة الثانية .

_ يا إلهي! بللت ملابسي مرة أخرى! لماذا يحدث لي هكذا؟!

بدلت مكان نومها بجوار أخيها كالأمس عل ملابسها تجف كالمرة الفائتة.

بكت بكاءً صامتًا لا تريد أن يسمعها صغيرها أو أحد من زملائها فيستيقظ أحدهم ويفتضح أمرها.

_ أفتقدك أمي.

❋❋❋

تربيتات خفيفة على كتفه توقظه بحنان أم:

_ يوسفي، استيقظ، كفى نومًا.

قام من نومه فزعًا كعادته مذ حدث ما حدث، جلس سريعًا زاحفًا إلى الخلف رافعًا يديه أمامه في وضع الدفاع.

لم تتعجب، هي ذاتها يصيبها ذات الفزع في نومها، رسمت بثغرها لا قلبها ابتسامة مطمئنة وقالت:

_ هذه أنا رزانتك يوسفي، لا تخف.

هدأ من روعه وأنزل يديه بعد أن وعى لما حوله، ثم أخفض بصره يبدو أنها ليست وحدها من تنتابها تلك الكوابيس المفزعة.

حاولت رزان أن تعدل من مزاجه فقالت مداعبة:

_ ألا يقول الناس صباح الخير حين يستيقظون؟

نظر إليها بملل وقال بصوت بائس:

_ صباح الخير يا رزان.

لم يستطع أن يرد ابتسامتها بأخرى مثلها. قبلت رأسه وقالت:

ـ هيا تعالَ نستحم كما فعلنا بالأمس ونغسل وجهينا لعلك تستفيق قليلًا.

أومأ لها برأسه بالموافقة وقف وهمَّ بالذهاب معها لكن استوقفهما صوت سمكة مناديًا:

ـ ألن تأتيا معي؟

أجابتها رزان:

ـ بلى. لكن سنستحم أولًا.

نظرت سمكة إليهما بدهشة وهتفت:

ـ ألم تستحما بالأمس؟!

توترت رزان وتلعثمت، هي معتادة على النظافة لكنها أيضًا تخاف أن يكشف سرها وسترها، تخاف أن تفوح رائحتها فيعلم أنها أصبحت تبلل نفسها في أثناء نومها. لملمت شتات نفسها ثم أجابتها بثقة مزيفة:

ـ نعم، استحممنا بالأمس وسنستحم اليوم؛ ألا ترين أننا ننام على الأرض ويتسخ جسدنا وثيابنا.

ثم جذبت يد أخيها وذهبت ولم تعطها فرصة للرد.

تشعر بأخيها وبحزنه، هي مثله حزينة، لكنها هي الأم ها هنا، واجب عليها التحمل والتجاوز عن حزنها ووجعها، قذفته ببعض الماء ترشه بكفيها الرقيقين ممازحة، نظر إليها بغضب طفولي وردها عليها يأخذ بثأره حتى انقلب الانتقام إلى مرح ولعب وضحك، ضحك ينتزعانه من بين براثن الدنيا، نسيا به همهما وبأسهما.

ظلا يلعبان بالماء ويمرحان حتى أخرجتهما سمكة من عالمهما الطفولي:

ـ هيا بنا، سنتأخر هكذا.

كسا وجهيهما الحزن والغضب. خرجا من الماء ومن عالمهما الطفولي البريء إلى واقعهما المرير وطفولتهما المشردة.

***

فتاة نحيلة الوجه والجسد تضع على شعرها حجابًا صغير بطريقة عشوائية، تبدو في صفاتها كأطفال الشوارع، تحمل طفلًا عمره نحو عام، نحيف باهت البشرة كحاملته، ظلت نظراتهما متعلقة بها وبطفلها وذراع رزان محيطة بيوسف وكفها يشد من قبضته على كتفه، ويوسف يتمسك بثوبها كطفل يخاف أن يتوه عن أمه أو يفقدها.

_ هيا يوسف نذهب إلى الشارع المقابل.

قالتها رزان بصوت مرتجف، أومأ إليها برأسه والتفا ليذهبا لكن أوقفهما صوتها:

_ أنتما، ألستما الجديدان اللذان انضما إلينا أول أمس؟

التفتا إليها ثانية ثم سألتها رزان دون أن تفلت يد أخيها:

_ انضممنا إليكم؟ من أنتم؟

سألتها رزان رغم فهمها لسؤالها لكنها أرادت أن تتأكد، فإن كانت هذه الفتاة منهم فإنها لا تستطيع إيذاءهما أو خطف يوسف كما خيل لهما هاجسهما.

رفعت الفتاة حاجبها وقالت:

_ نحن أطفال المنطقة هنا برئاسة المعلم سرحان.

نظرت رزان إلى يوسف باطمئنان، فسألتهما الفتاة:

_ ما اسمكما؟

أجابها يوسف مبادرًا.

_ أنا يوسف وهذه رزان.

بادلها يوسف سؤالها وقال:

_ وأنت ما اسمك؟ ومن هذا الطفل؟ أهو أخوك؟ وما اسمه؟

صمتت الفتاة قليلًا تفكر، بماذا تجيبه؟ أتخبره أن هذا الطفل الذي تحمله هو ابنها وليس أخاها؟ طفلة أم لطفل؟ طفلة بائسة انتهكت روحها قبل عرضها من قبل أطفال مثلها بالشارع. وحينما حاولت لملمة شتات نفسها

واعتـادت على الشـارع غـرر بها أحدهم ثـم اعتادت هي الأمر بل واستسـاغته حتى وجدت نفسـها ذات يوم وليلة وهي ابنة الثلاثة عشر عامًا حاملًا ثم أم؟!

_ أنا اسمي زهرة وهذا ابني رحيم.

هكـذا أجابتـه، اتسـعت حدقتاهمـا وفغـرا فاهيهـما تعجبًا وباغتها يوسـف مندهشًا:

_ ابنك! ولكنك تبدين صغيرة.

أيدته رزان بكلامه وقالت:

_ نعم، أنت تبدين صغيرة، كيف تكونين أمه؟ أم أنك خاطفته؟

أجابتها ليل مندفعة:

_ بل أنا أمه، أعلم أني صغيرة السن فأنا أبلغ ١٥ عامًا، لكنه ابني.

باغتتها رزان كمحقق نيابة يستجوب متهمة:

_ أين زوجك؟ أهو معنا؟ أقصد مثلنا؟

أخفضت زهرة بصرها وقالت بصوت يحمل الخزي والعار:

_ أنا لست متزوجة.

جحظت أعينهما وحدجاهما ببصرهما، وسألتها رزان ببراءة:

_ كيف ذلك؟ أليست المتزوجة فقط هي التي تنجب وتصبح أمًّا؟!

أجابتهما ببرود متصنع يواري خلفه عارًا وقهرًا:

_ لا، ليست كل أم متزوجة.

نظرا إليها بتعجب فتوترت من نظراتهما وقالت بتلعثم:

_ سأذهب لأكمل عملي وأنتما أيضًا هيا اذهبا.

ثم مضت وتركتهما في دهشتهما.

***

_ تقبل الله منكما أيها القمران.

التفتا إليها وابتسما _ إنها نسمة تلك الفتاة التي دافعت عنهما هنا بالمسجد بالأمس _ أجاباها:

_ منا ومنك.

هكذا اعتادت رزان الرد، هكذا كانت تربيهما أمهما، لم تكن ترهقهما بتوجيهات وأوامر، بل كانت توجيهاتها أفعالها؛ هي تفعل وهما يتعلمان دون وعي منهما أو منها.

أكملت حديثها معهما بسؤالها:

_ ما زال لدي وقت قبل أن يحين موعد عملي ما رأيكما أن نخرج من المسجد ونتحدث قليلًا؛ فلا يجوز اللغو في المسجد.

تبادل يوسف ورزان النظرات الحائرة، يشعران بطيبتها ولا يشتمّان منها رائحة مكر، لكن بعد كل ما رأيا فتنبيهات أمهما أمام أعينهما.

هذه المرة اتخذ يوسف قرار الإجابة:

_ لا نتحدث مع الغرباء ولا نذهب معهم إلى مكان.

كبر! تعقل! نعم. ولِمَ التعجب؟ ألا يشيب القلب الصغير وتهلك الروح الصبية مما رأوا ومروا به؟!

ابتسمت كحالها معهما مذ رأياها. ثم قالت:

_ حسنًا لا تخافا أو تقلقا، ما رأيكما أن تخبراني قصتكما؟ ولماذا يبدو مظهركما كأطفال الشوارع؟ أأنتما منهم بالفعل؟ وأين والداكما؟

وضع باطن كفه الأيمن على فمه وباطن كفه الأيسر فوقه يؤازره كي يمنع الكلمات أن تسيل من فمه.

نظرت إليه رزان وكتمت ضحكة متعبة تريد الخروج تأثرًا من فعله. ضحكت نسمة منه ثم تنهدت بيأس وقالت:

_ أقسم لكما إنني لا أريد لكما الأذى بل أريد مساعدتكما.

استشعرا منها الصدق لكنهما آثرا الصمت. تنهدت بيأس مرة أخرى وقالت:

_ حسنًا كما تريدان، ستجداننى هنا كل يوم في صلاة الظهر ما عدا يوم الجمعة إجازتي من العمل، إذا بدلتما رأيكما.

ثم تركتهما ومضت، نظرا إلى بعضهما بحزن، تمنيا لو يطلبان منها المساعدة، لكن هل ستمنع فراقهما؟!

***

_ يوسف، فيم شردت هكذا؟

سألته رزان ثم نظرت إلى ما تعلق به بصره وشرد به عقله.

ما استطاعت هي الأخرى أن تبعد عينيها عنهم، أم تمسك بيديها ثلاثة أطفال صغار عائدين من المدرسة بزيهم المدرسي، ترقرقت العبرات من عينيها حتى خرجت الكلمات من فم يوسف يبيح بها عن مكنون صدره:

_ أتذكرين تلك الحقيبة المدرسية التي اشترتها لي أمي والتي اخترتها أنا مزينة بصورة كرتونية لسيارة «برق بنزين» وأنت اخترتها مزينة بصورة العروسة فلة؟ والأقلام والكراسات التي اخترناها بنفس الأشكال الكرتونية التي كانت على الحقيبة لأنها المفضلة لنا؟ أحضرتها لنا كي نستخدمها في دراستنا، لكننا لم نعد نذهب إلى المدرسة.

لم يكن وحده يوسف من تفيض عيناه بالدموع، كانت رزان أيضًا مثله، تنهدت بقهر ثم مسحت بكفيها الرقيقين دموعها ثم دموع صغيرها، ضمته إلى روحها لا صدرها فقط لكن دموعها أبت أن تتوقف، ظلا هكذا حتى هدآ قليلًا ثم أخرجته رزان بهدوء من حضنها وقالت بحنان:

_ ستصل جدتنا إلينا إن شاء الله ونذهب إلى المدرسة، لا أعلم كيف ولكننا سندعو الله.

ثم ربتت على كتفه والتفا ليذهبا فإذا بهما يصرخان .

***

تتذكر ما قصته الجارة في لقائهما القصير في أثناء خروجهم من البناية التي كانت تسكن بها رحمة:

_ كانا دائمي الخلاف والشجار، ربما لم يكن صوتهما مرتفعًا لكنه كان يصل إليَّ من شباك غرفة نومي الذي يقابل شباك غرفتهما. حتى إنني ذات يوم ذهبت لإحضار طفلي من المدرسة التي هي نفسها مدرسة طفلي رحمة رحمها الله، وكما اعتدت أن أقابلها اقتربت منها لأسلم عليها فوجدتها تبكي بقلب محترق حتى أنها لم تسمعني أحدثها ولم تشعر بي كانت تطلب أحدهم على الهاتف بيدين مرتعشتين:

_ مرحبًا أيتها المدللة، هل اشتقت إليَّ أم إلى طفليك المدللين؟! إنهم أعتقد أنك ستشتاقين إليهما كثيرًا ربما إلى الأبد فإنك لن تريهما ثانية.

هكذا سمعت من يحادثها على الجانب الآخر فكان صوته يخرج من الهاتف مرتفعًا.

شعرت وقتها بصاعقة ضربت قلبي فشقته نصفين، هل اختُطِفَ طفليها؟! كانت تصرخ من هلعها:

_ ماذا تقول؟! لا يمكنك أن تحرمني من طفلي، لن أدعك تفعلها سأبلغ عنك الشرطة.

ضحك مقهقهًا ثم قال بسخرية:

_ لقد سبق أن حذرتك من قبل، ثم ماذا ستخبرينهم؟ أن أباهما قد خطفهما؟! هذا عقابك على تهديدي بالذهاب إلى بيت والديك، أتظنينني متمسكًا بك لأجل عينيك؟! لا، بل لأجل ميراثك الذي ستتنازلين عنه كله لي، وبالطبع لو تفوهت بكلمة لأحد من أهلك سترين، كما قلت لك من قبل؛ أنا لا أهتم لأمر طفليك هذين، ربما أتخلص منهما بأي طريقة، بالطبع لن أقتلهما فهما طفلاي مهما حدث؛ لكن من يعلم ماذا يمكن أن يحدث لهما؟!

فـزع قلبي وكتمت شـهقة خرجت من فمي، أبوهمـا يختطفهما! هتفت رحمة بنحيب متوسلة إياه ترجوه:

_ لا، أتوسل إليك لا تفعل، سأفعل كل ما تريد لكن أعدهما إليَّ، ولن أخبر أحدًا أي أحد بأي شيء، أعدك لن أفعلها.

وبعد إذلاله لها ومحايلاتها له أجابها:

_ حسـنًا حتـى تعلمـي كـم قلبـي عطـوف حنـون، فقـد أشـفقت عليك، سـأعيدهما لكن بشرط؛ بالطبع سأعود معهما ولن يعلم أحد بهذا الاتفاق الذي بيننا، وميراثك من أبيك كله تتنازلين لي عنه.

وافقت مستسـلمة وأنهت المكالمة، ثم فزعت حينما شـعرت بيدي تربت على كتفها، نظرت في الأرض حرجًا وخوفًا فقلت لها:

_ لا تصمتـي عن فعلته هذه، خذي طفليك وأبلغي الشرطة وفري إلى أهلك.

أومأت برأسها وقالت:

_ وماذا سأخبر الشرطة؟ أن أباهما خطفهما؟ هل سيصدقونني؟

ثم استطردت:

_ لا تقلقـي عليَّ لن أستسـلم ولن أتنازل له عـن شيء لكنني في البداية أريد طفلي بين يدي.

وبعدها بأيام تقابلنا مرة أخرى فسألتها عن حال زوجها معها فقالت:

_ لم يعـد سـيئًا معـي مـذ وعدتـه بكتابة ميراثي لـه لكنني لن أفعـل أنا فقط وافقته مكرهة، والآن أماطله حتى يعود أخي من السفر كي يساندني ويؤازرني، لا أريد أن أكون عبئًا على زوج أختي.

فسألتها:

_ ولمـاذا صبرت عليه طوال هذي السـنوات مـا دام أخوك يؤازرك وأهلك يساندونك.

فأجابتني:

_ أعماني الحب رغم تحذيرات أهلي منه ومن سوء خلقه وجشعه قبل الزواج لكنني أصريت على إتمام الزواج منه وعاهدتهم أني لن أشكو لهم أبدًا حتى لو كان كما يقولون، هو لم يكن هكذا ببداية زواجنا، كان بيننا مشكلات لكننا كنا نتفاهم ونتجاوز، لكن بعد وفاة أبي منذ عامين كشف حقيقته وأظهر طمعه بميراثي وحين أبيت التنازل له عنه نقل عمله من القاهرة إلى هنا بالإسماعيلية وأتى بنا إلى شقة صغيرة وباع شقتنا بالقاهرة، صبرت وتحملت؛ كنت أراه عقابًا لما اقترفته بحق نفسي وخفت العودة إلى أهلي معترفة بخطئي وصدق ظنهم أحمل خذلاني فأتلقى فوقه اللوم والعتاب. لكنني سأصلح خطئي.

لكن يبدو أن لله حكمته مرضت وماتت قبل إصلاح خطئها.

أفاقت من ذكرياتها تهزي بكلماتها بصوت متحشرج:

_ رجل كهذا كيف يؤتمن على طفليه؟

***

_ ابتعد عنا، ماذا تريد منا؟

صرخا بها متشبثين ببعضهما، بعدما اقترب منهما أحد الصبية الذين آذوهما في تلك الليلة المنكوبة.

صدم الصبي وحاول تهدئتهما:

_ لا تخافا، لن أوذيكما صدقاني.

لم يستمعا إليه بل لم يسمعاه، أحداث تلك الليلة تمر أمام أعينهما يصرخان نفس صراخهما ليلتها قلبيهما يدكان أضلاع صدريهما من الفزع. اقترب الناس على صراخهما، حاول الصبي تهدئتهما لكن لا فائدة من حديثه، تدخل الناس سائلين عما يحدث؟ فتلجلج الفتى ولم يستطع إجابتهم ثم تركهما هاربًا.

البعض يربت على أكتافهما والبعض يستجوبهما عما حدث، لكنهما في عالم

الهلع تائهان لم يستفيقا سوى على صوت سمكة التي رأت ما حدث من بعيد ثم أتت على صراخهما.

حاولت تهدئتهما وقالت:

_ لا تخافا، لن يستطيع إيذائكما، المعلم لن يسمح له، اهدآ.

عـاد العقل إلى الوعي قليلًا، مسـحت له سـيول دمعه، تومئ لـه تطمئنه ثم أخيرًا خرجت الكلمات من فمها مستفهمة:

_ لماذا إذَنْ أتى يتحدث إلينا إذا كان الأمر هكذا؟

ضحكت منها سمكة وقالت:

_ ربما يريد مصاحبتكما والاقتراب منكما لرغبة في نفسـه، فكما أخبرتك لا يستطيع إيذاءكما رغمًا عنكما.

لم تفهم رزان ما تقصده ولم تحاول، يكفيها ما وعيت وما فهمت.

عادوا إلى عملهم تحت أعين لم تفارقهما دون أن يشعرا.

***

شابة تبدو في بداية العقد الثالث من عمرها ترتدى قميصًا قطنيًّا عليه شعار إحدى المؤسسات تقترب منهما بابتسامة طيبة:

_ مرحبًا أيها الصغيران، كيف حالكما؟

أحكما قبضتيهما كل على يد الآخر، ليست وحدها معها اثنان آخرين يرتديان ذات القميص، نظرا إليها وإلى من معها بريبة وقالا:

_ بخير، حمدًا لله.

ما زالت نظرات الشك تحتل أعينهما فحاولت بث الطمأنينة بقلبيهما بحديث ودود:

_ ما اسمكما؟

وكطبيعة الأم المواجهة والمدافعة عن طفلها أجابتها رزان:

_ لماذا تسألين عن اسمينا؟ ومن أنت؟

ثم نظرت إلى من معها واستطردت:

_ بل من أنتم؟ وماذا تريدون منا؟

ابتسمت الشابة وقالت بود:

_ أنا شمس من جمعية (روح).

نظرت إليها رزان بعدم فهم فأردفت شمس:

_ نحن لدينا دار رعاية اجتماعية للأطفال ساكني الشوارع، الدار به ألعاب وأسرَّة وملابس جديدة وكثيرة، لدينا مشرفات حنونات بمثابة أمهات لأطفال الدار، والأطفال لدينا يذهبون إلى المدارس أو يدرسون داخل الدار ويلعبون ألعابًا رياضية ونقيم لهم الحفلات؛ الدار هي بيت للأطفال الذين ليس لهم بيت يؤويهم.

ثم استطردت:

_ ها، ما رأيكما أن تأتيا لتعيشا معنا في الدار؟ يا ... لم تخبراني ما اسمكما!

تذكرت رزان كلمات الشرطي إلى أبي مهند أنهما سيذهبان إلى دار رعاية اجتماعية ويتفرقان هناك، قالت رزان بتحد:

_ أنا رزان وهذا أخي يوسف، سأخبرك ما رأينا إذا أخبرتني، إذا أتينا معكم هل ستفرقاننا عن بعضنا؟

نظرت إليها الشابة وقالت بروتينية:

_ نعم، كل منكما سيذهب إلى مكان، لكنكما ستكونان بخير، ألا يكفيكما هذا؟

قاطعتها رزان بحدة وقالت:

_ لكن متفرقان!

أومأت إليها الشابة برأسها بيأس، وحاولت أن تقنعهما مرة أخرى لكن

رزان جذبت يد أخيها وهي تنظر في عينيها بتحد وقالت بجدية:

_ هيا يا يوسف نكمل عملنا.

_ رزان! يوسف! هيا اهربا بسرعة!

***

الفصل السابع

«لست مريضًا لكنني أتألم»

_ رزان! يوسف! هيا اهربا بسرعة!

لم يفهما، تجمدا في مكانيهما بأعين شاخصة، نظرت سمكة خلفها ثم أعادت النظر إليهما بيأس وتركتهما وجرت بعيدًا عنهما.

يسمعان صافرة سيارة الشرطة ويريان رجال شرطة على الرصيف يقتربون منهما لكن لا يفهمان لمَ طلبت منهما سمكة الفرار.

_ أنتما، لماذا تقفان هكذا هيا أسرعا، فرَّا من هنا.

قالها لهما فجر هاتفًا، لكنه لم يجد ردًّا، حسنًا لا وقت لديه هو أيضًا للشرح، حمل يوسف على ذراعه وأمسك يد رزان يجذبها ويجري بهما مسرعًا إلى أحد الشوارع الجانبية.

صعقت رزان مما فعل لم تستطع أن تتوقف من شدة قبضه على كفها، ظلت تقاوم صارخة فيه باكية محاولة إزاحة يده عن يدها في أثناء هرولتهما لكن محاولاتها لم تفلح وكذلك يوسف فعل مثلها، أيمكن أن يفعل بهما كما فعل هؤلاء الصبية من قبل؟ أيمكن أن يتكرر الأمر؟!

توقف فجر بعد أن ابتعدا بكثير عن الشارع العمومي، أنزل يوسف من على كتفه فهرول الأخير يرتمي بحضنها دون أن يفلت فجر يد رزان وظل ينهج وصدره يعلو ويهبط من شدة الجري، نزعت يدها من يده بشدة وهتفت بحدة:

_ ماذا فعلت؟ لماذا جريت بنا هكذا؟

نظر إليها محدجًا وابتسامة على ثغره لم يستطع إخفاءها، ثم قال بصوت متهدج:

_ أنا فقط أردت إنقاذكما.

مسحت بكفيها الرقيقين دموعها بعد أن هدأت قليلًا وهي تنظر إليه بدهشة وقبل أن تتفوه كان يوسف قد سبقها:

_ إنقاذنا! من ماذا؟

زفر بملل من سذاجتهما وقال:

_ من رجال الشرطة.

تعجبا من ذلك، لماذا ينقذهما من الشرطة؟ بادرته رزان بسؤالها:

_ ولماذا تنقذنا منهم؟ ولماذا يؤذوننا ونحن لم نفعل سوءًا؟

أجابها ساخرًا متهكمًا:

_ ربما مثلًا لأنهم سيلقون عليكما القبض بتهمة التسول! وتذهبان إلى قسم الشرطة ثم يودعونكما في دار رعاية كل في مكان غير الآخر فتفترقان وهذا هو الذي هربتما منه من الأساس.

قبضا على كفي بعضهما حينما سمعا كلمة الفراق. قطع عليهما أحبال أفكارهما وقال:

_ لا تخرجا إلى الطريق العام الآن حتى تتأكدا أنهم ذهبوا، والتفت كي يذهب فأوقفته رزان بسؤالها:

_ كيف نذهب إلى المسجد من هنا؟

عقد ما بين حاجبيه متعجبًا، ثم ذهب عنه تعجبه وسألهما:

_ هل تقفان هناك لتشحذا؟

أخفضت رزان رأسها وقالت:

_ نعم.

وقبل أن تكمل قاطعها يوسف قائلًا:

_ لكننا الآن سنصلي، أليس كذلك رزانتي؟!

أومأت له بابتسامة حزينة ثم نظرت إلى ذلك الذي تجمد وجهه، أشار إليهما بجمود على الطريق الذي يوصلهما إلى المسجد، التفتا لشكره فلم يجداه، نظرا إلى بعضهما متعجبين من فعله ثم مضيا في طريقهما دون أن يشعرا بتلك الأعين التي لم تعد تفارقهما.

***

يجلسان بعيدين عنهم حتى ينتهوا من السوء الذي يفعلونه، كان هذا قرار رزان لكنه يقتله فضول طفل، الاستكشاف والتجربة هما له بمثابة الأكسجين لرئتيه؛ يريد أن يعرف شعورهم بعد استنشاقهم لهذا الغراء، أو ربما بعد شفط دخان سيجارة محشوة بذاك النوع من المخدرات، ترى ماذا يحدث إذا جرب ولو لمرة واحدة؟! ربما الأمر ليس بذاك السوء الذي تصوره له أخته.

قطع صمتهما ومراقبتهما سؤال يوسف لأخته:

_ رزان، هل ما يدخنونه هذا سيئ؟

سألها وهو يشير برأسه إلى أحد الصبية الأكبر سنًّا منهما. نظرت له رزان متعجبة ثم قالت بجدية:

_ بالطبع يوسف! ألم تخبرنا سمكة أن هذا الذي يدخنونه هو نوع من أنواع المخدرات، وقد أخبرتني أمي من قبل أن المخدرات شيء سيئ جدًّا ومضر ويذهب العقل ومع تكراره يؤدي إلى الإدمان «أي إذا لم تتناوله تشعر بآلام شديدة وقد تفعل أي شيء حتى لو سرقت أو قتلت فقط لتحصل عليه» وقد يؤدى إلى الجنون أو في نهاية المطاف إلى الموت.

نظر إليها مندهشًا، ثم نظر إلى الصبية وشرد بهم ثم همس بصوت لم يعلم أن رزان تسمعه:

_ هذا يعني أن مرة واحدة لن تضر.

هتفت به رزان بحدة:

_ ماذا تقول يوسف؟ هل جننت؟ لا تفكر أبدًا أن تفعلها، عدني بذلك وإلا خاصمتك طوال عمري.

خاف أن تغضب منه وتخاصمه فقال بلهفة:

_ لا لن يحدث، لن أفعلها أبدًا صدقيني.

هتفت بجدية وقالت:

_ عدني وأقسم بالله ألا تفعلها، أنت تعلم جيدًا أن الله لا يحب الكاذبين ومن يحلف بالله كذبًا يدخله نار جهنم.

سارع بقسمه:

_ والله لن أفعلها، لا تغضبي مني رزان، صدقيني لن أفعلها.

هي طفلة، ربما تعلمت من أمها أكثر منه؛ فهي أكبر منه لكنها لا تعلم كيف تحتوي طفلًا صغيرًا يرغب في فعل ما يضره.

أومأت برأسها ثم عانقته وقبلت رأسه

***

شهران مرا على وجودهما وسط زملائهما بالشارع، نفس الوتيرة والأحداث. صباح كل يوم تغتسل رزان في مياه النيل وحدها؛ يوسف أصبح يأبى فالماء قد زادت برودته لم يعد دافئًا فقد اقترب فصل الشتاء، رزان أيضًا ترتعد من برودة المياه لكنها لا تستطيع الاعتراف بذلك، فلا بديل؛ إما كشف سرها وإما تحمل برودة المياه. وهي اختارت التحمل.

كلما صعقت جسدها برودة المياه يرتجف جسدها فتغلق عينيها متخيلة حمام بيتها وماء الدُّشِّ الدافئ يتساقط كالغيث فوق رأسها وينساب على جسدها ثم بحوض الاستحمام يجري مداعبًا قدميها، غسول شعرها يرغو فوق رأسها مخلفًا فقاقيع بألوان الطيف تتجمل. تدلك جسدها بليفتها الممتلئة

بالصابـون تـاركًا جسـدها نظيفًا معطـرًا برائحة الخـوخ المفضلة لهـا، ثم تجفف جسـدها بمنشـفتها الخاصة النظيفة ثم ترتدي ثيابها المغسولة المعقمة والمعطرة.

يـا إلهـي! ككل يوم تسـتفيق على نداء يوسـف جزعًا فقـد رأى دموع عينيها تنسـاب عـلى وجنتيها دون وعي منهـا. تخرج من الماء بعد أن مسـحت دموعها ترسم على وجهها ابتسامة مخادعة لما بقلبها من ألم، وبجسد مرتعش من ملامسة الهـواء لملابسـها المبتلة تنتظر أن يأذن الله للشـمس أن تنشر دفئهـا ليحمله الهواء فتجف ملابسها.

***

_ ماذا بك رزان؟ لماذا تسعلين كثيرًا هكذا؟

سألها يوسف قلقًا عليها فأجابته بصوت مبحوح وهن:

_ لا أعلم يوسف أشعر بألم شديد في جسدي ولا أستطيع التنفس.

تمسك بثوبها واجم وجهه وجل قلبه وقال:

_ تعالي نجلس على الرصيف قليلًا حتى ترتاحي.

أومأت له برأسها مؤيدة لكن الوهن يزداد، بكت فازداد خوفه وسألها:

_ لماذا تبكين رزانتي؟

أجابته بتعب:

_ أشعر بتعب شديد، لا أستطيع إكمال العمل ولم أجمع بعد حصة المعلم.

عانقها يوسف خائفًا عليها وقال:

_ سأقوم أنا باستكمال العمل وارتاحي أنت.

خافت وارتعد قلبها؛ لا تستطيع أن تدعه يغيب عن ناظريها تخاف عليه التيه والخطف والأذى.

أشارت بسبابتها بالرفض وقالت:

_ لا، لن يحدث، أخاف عليك يوسـف، سـأتحمل وأقوم على مهل وأسـتند

عليك.

وبالفعل قامت تتحامل على نفسها وتكمل عملها حتى حل المساء وعادا إلى مكان التجمع، ازداد التعب وارتفعت حراتها واختنق صدرها، سألها يوسف عما بها. لم تستطع إجابته يعلو صدرها ويهبط، شهقات عالية تستجدي رئتيها كي تسمح للهواء أن يدخل. شحب وجهها وازرقت شفتاها والعرق يغزو جسدها.

صرخ يوسف مستغيثًا فالتف حولهما زملاؤهما نادوا على المعلم كي يذهب بها إلى المستشفى لكنه أجاب:

_ لا أستطيع، فأنا لا أريد أن أدخل متاهات قانونية.

حملها أحد الفتية على كتفه وجرى بها، كلما رآهم سائق سيارة أجرة لا يتوقف حتى توقف أحدهم أخيرًا لكن! بعدما توقف ودقق في مظهرهم اعتذر وخاف أن تكون الفتاة متأذية فتأتيه المشكلات من تحت رأسهم. ظلوا يدورون على الصيدليات فكان جواب جميع الصيادلة:

_ تحتاج إلى الذهاب إلى المشفى وتوضع تحت جهاز التنفس الصناعي.

يعلم الفتى أنه لا يستطيع الذهاب بها إلى المشفى فهو لا يحمل بطاقة هوية وقد يبلغ العاملون بالمشفى الشرطة وتأخذهم ثلاثتهم، تحايل على أحد الصيادلة يستعطفه فتنهد الرجل وقال:

_ نبيع هنا أجهزة أكسجين قد تؤدي الغرض مع بعض الأدوية لكن هل تستطيع دفع ثمنها؟ يمكنني أن أخصم لك جزء من قيمتها.

لم يكن مع الفتى ما يكفي فالمبلغ كثير عليه، عاد إلى المعلم يطلب منه ثمن الدواء فكان جوابه:

_ ليس معي مال، دعها، لعل الله يشفيها، أو اذهب لتشحذ حتى تحصل المبلغ، أو ربما يمكنك الاقتراض من زملائك.

قرب منتصف الليل! ممن قد يشحذ والناس قليلون في الشارع؟ سأل زملاءه

لعلَّه يجمع منهم قيمة العلاج لكنهم جميعًا ادعوا العدم.

عاد إلى المعلم ألح عليه حتى وافق على إعطائه ثمنه لكن:

ـ هو قرض تعيده إليَّ إضافة إلى حصة كل يوم.

أخذ منه المال وحمل رزان مرة أخرى على كتفه ويوسف يتشبث ببنطاله ويجري خلفه وذهبوا ثلاثتهم إلى الصيدلي الذي تعجب منهم وقال:

ـ كيف استطعت الحصول على المال بهذه السرعة هل سرقته؟

حدجه الفتى ببصره مغتاظًا وقال من بين أضراسه:

ـ بل اقترضته، أسرع بعلاجها ولا تعطلنا.

بالفعل قام الصيدلي بتركيب الجهاز ووضعه لها حتى هدأت قليلًا واستقرت حالتها.

أوضح الصيدلي للفتى طريقة استعمال الجهاز ومواعيد الدواء.

ليلة عصيبة مرت بهم. الفتى ساهر يضع لها كمادات مياه باردة على جبهتها ويوسف من الإرهاق نام بجوارها، تهذي بالكلمات تنادي أمها، حتى تنفس الصبح فكان الفتى في حيرة من أمره أيذهب لعمله كي يسد دينه للمعلم أم يجلس جوارها يراعيها.

فما كان منه إلا أن ذهب إلى عمله على أن يأتي إليهما كل ساعة يطمئن عليهما ويناولها دواءها ويوسف يضع لها الكمادات.

مضى اليوم واستفاقت رزان بعض الشيء وبالطبع طالب المعلم بحصته منهما، وكليلتهما الأولى بالمكان اقترضاها من سمكة.

***

ـ أمي! أهذه أنت حقًّا؟ كم أوحشتني

قالتها فرحة مهرولة إليها فاتحة ذراعيها ترتمي بحضنها كم اشتاقت إليها وإلى ضمتها وحديثها.

ظلت تحادثها باكية دون أن تفلت عناقها، أخرجت كل ما بقلبها تبثها إياه تبكي وتنتحب تشكو وتصرخ هذا حلمها وهذا وقتها المستقطع لإخراج ما بقلبها وعقلها ليست بحاجة إلى الصمود ولا التظاهر بالقوة والتحمل وهل كانت الأحلام إلا منفسًا للقلب وراحة للروح؟

تركتها أمها حتى انتهت سكنت واستكانت، ثم أخرجتها من عناقها وببسمتها الجميلة التي تشبه عالمها الملائكي قالت:

_ الله معكما ولن يضيعكما. تذكري هذا دومًا حبيبتي.

قالتها ثم قبلت جبينها واحتضنتها في عناق دافئ استيقظت منه على أذان الفجر فتحت عينيها تنظر حولها أكان حلمًا وانتهى! يا إلهي! لكنها تذكرت كلمات أمها دليلها في تيهها تبسمت ورددت:

_ الله معنا ولن يضيعنا.

قامت تبدل مكانها كما اعتادت مذ أتت إلى هذا المكان لأنها تبلل نفسها في أثناء نومها لكنها شعرت شعورًا غريبًا نعم، تحسست ثيابها فوجدتها جافة، يا إلهي! قد أجيبت دعوتها لربها الستير الذي لم يكشف أمرها، فرحت وحمدت ربها ثم أخذت زجاجة المياه الخاصة بها وذهبت لجانب بعيد تتوضأ كي تصلي الفجر وتحمد ربها على شفائه ونعمه.

ولأول مرة مذ وطأت قدماها هذا المكان تراها تلك الأعين المراقبة تبتسم وحدها وكعادتها لم تبتعد عنها تراقبها في أثناء صلاتها.

***

«مرحب شهر الصوم مرحب لياليك عادت بأمان... بعد انتظارنا وشوقنا إليك، جيت يا رمضان».

امتلأت الشوارع بزينة رمضان وفوانيسه وأغانيه تصدع بها المحلات. يد رزان ممتدة أمامها للشحاذة لكن عقلها شاردًا بذكرياتها مع أمها في شهر رمضان، فانوسها الذي تحضره لها ومثله لأخيها. زينة رمضان التي يشاركها

الطفلان بتزيين البيت بها، أول إفطار في رمضان ببيت جدتها حيث تجتمع العائلة بأطفالهم، المصحف رفيق أمها بشهر رمضان وتشجيعها لها لقراءة القرآن وتصحيح قراءتها.

التفتت إلى يوسف وجدته شاردًا ينظر إلى الفوانيس والألعاب وأجواء رمضان حوله.

شدت من قبضة كفها على كفه الصغير، التفت إليها بوجه فقالت بابتسامة حنون:

_ أتريد فانوسًا؟

نظر إليها متعجبًا رافعًا حاجبيه بعدم فهم فاستطردت:

_ سأشتري لك واحدًا.

اتسعت ابتسامته وتهللت أساريره وقفز فرحًا هاتفًا:

_ حقًّا حقًّا؟ ستشترين لي واحدًا؟

ضحكت منه وهتفت:

_ حقًّا حقًّا، سأشتري لك واحدًا.

ألقى بنفسه عليها معانقًا إياها فرحًا برحمة ورثتها عن أمها.

***

رأت زهرة حزينة تبكي بعيدًا عن رفيقاتها ورفقائها، لماذا تبكي هكذا؟ محتضنة طفلها كأن هناك من يريد اختطافه منها؟! تألمت رزان لحزنها، جذبت يد أخيها وذهبت إليها، ربتت على كتفها وسألتها:

_ لماذا تبكين؟ هل أنت وطفلك بخير؟

أجابتها زهرة بعصبية وتمرد على حالها:

_ لا، لسنا بخير، ولن نكون بخير.

تأثرت رزان لحالها وباغتها يوسف بسؤاله:

_ هل أنتما مريضان؟

تنهدت تنهيدة تحمل فراغ صبر واحتمال ثم أجابته:

_ لا لسنا مريضين.

فبادرت رزان بسؤالها بعطف:

_ إذَنْ ماذا بك؟ لما تجلسين وحدك حزينة تبكين؟

دارت بعينيها تنظر إلى المكان حولها وإلى من به، ثم قلبت عينيها بملل وقالت بألم كبركان خامد آن له الانفجار:

_ أنا فقط تعبت من هذه الدنيا ومن أهلي ومن الشارع ومن الناس أجمعين. لماذا هؤلاء البشر يعيشون حياتهم بسعادة بين أهليهم وإخوانهم وأطفالهم؟! وأنا وطفلي هنا نعيش ببؤس وقهر.

شخصت ببصرها بعيدًا تتذكر ما مضى وتقص عليها:

_ كان أهلي يتجرعون الفقر تجرعًا لا يجدون قوت يومهم ويرتشفون الهم رشفًا، حتى اضطرنا أن نترك قريتنا في الصعيد ليعمل أبي بالإسكندرية خفيرًا على إحدى البنايات تحت الإنشاء لعل أبي يحصل على ما يسد رمقنا به.

حتى جاء يوم وأخبره أحد حراس البنايات السكنية بالمنطقة:

_ هناك أحد السكان الأغنياء يحتاج إلى خادمة مقيمة فلما لا تذهب ابنتك وتعمل لديهم؟ هذه فرصة جيدة وسيعطونها راتبًا جيدًا.

بالطبع لم يجد أبي بدًا من ذلك فراتبه لا يكاد يكفي إطعامنا، دفعني هو وأمي لهذا العمل، لكنني لم أعلم أنني سأذوق الأمرين من أهل هذا البيت، إذا أخطأت خطأً صغيرًا أتلقى ويلات من الذل والإهانة وأحيانًا الضرب، كنت أرى أطفالهم يدرسون ويمرحون ويلعبون ويتدللون على والديهم وأنا؟ أنا أكنس وأمسح البيت وأرتبه وأشتري متطلباتهم واحتياجاتهم وأطهو لهم وأحضر ما يطلبون مني حتى يأتي الليل عليَّ فأنام كالميت من شدة الإرهاق والتعب.

ازدادت معاملتهم لي سوءًا حتى حدث وأصبت إثر صفعة على وجهي أدت إلى اصطدام رأسي بالحائط من شدتها ومن ثم سقطت على الأرض مغشيًا عليَّ.

أفقت في المشفى تحت نظرات صاحب البيت المهددة التي أرعبتني إذا نطقت بحرف واحد عن حقيقة ما حدث.

_ كانت تقف على الكرسي تحضر شيئًا من الدولاب العلوي فانزلقت قدمها وسقطت على الأرض وفي أثناء سقوطها ارتطم رأسها بالحائط.

نظر إليه الطبيب غير مقتنع ثم سألني عن صحة كلام ذاك القاسي فأومأت له بتأييد كلامه، وهل كنت أستطيع فعل غير ذلك؟! كيف وعيناه تتوعداننني بعقاب أشد إذا خالفت؟!

عدت إليهم بقلب منكسر وبالطبع لم أجد حنانًا ولا ندمًا بل هوانًا وذلًّا، حتى أتى أبي يومًا كعادته ليحصل على راتبي فهم يعطونه له هو لا أنا كما اتفقوا حتى لا أضيعه حسب كلامه وكلامهم فأخبرته بما حدث.

صمت قليلًا ورأيت الحزن في عينيه فقلت في نفسي فرحة «أخيرًا سيأخذني من هنا وأعود معه» لكن لم أكد آمل حتى ضاع مني فتات الأمل بكلماته الصاعقة:

_ لا بد أنك أخطأت خطأً فادحًا لفعلهم ذلك بك، عليك أن تكوني أكثر طاعة وحذرًا، حمدًا لله أراك الآن بخير.

هذا فقط ما قاله، لم أشك له بعدها أبدًا، ولِمَ قد أشكو وأنا أعلم الجواب مسبقًا؟!

إلى أن آن الميعاد حين طفح الكيل منهم ومن أفعالهم، أخذت المال الذي كان من المفترض أن أشتري به احتياجات البيت ودفعت منها ثمن تذكرة قطار إلى القاهرة واتخذت الشارع لي مأوى، ولم أفكر بالعمل مرة أخرى، يكفيني ما عانيت.

حتى قابلتني إحداهن بالأمس وظلت تتحدث إلى، رق قلبها لحالي

وأخبرتني أنني يجب أن أسجل طفلي بالسجلات الحكومية ولا بد من استخراج شهادة ميلاد له. حتى لا يعيش حياته بمأساة أخرى غير مأساة ميلاده وحياته بالشارع بلا أب، وأخبرتني أنها تعرف إحدى الجمعيات التي قد تساعدني في ذلك، وبالفعل جاءت إلى اليوم وأخذتني معها بسيارتها إلى هذه الجمعية، عرضوا عليَّ فعل ذلك لكن:

_ سيكون الطفل في مكان الآخر مع الأطفال وسيتم عمل فحوصات له والاعتناء به صحيًّا، وأنت ستكونين في مكان النساء وسيتم عمل فحوصات طبية لك ومتابعة طبيب نفسي وأخصائي اجتماعي مع الاهتمام حتى تصبحي مهيأة كأم جيدة لطفلك.

هكذا أخبرتني تلك المسئولة بتلك الجمعية. لم أفهم ما هو الطبيب النفسي ولا كل ذلك، كل ما علمته أنني لم أحتمل، كيف يريدون أن يأخذوا مني طفلي؟

قالتها وازدادت شهقاتها قوة ثم استطردت حديثها الباكي:

_ أخبرتهم أنني لا أستطيع الابتعاد عنه أنا فقط أريد عمل شهادة ميلاد له لأنني لا أستطيع استخراجها دون قسيمة زواج، فأجابوا:

_ هذا هو الحل الوحيد لدينا، تعلمين جيدًا أنك لا تستطيعين استخراج شهادة ميلاد له لأنه ابن سِفاح، تعالي وشاهدي المكان ربما يعجبك وترين أنك تستحقين البقاء فيه وكذلك طفلك يحتاج إلى حياة سوية.

أبيت الدخول، رأيت المكان وأنا أمام الباب به حياة نظيفة وألعاب جميلة للأطفال، أتمنى أن يعيش طفلي بمكان كهذا وأن أعيش أنا أيضًا، لكن غير متفرقين ولا أحرم منه! قلت لهم:

_ أخاف أن تكفله إحدى الأسر ولا يعود إليَّ مرة أخرى.

فأخبرتني:

_ لا يمكن حدوث ذلك ما دام أنَّ الأم لم تسمح سيبقى بمكانه المخصص للأطفال حتى تستطيعي تحمل مسؤوليته والتعامل معه وتوفير مكان مناسب

للعيش به، وقتها يمكنك أخذه للعيش معك.

سكن بقلبي الخوف لا أستطيع المغامرة بطفلي، تركتها وتركت المكان كله وعدت إلى الشارع حيث موطني لكن الغصة بقلبي تشعله؛ أسيبقى طفلي هكذا دون نسب؟!

تألم قلباهما لأجلها، هما أيضًا يخافان الفراق. كيف لأحدهم أن يخبرك بكل بساطة هكذا أنه سيفرق بينك وبين قطعة منك؟!

ربتت رزان على كتفها بحنان وقبلت رأسها وقالت:

ـ حسنًا، كفى بكاءً.

ابتسم يوسف لها بمواساة ثم جلس يداعب صغيرها وشاركته رزان بمداعبته وتدليله مما نقل إلى ليل عدوى الابتسامة والتدليل لطفلها.

***

ـ هارون!

قالتها الجدة بلهفة وشوق بعد أن نظرت من خلال عدسة الباب، فتحت الباب ثم ألقت نفسها عليه تعانقه، كم اشتاقت إليه! كان ولدها الأوسط والآن أصبح الأصغر، تذرف عيناها دموع اللقاء بعد الاشتياق، مضى عام على آخر لقاء بينهما.

أبعدها عنه بهدوء وقبل يديها ورأسها ثم قال مبتسمًا:

ـ ستدعينني أقف على الباب هكذا؟!

ابتسمت له ثم جذبته من يده إلى الداخل، وبعد أن جلسا سألته:

ـ أين زوجك وأولادك؟ ألم يأتوا معك؟

أجابها بابتسامة حانية:

ـ زوجتي عند أمها ومعها الأولاد، سيقضون اليوم معها وأحضرهم في الليل نقضي رمضان معك، ثم نعود إلى شقتنا.

فرحت الأم وقالت بترحيب وامتنان:

_ لا تعلم كم اشتقت إليكم، ألم تسأم يا ولدي من الغربة؟

ابتسم إليها ابتسامة واسعة ثم قال بمرح:

_ وهذه مفاجأة أعددتها لك، عودتي دائمة إلى مصر واستقراري هنا.

شهقت الأم بفرح ثم جذبته إليها تضمه بسعادة هاتفة:

_ وا فرحتاه يا ولدي كم أفتقدت وجودك معنا، لا تعلم يا ولدي ما حدث بغيابك وبعد وفاة أختك.

نظر إليها بحزن وألم فهي كانت صغيرته القريبة إلى قلبه ثم قال:

_ بل أعلم أمي، أخبرني حسام بكل شيء لذلك أسرعت بإنهاء أعمالي بالخارج وعدت.

سألته الأم بحزن مصاحبه ألم:

_ وماذا سنفعل بني؟

أجابها بابتسامة دافئة يطمئن قلبها:

_ لا تقلقي أمي، لن أدع بابًا إلا وسأطرقه لأصل إليهما.

***

_ سأصوم من الفجر إلى المغرب أبي.

قالها طفل يبدو في السابعة من عمره لأبيه فأجابه الأب:

_ هل ستستطيع؟ أنت ما زلت صغيرًا إذا أردت يمكنك الصوم من العصر حتى المغرب.

أجابه الطفل بحماس:

_ لا، أبي أنا كبير وأريد أن أصوم مثل الكبار.

ضحك منه الأب وقال مشجعًا إياه:

_ حسنًا، إذا استطعت ذلك فلك مكافأة عندي لكن إذا تعبت ولم تستطع فلا بأس عليك ألا تكمل.

صفق الطفل وقد ازدادت حماسته وقال:

_ سأصوم اليوم كاملًا من الفجر حتى المغرب طوال رمضان بأكمله وستعطيني مكافأة عن كل يوم في رمضان أليس كذلك أبي؟

قهقه أبوه من كلماته وقال:

_ بلى، لك ذلك لكنني هكذا سأدفع كثيرًا.

قالها ممازحًا ابنه دون أن يشعر بمن تصنمت بمكانها تستعيد ذكرياتها مع أمها، ذات الذكرى هي ما حدث أمام عينيها الآن لكن الشخصيتين قد تبدلتا.

ابتسامة حزينة زارت ثغرها ودمعات ترقرقت على وجنتيها وهي تقول بهمس لنفسها:

_ سأصوم نهار اليوم بأكمله طوال رمضان هذا العام أمي لكن دون مكافأتك.

كعادتها مسحت سريعًا دموع عينيها بأناملها الرقيقة وأكملت طريقها وأخيها.

_ إلى أين نحن ذاهبان الآن رزانتي؟ قد تعبت.

قالها يوسف لرزان بإرهاق وملل، ابتسمت إليه بحنان وقالت:

_ ألم أعدك منذ أيام أنني سأشتري لك فانوسًا؟ سنذهب لنشتري واحدًا.

اتسعت عيناه من المفاجأة وكذلك فغر فاه، هي أخبرته بذلك لكنه ظن أنها لن تحضره له في القريب العاجل هكذا ونسي الأمر لكنها لم تنسَ ما وعدت.

_ هيا يوسفي اختر الشكل الذي تريده ثم نسأل عن سعره وننظر إن كان ما معنا من مال يكفي أم نختار شكلًا آخر؟

قالتها رزان بعد أن وقفا أمام أحد المحلات التي تعرض الفوانيس لبيعها.

ظل يوسف ينتقل ببصره بين الفوانيس متحيرًا وهو يسألها أي الأشكال أفضل؟ اختارت رزان معه أحد الأشكال ثم جذبت يده لتذهب إلى البائع الذي لم يصرف بصره عنهما مذ جاءا، ثم سألته:

_ يا عم، كم سعر هذا الفانوس إذا سمحت؟

نظر الرجل إليها بتعجب فهو يتابعهما منذ البداية لكن جل ما جال بخاطره هو أنهما ربما يتمنيان فانوسًا كأي طفل بعمرهما، هما طفلا شوارع لكنهما ما زالا طفلين يرغبان التمتع بطفولتهما كغيرهما من الأطفال، لكنه خاف وظن..

_ لماذا تسألان عن سعره؟ هل معكما ثمنه؟

سألهما بريبة، فكيف لطفلين مثلهما أن يحصلا على ثمن فانوس؟

سألته بحزم:

_ كم ثمنه يا عم، وسأقول لك أيكفي ما معي من مال أم لا؟

رفع حاجبه متعجبًا، ثم أجابها:

_ ثمنه مائة وعشرون جنيهًا.

استأذنته وابتعدت بأخيها عن ناظريه، ثم توارت بطريق جانبي وأخرجت ما معها من نقود عدت حصة المعلم ثم خبأتها وظلت تعد الباقي.

شعرا بأحدهم يقترب منهما فلملمت نقودها وخبأتها ثم التفتا فوجداه.

_ فجر!

هتفا بها بآن واحد، فنظر إليهما متعجبًا من ارتباكهما الواضح، فسألهما:

_ ماذا بكما؟ لماذا أنتما مرتبكان هكذا؟

سارعت رزان بإجابته متلبكة:

_ لا شيء، لا شيء، نحن بخير.

تفرس فيهما ثم قال بعينين ضيقتان مستجوبًا إياهما:

_ وماذا تخبئين بيدك رزان؟

أجابته بحدة:

_ وما شأنك أنت؟

اقترب منهما أكثر وصاح فيها:

_ أخرجي ما تخبئينه رزان.

خافت وازدادت دقات قلبها حدة لكنها لم تكن وحدها من خافت، تشبث يوسف بثيابها وترقرقت أعينهما بدموعها، وأخرجت الأموال التي خبأتها، نظر إلى ما بيدها ثم قال ببرود:

_ ولماذا تخبئانها؟ أسرقتماها؟ وماذا في ذلك؟

أسرعت رزان هاتفة:

_ لا لم نسرقها! نحن لسنا سارقين، نحن لا نسرق أبدًا.

نظر إليهما مطولًا بوجه متجمد ثم قال:

_ ماذا كنتما تفعلان؟ ولماذا خفتما هكذا وخبأتماها؟

تنهدت رزان ثم نظرت إلى أخيها خائفة أن تخلف وعدها له بفقدها للمال إذا أخذه فجر منها عنوة وقالت بحزن عل قلبه يرق:

_ كنا نعدها، كي أستطيع شراء فانوس رمضان من أجل يوسف.

صمت قليلًا واستمرت نظراته الجامدة ثم سألها:

_ وكم وجدتها؟

نظرت إليه بضيق ثم قالت:

_ أخطأت في العد لم أعرف كم بالضبط.

مد يده إليها كي تعطيه إياها، فنظرت إليه مترجية، ثم تحولت إلى نظرة يأس وأعطته إياها.

أخذها منها يعدها، ثم قال:

_ هذه مئة وعشرة جنيهات، كم ثمن الفانوس؟

نظرت إليه بعدم فهم، ثم قالت بضيق:

_ مائة وعشرون جنيه.

أدخل يده في جيبه فأيقنت أنه سيخرج حافظة نقوده كي يضيف إليها أموالها لكنه أدهشها حين أخرج عشرة جنيهات وأضافها إلى نقودهما وقال:

_ هكـذا أصبحـا مائة وعشرين جنيهًـا، اذهبا لتشـترياه ولا تتأخرا حتى لا تتأذيا.

ثـم التفت وغـادر تاركًا إياهما فاغرين فاهيهما مما حـدث، حتى أتى أحدهم يمر بالطريق فانتبها ومضيا في طريقهما تحت أنظار الأعين التي لا تفارقهما.

***

عـادا إلى محـل الألعـاب والفوانيس، وذهبـا إلى البائع وطلبا منـه الفانوس، مدت رزان يدها إليه بثمنه.

تفرس البائع فيهما. ثم قال:

_ من أين جئتما بهذا المال؟ أسرقتماه؟

اتسعت أعينهما وشهقت رزان قائلة:

_ لا لم نسرقه، هذه نقودنا.

نظـر إليهما بشـك ثم نظر إلى الأمـوال وجدها فئة الجنيـه والخمس جنيهات وورقتان فقط من فئة العشر جنيهات فعلم أنها أموال عملهما من التسول، لكنه باغتهما بسؤاله:

_ هل هذا ما جنيتماه من شحاذتكما اليوم؟

نكست رزان رأسها وقالت بخزي:

_ لا، هـذا مـا تبقـى دون مصروفات طعامنا وأشـياء أخـرى إضافة إلى ما تبقى من الأمس أيضًا.

نظر إليهما متعجبًا، صغيران يشحذان يجنيان في يوم أكثر من أجر عمله ليوم كامل بالمحل!

أخذ المال وأعطاهما الفانوس ثم عاد إلى عمله غير راضٍ عن حاله.

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن

«أمل!»

وصلا إلى مكان التجمع فرحين، يوسف فرح بفانوسه الجديد الذي يضيء ويغني ورزان فرحة لفرحه، اقترب منهما الأطفال ذوو الأعمار المقاربة لهما، تركوا ما كانوا يفعلون من سوء، بل ونسوه حينئذٍ وتذكروا شيئًا واحدًا فقط هو فطرتهم طفولتهم، هم يرون الفوانيس معروضة أمامهم في الشوارع ولم يخطر ببال أحدهم شراؤه، فقد نسوا أنهم أطفال وأنه من حقهم أن يكون لديهم ألعاب يلعبون بها ويمرحون، وككثير من الأطفال لا يحب أن يقترب أحد من ألعابه، جذبه يوسف من يد أحدهم وخبأه خلفه، لكن رزان أخبرته أن يشاركهم اللعب به وألا يكون أنانيًّا واشترطت عليهم أن يحافظوا عليه لكن هيهات.

_ معذرة؛ لقد سقط مني لم أقصد.

قالها أحد الأطفال بعد أن سقط الفانوس أرضًا وتفكك إلى أجزاء.

نهره يوسف غاضبًا صائحًا باكيًا:

_ بل أنت ألقيته لقد رأيتك بعيني هاتين.

بالفعل ألقاه عامدًا؛ طفل يغار ممن مثله وليس مثله، لم يجد من أهله من يشعره برعاية واهتمام.

انقسم الأطفال، منهم من وقف بصف يوسف وشهد بالحق وآخرون وقفوا في صف الآخر فهم رفاقه حتى ولو شهدوا بالباطل.

غضبت رزان من أجل أخيها وكسر خاطره، لم تكتمل فرحتها. ضمت

أخاها إلى صدرها محاولة تهدئته وصاحت بمن ألقى بالفانوس:

_ لماذا فعلت ذلك؟ هو فقط أراد أن تشاركه اللعب وتمرح معه، لِمَ أحزنته؟

نظر إليهما بنظرات باردة شامتة وقال:

_ هو سقط من يدي لم أقصد فعل ذلك!

ثم تركهما ومضى كأن شيئًا لم يكن، وكذلك تفرق الجمع وتركوهما بخيبتهما.

جلست رزان تلملم أجزاء الفانوس محاولة إعادة تركيبه لكن محاولتها باءت بالفشل.

اقترب منهما اثنان من زملائهما أحدهما في العاشرة من عمره والآخر في السادسة عشرة، خاطب الأخير رزان قائلًا:

_ دعيه، وأنا سأحاول تركيبه لك.

ثم جلس وهو يدخل هاتفًا محمولًا بجيبه قبل أن يبدأ بتركيب الفانوس.

نظرا إليه متعجبين، كيف له أن يحمل هاتفًا محمولًا؟ من أين له بثمنه؟

وبالفعل استطاع إعادة تركيب الفانوس، لم يعد بشكله المثالي كما كان، لكن يكفي أنه عاد ليعمل. فرح يوسف وضم الفانوس إليه ضاحكًا بسعادة، ضحكت رزان وقبلت وجنته ثم التفتت إلى الفتى لتشكره وكذلك يوسف فعل مثلها ثم سأله:

_ ما اسمك؟

فأجابه الفتى:

_ أنا القن.

وأشار إلى الآخر الذي يجلس بجانبه قائلًا:

– وهذا كامبا.

ثم التفت إلى رزان واستطرد:

_ وأنت رزان، وهذا أخوك الأصغر يوسف.

قطب كل منهما حاجبيه متعجبين من معرفته باسميهما فقال يوسف بدهشة:

_ كيف عرفت اسمينا؟ نحن نراك هنا في الجوار مع رفاقك لكن لا نعرفك.

ضحك القن من براءته وقال مداعبًا بمرح:

_ أنا أعرف كل شيء.

نظر إليه يوسف بانبهار طفل برئ، ثم سأله مترددًا:

_ كيف حصلت على هاتفك المحمول؟ هل ادخرت مالك واشتريته؟

ضحك منه وقبل أن يجيبه بادر الفتى الآخر كامبا ذو العشر أعوام وقال مفاخرًا:

_ أنا أيضًا معي هاتف محمول حصلت عليه اليوم.

ثم مد يده به إليها يريهما إياه واستطرد قائلًا:

– انظرا.

اندهش الطفلان وسألاه في آنٍ واحد:

_ من أين حصلت عليه؟

نظر إليهما متحدثًا بتفاخر:

_ رأيت أحدهم يتحدث به أمام باب أحد المحلات ثم دخل وتركه على المكتب، رأيته عبر زجاج المحل فعلمت أنه يعمل بالمحل. راقبته حتى دخل إلى مكان ما بداخل المحل ولم يكن هناك أحد غيره فدلفت مسرعًا وأخذته وفررت دون أن يراني أحد.

نظرا إليه متعجبين من فعلته وهتفت رزان:

_ هل سرقته؟ هذا حرام، إذا لم يرك الرجل فالله يراك وسيعاقبك يوم القيامة.

رفع كتفيه بعدم اهتمام ثم قال:

_ وماذا في ذلك؟ هناك آخرون هنا لديهم هواتف محمولة، منهم من سرقهم

ومنهم من اشتراه ممن سرقه. أليس هذا حقنا؟ لماذا هم لديهم كل شيء ونحن لا شيء؟ ألا يكفيهم أنهم يعيشون مع أسرهم بهناء وسعادة ليست لنا!

تدخل أدهم مؤيدًا ديجور:

ـ نعم هذا حقنا نحن، لا حقهم.

ثم أخرج هاتفه من جيبه وقال بمرح :

ـ هيا يا قن نكمل ما بدأناه كي تتعلم اللعب عليه ونتسابق ونرى من منا الفائز.

اقتربت سمكة منهما فقد كانت تراقب الحديث وتستمع إليه. وقالت مبتسمة:

ـ لما أنتما متعجبان هكذا؟ هذا أمر معتاد هنا، لكن ليس الجميع يستطيع فعلها وأنا منهم، أأخبركما سرًّا؟

نظرا إليها بصمت مترقبين ما هو آت. فأكملت قائلة:

ـ أنا لا أستطيع أن أسرق لأنني أجبن من فعل ذلك وأخاف أن ينقض علي أحدهم متلبسة فيمسك بي.

***

صمت يعم البيت، فها هو أول تجمع عائلي احتفالًا بعودة هارون بإجازته السنوية وأفراد العائلة ينقصهم صغيرتهم وطفلاها، احتفال صامت كئيب يخيم عليه السكون وأطياف الذكريات.

ـ ترى أيعود الغائبون؟!

قالتها مريم شاردة، فأجابها أخوها بأمل ويقين:

ـ إن شاء الله سيعودان.

ثم التفت إلى أمه واستطرد قائلًا:

ـ سأحضرهما ليعيشا في كنفك بأي ثمن كان.

نظرت إليه باستفهام فالتفت إلى حسام وأردف:

_ ألم يهاتفك شريف ثانية؟

أومأ إليه حسام بالنفي، وقبل أن يتفوه سألت الأم هارون:

_ من شريف هذا؟

أجابها هارون بنصف ابتسامة:

_ شريف أخو زوج رحمة، ألا تذكرينه؟

أجابته الأم بتذكر قائلة:

_ بلى تذكرته الآن لكنني أذكر أن طليقة زوج رحمة أخبرتنا أن أخويه الاثنين يعملان خارج البلاد منذ سنوات.

بابتسامة حزينة قال لها هارون:

_ أختـه مسـافرة مع زوجها الـذي يعمل بإحدى دول الخليـج، لكن أخاه هنـا، يعمـل موظفًا بإحـدى الإدارات التعليمية بالفيوم. مـا علمته من رحمة أن العلاقة بين الإخوة الثلاثة باردة وتكاد تكون منقطعة سوى في بعض المناسبات التي تقتضي المظاهر الاجتماعية لاجتماعهم وحضورهم.

لذلك اتفقت مع حسام أن يبحث عنه ويلقي إليه بطعم الميراث عله يستطيع إيصالنـا إلى أخيـه أو إيصال الرسـالة إليه فيعـود بالطفلين ووقتهـا يمكننا أخذ الطفلين منه بالقانون.

قاطعته مريم متعجبة:

_ ولماذا أخبرتنا طليقته ذلك؟ لم يبد عليها الكذب بهذا الأمر.

أجابها حسام بتهكم:

_ ربما هو قد كذب عليها ليبرر عدم حضور إخوته للزواج كما أخبرتنا لأنه كان يخطط لتركها مسبقًا!

أيـدوه جميعًـا بالرأي متعجبـين من مكر هذا الرجل ثم سـألت الأم حسـام

بلهفة:

_ وهل أخبرك شريف هذا بأي شيء؟

***

لا يبدو مثلهم فهو مهندم بملابس نظيفة وشعر مصفف ويبدو عليه النظافة والاستحمام وكلما اقترب تزداد رائحته الطيبة انتشارًا، ما هذا؟ إنه نمس أحد الأطفال الذين يجلسون دائمًا مع سمكة ورفقائها فهم يقتربون من نفس العمر، لكن لماذا تبدو هيئته هكذا؟

_ أكنت اليوم بالجمعية؟

سألته سمكة بسؤال من يعرف الإجابة مسبقًا، فأجابها مبتسمًا ممسكًا بيديه ياقة قميصه بغرور مازحًا:

_ ألا يبدو علي ذلك؟ ألا ترين الأناقة أم أنك عمياء؟

ضحكوا جميعًا من سخريته عدا رزان ويوسف، لم يفهما مقصدهم. فسأله يوسف:

_ ما الجمعية هذه؟

ضحك منه نمس وقال:

_ إنها جمعية يتبع لها دار رعاية اجتماعية لأطفال الشوارع مثلنا، نذهب إليهم بحجة زيارة المكان للتفكير في الإقامة لديهم وترك الشارع، وهناك يحاولون إقناعنا، نلعب ونأكل ونستحم ونبدل ثيابنا القديمة بأخرى جديدة، مع وعدنا لهم بالتفكير والعودة مرة أخرى ثم نذهب ولا نعود إلا بعد فترة ونعيد نفس الكرة.

قال جملته الأخيرة ضاحكًا ومن حوله يضحكون مثله، لكن رزان باغتته:

_ ولماذا لا تبقى لديهم؟ أليس المكان جيدًا كما تقول؟ كما أنني سمعت من إحداهن أنك يمكنك استكمال دراستك؟

صدم نمس من كلماتها وقال هاتفًا:

_ أتريدينني أن أترك الحرية ها هنا وأذهب لمن يخبرني أن النوم بموعد والاستيقاظ بموعد واللعب بموعد وأفعل هذا ولا أفعل ذاك وأقول هذا ولا أقول ذاك؟ لا، أنا هنا أفعل ما أريد بالوقت الذي أحب، أعدل مزاجي بما يريحه ويضبطه.

قاطعته رزان متعجبة:

_ هل تركوك ترحل بعد أن ذهبت وأخذت منهم ثيابًا جديدة وقضيت يومًا ممتعًا؟

أومأ لها برأسه بنعم ثم أردف:

_ لا تفعل كل الجمعيات هذا، هناك من يأخذك في جولة بالمكان ويحدثك محاولًا إقناعك مجرد مشاهدة للمكان وفقط، وهناك جمعيات مثل التي ذهبت إليها اليوم تأكلين وتشربين وتغتسلين وتبدلين ثيابك وتفعلين كل شيء لتحبي المكان وتتركين الشارع.

نظرت رزان إلى ثيابها التي تمزق بعضها وفعل أخوها مثلها ففهم نمس ما بداخلهما بنظرته إليهما فقال:

_ إذا أردتما الذهاب هناك للحصول على ثياب جديدة يمكنني أن أدلكما على المكان وربما أوصلكما، لكن لن أدخل معكما.

خافت رزان وهتفت مسرعة:

_ لا، أخاف أن يأخذونا ويفرقونا.

أجابها الفتى:

_ لا تقلقي لن يحدث هذا.

هنا تدخلت سمكة وقالت:

_ أنا أيضًا سأذهب معكما، فقد اهترأت ثيابي وأريد ثيابًا جديدة.

أومأت رزان برأسها بقلق ثم نظرت إلى أخيها وقالت:

_ سنفكر في الأمر وسنرى.

ثم جذبت يد يوسف وقالت:

_ هيا يوسف نذهب إلى مكاننا، كي تتعشى وأنا أتسحر لأصوم.

قال لها يوسف بوجه مستفهم:

_ تصومين؟ كيف؟

صغير هو لا يتذكر صوم أمه وقيامها في رمضان. أجابته رزان:

_ نعم أصوم. لن آكل أو أشرب من الفجر حتى آذان المغرب، وكذلك يجب ألا أفعل شيئًا سيئًا، حتى يعطيني الله حسنات كثيرة كي ندخل الجنة.

قبل أن يهم يوسف بمواصلة حديثه قاطعهم صوت نمس قائلًا:

_ أتعلمون؟ أكثر ما أحبه في أيام رمضان أننا نكسب كثيرًا فعطاء الناس يكون زائدًا غير موائد الطعام الكبيرة التي تعد بالشارع ويكون بها الكثير من الطعام ولا يمنعك أحد من الجلوس لتأكل معهم بل يكون مرحبًا بك.

أيد الجميع حديثه، فهذا هو رمضان في أعينهم؛ رزق كثير وتعامل كإنسان، ومن منا لا يرغب برزق كثير؟ ومن منا لا يرغب أن يعامل كإنسان؟ لكن أليس كل منا إنسان؟ هل أصبحت معاملتنا بها نكون أمنية وحلمًا لا يتحقق سوى أيامًا معدودات بالعام؟

***

_ لا، لم يخبرني شيئًا مفيدًا؛ يبدو أنه لم يكن على علم بما فعل أخوه.

هكذا أخبر حماته ثم عاد بذاكرته إلى الخلف:

بعدما عادوا من بورسعيد هاتف حسام هارون عله يصل إلى أحد من أقارب أبو الطفلين ويصل إليهما. أخبره هارون عن شريف هذا فأخبره حسام بما قالته طليقة أبو الطفلين، لكنه نفي ذلك وقال:

_ كيف ذلك؟ في آخر إجازة لي بمصر كنت أفكر بقضاء أسبوع في مكان جديد كنوع من التغيير وكنت أتحدث أمام زوج رحمة في ذلك فعرض علي الذهاب إلى الفيوم وظل يصف لي مدى جمالها ثم أخبرني أن أخاه هناك ويمكنه توفير شقة أقيم بها هذا الأسبوع، وبالفعل هاتفه أمامي وأوصلني به واتفقنا لكن مرضت حماتي وقتها وألغينا السفر. لا بد أنه كذب عليها لسبب ما. لن نخسر شيئًا بالمحاولة.

بالفعل سافر حسام إلى الفيوم بحثًا عنه، بحث في جميع الإدارات التعليمية بالمحافظة حتى وجده.

_ السلام عليكم، سيد شريف؟

ألقاها حسام علي أحد الموظفين بالمكتب فأشار الرجل إلى زميله أنه هو شريف دون أن يرد السلام، ربما لم يره حسام سوى ثلاث أو أربع مرات متفرقة منذ سنوات عدة لكنه تذكر هيئته وملامحه، إنها هيئة هؤلاء الموظفين الذين يفتحون درج المكتب استقبالًا للرشوة.

_ كيف حالك سيد شريف؟

قالها حسام بابتسامة مجاملة وود كي يتآلفا ويصل إلى ما يبتغيه.

رفع شريف رأسه متجهمًا وقبل أن تلتقي عيناه بعيني حسام قال:

_ كما ترى نفدت سجائري وصدري أضيق من ثقب إبرة المخيط، ماذا تريد؟

صدم من جوابه واتسعت عيناه فوجده ينظر إليه متفحصًا. لم يتذكره من الوهلة الأولى لكنه ضيق عينيه مشبهًا عليه فساعده حسام على التذكر وأخبره من يكون.

وقف محييًا إياه مرحبًا ومهللًا ثم دعاه ليجلس واعتذر منه. أومأ إليه برأسه متصنعًا التفهم ثم سأله باندفاع لم يستطع السيطرة عليه:

_ أين أخوك؟

دهش شريف من سؤاله ثم أجابه:

_ أليس ببيته بالإسماعيلية؟

نظر حسام محدقًا بعينيه محاولًا سبر أغواره ثم أجابه:

_ لا ليس هناك، قد باع شقته وسافر إلى بورسعيد. وأخبرتنا طليقته أنه أخذ الطفلين وسافر، أتريد أن تقنعني أنك لا تعلم مكانه؟

أجابه شريف مندهشًا مسرعًا:

_ طليقته! صدقني لا أعلم عنه شيئًا منذ عزاء زوجه صاحبة الخلق رحمها الله.

فسأله حسام:

_ ولا تعرف رقم هاتفه الجديد؟

أومأ شريف برأسه يمينًا ويسارًا وهو يجيب متعجبًا:

_ هل غير رقمه؟

حاول حسام السيطرة على غضبه فهذا الرجل إما ماكر مخادع كأخيه وإما بالفعل لا يعلم عنه شيئًا، رسم على ثغره ابتسامة متصنعة ماكرة ثم قال:

_ لقد جئت إليك اليوم على أمل أن أصل إليه كي أزيح عن كاهلي حمل أمانة ميراث أخت زوجتي فما حصل عليه كان نصيبه من حصتها بالبناية السكنية فقط، لكنها كانت شريكة لي ولأخيها من الباطن في أحد المشروعات الاستثمارية.

ثم نهض منهيًا اللقاء وهو يقول بمكر:

_ إذا هاتفك يومًا فأخبره أن يأتي إلي لنرى أمر هذه الأموال، ويفضل أن يحضر معه الطفلين لنراهما فقد أوحشانا جدًّا.

سلم حسام عليه وقال بخبث محاولًا إلقاء طعم له هو الآخر:

_ وبالطبع إذا وصلنا إليه لن ننسى معروفك أبدًا، سنكون مدينين لك

وسنرد إليك صنيعك.

ابتسم شريف بسعادة وهتف:

ـ بالطبع إذا اتصل بي سأخبره وأبلغكما.

قدم حسام إليه بطاقة بها أرقام هاتفه وقال:

ـ هذه أرقامي، فلتهاتفني إذا جد شيء أو احتجت إلى شيء.

ثم مضى. وفي اليوم التالي هاتف شريف حسام يخبره:

ـ لقد تواصلت مع أختي كي أسألها عن أخي هل تعلم عنه شيئًا؟ فأخبرتني أنه منذ فترة قصيرة تواصل مع زوجها من رقمه القديم، كي يتحرى له عن قانونية إقامة مشروع استثماري في الدولة التي يعملان بها وهل سينجح ويدر عليه من الربح الكثير أم أن إقامته في مصر أفضل؟

بالنهاية قرر استثمار أمواله بمصر لكنه لم يخبره عن مكانه أو ماهية استثماره.

ثم استطرد بأسف:

ـ وليس لديهما رقم هاتفه الجديد لكنني أوصيتها أن تخبرني إذا توصلا إليه.

***

ـ تقبل الله منكما.

قالتها نسمة بود، لكنها لم تكن وحدها هذه المرة كانت معها فتاة أخرى في مثل عمرها، أجاباها كما اعتادا بابتسامة:

ـ منا ومنك.

هنا تدخلت الفتاة الأخرى وقالت:

ـ رزان ويوسف، أليس كذلك؟

نظرا إليها بتعجب فأردفت:

ـ أخبرتني نسمة عنكما؛ قالت عنكما كلامًا رائعًا مثلكما.

زال التعجب عنهما واحتلت ثغريهما ابتسامة خجلة، زالت بعد أن سمعاها تستطرد:

_ وأرغب حقًّا في مساعدتكما، ألا تحبان أن تعيشا بمكان نظيف مرتب وتدرسا وتلعبا بألعاب ممتعة؟ أن تأكلا طعامًا لذيذًا وتلبسا ثيابًا جديدة مهندمة؟!

يا إلهي! لقد سمعا هذه الكلمات من قبل! نعم إنها منهم.

_ أنا أمل أعمل بجمعية «نفس» لإيواء من لا مأوى لهم ومنهم أطفال الشوارع.

وقبل أن تكمل قاطعتها رزان باندفاع ممسكة بيد أخيها:

_ لا، لا نرغب؛ لا نرغب أن نفترق ونعلم ما تريدين قوله.

_ تفترقان! ومن قال أنكما ستفترقان؟ نعم ستعيشان بمكانين مختلفان لكن يمكنكما زيارة بعضكما كما يمكنكما أن تتقابلا في الحفلات التي نقيمها والمناسبات.

نظرت إليها رزان مقطبة حاجبيها وقالت:

_ لكن هناك آخرين من جمعيات أخرى قالوا إننا سننفصل ولن نرى بعضنا بعضًا حتى نكبر ونخرج من عندكم.

زفرت أمل وقالت بضيق:

_ كيف ذلك؟ إن كانوا يفعلون ذلك فهم مخطئون بل ويؤذون الأطفال أكثر مما ينفعونهم؟!

تنهدت ثم قالت بعطف:

_ على كل حال نحن لا نفعل ذلك في جمعيتنا، الإخوة في الدار يسمح لهم بالتواصل والزيارة، ما رأيكما أن تأتيا لتشاهدا المكان بأعينكما، ربما تبدلان رأيكما و...

أومأت رزان برأسها بالرفض وقاطعتها قائلة:

_ لا، لا جمعيات، لا فراق.

قالتها رزان وأمسكت يد أخيها وهمَّا أن يقفا ليذهبا، تنهدت أمل بحزن لأجلهما ثم مدت يدها ببطاقة:

_ هذه البطاقة فيها اسم الجمعية وعنوانها، إذا بدلتما رأيكما وأحببتما زيارتنا بأي وقت كي تريا بعين اليقين وتقررا.

نظرت إليها رزان نظرة جامدة، مدت إليها يدها وأخذتها منها دون كلمة ثم مضيا تحت أنظار من شعرتا بالحزن لأجلهما.

***

_ أشعر بالبرد يا رزان.

قالها يوسف وهو يرتجف، هي مثله فثيابهما صيفية خفيفة لا تدفئ قلبًا ولا جسدًا، ثلاثة أشهر مضت وهم بهذا المكان بالثياب ذاتها، ماذا سيفعلان بهذا البرد ولم يدخل الشتاء بعد بل اقترب فقط؟! بعض من حولهما يلتحفون بغطاء يدفئهم والبعض الآخر يلتحف بذراعيه يحتضن نفسه عله يدفئ فؤاده، وآخرون يتخذون السجائر والمخدرات مدفأتهم يدخنونها عل الدماء بجسدهم تسخن وتذيب جليد همومهم.

لم تجد جوابًا تجيبه به، جذبته إليها تحتضنه ربما دفء حضنها يدفئه ويدفئها. فإذا بأحدهم يمد يده إليهما:

_ خذا نفسين من هذه السيجارة يدفئانكما.

حدجته ببصرها دون أن تشعر بمن أفلت نفسه من بين ذراعيها وفضوله يرجوها السماح له بالتجربة؛ لعله يدفأ مثلهم، لكنها أبت!

_ لا، أنت تعلم أننا لا ندخن.

تعجب منها الفتى وقال:

_ ستمرضان من البرد إذَنْ.

لم تجبه، هي لا تعلم بما تجيبه، لكنها تعلم وتذكر جيدًا كلمات أمها عن التدخين.

أشاحت ببصرها عنه فوقعت عيناها على أحدهم.

_ نعم لا مفر.

***

_ أمتأكد أنت أنهم لن يبقونا لديهم عنوة وأننا سنذهب ونعود برغبتنا؟

سألته بتوتر فأجابها بملل:

_ أخبرتك عدة مرات أنني أفعل هذا كل فترة وكثير منا يأتي إلى هنا ويعود.

ثم التفت إلى سمكة بنفاذ صبر مستطردًا:

_ أخبريها يا سمكة.

ابتسمت سمكة من قلقها وقالت:

_ لا تقلقي رزان، أنا أتيت إلى هنا من قبل وعدت ثانية.

أومأت إليها رزان برأسها بالموافقة وما زال القلق يحتل وجدانها فقال نمس:

_ حسنًا، دوري انتهى هنا، ادخلوا أنتم.

التفتت إليه رزان بقلق فجذبتها سمكة من يدها قائلة:

_ لا بأس يا نمس، هيا رزان هيا يوسف لندخل.

***

مكان نظيف بسيط مرتب به ألعاب وشاشة تلفاز وبعض العاملات والموظفات يبدو عليهن الجفاء والرتابة لا البشاشة كمن قابلتهن من المتطوعتان بالجمعيات الأخرى بالشارع والمسجد، استقبلتهم إحدى العاملات بروتينية كممثل مل من دوره في مسرحية تعاد كل يوم.

ـ هل إذا أقمنا معكم سيتم تفريقنا أنا وأخي؟

سألت رزان إحدى المختصات بالجمعية، تعلم إجابته لكنها تمنت أن يكون الجواب مخالفًا لما تظن.

ـ نعم ستفترقان، لكن ذلك خير لكما من الشارع.

أومأت لها بملل، حاولت المختصة سؤالها عن قصتها فما كان منها إلا الصمت فتدخلت سمكة وقصت لها قصة من خيالها، حدث من قصة زميل لها يحاك بمهارة مع حدث آخر من رواية زميلة أخرى على حدث من هنا وآخر من هناك، هكذا كانت قصصهم دائمًا هي من نسج خيالهم لكنها من قلب واقعهم.

جالوا مع المختصة بالمكان، عرضت عليهم ثيابًا نظيفة لكنها غير منمقة ولا أنيقة، لا بأس هم لا يعيشون بقصور يتنافسون على لقب ملوك وملكات الأناقة. طلبوا منها الدخول إلى دورة المياه وأن يستحموا وبالفعل دخلت سمكة إلى إحدى دورات المياه وأصرت رزان أن تنتظر يوسف يدخل أولًا ثم تدخل هي.

ـ هيا يوسف، ادخل أنت أولًا وأنا سأنتظرك هنا نادني إذا احتجت مني إلى مساعدة.

هما اعتادا ألا يرى أحدهما عورة الآخر لكن أمه قد علمته كيف يدلك ما استطاع من جسده ثم يواري عورته بشيء وينادي تدلك ظهره وما لا يستطيع تدليكه فهو ما زال صغيرًا ويحتاج إلى بعض المساعدة، وكذلك ستفعل رزانته. دخلت معه كي تشجعه.

ـ يا إلهي!

مياه ساخنة ودش، ليفة استحمام وصابون معطر، نعم ليس كحمام بيتهما لكنه نعيم وجنة للمحروم منه.

ما هذا أيضًا؟ مشط ودهان شعر! لقد نسيا كيف يكون التمشيط فرزان تجمع شعرها المشعث وتضمه إلى الكعكة بأعلى رأسها. ويوسف يكفيه أن تخلل

رزان أصابعها بين خصلات شعره تصفه صفوفًا منتظمة.

_ ما هذا؟ أهذه أنا؟

تتحسس وجهها وشعرها، بعد أن وقع بصرها على انعكاسها بالمرآة.

_ لقد أصبحت طفلة شوارع حقًّا وتصبغت بشكلهم، وملابسي!

ترقرقت العبرات من عينيها تشكو ما ألم بحال صاحبتها، قلق يوسف عليها فسألها:

_ ما بك رزانتي؟ لماذا تبكين؟

نظرت إليه كأنها تراه لأول مرة، تفرست فيه جيدًا وجهه وملابسه وشعره المشعث!

أفاقت حينما رأت بعيني يوسف الخوف والقلق، مسحت العبرات عن وجهها، وقالت:

_ أنا بخير، هيا سأجهز لك ماء الدش على الدافئ كما كانت تفعل أمنا أتريدني أن أنتظرك بالخارج وتنادي علي حينما تحتاجني أم أنتظرك هنا وأستدير.

باغتها هاتفًا:

_ لا، انتظريني بالخارج لكن لا تبتعدي، ابقي ملاصقة للباب حتى تسمعيني.

أومأت إليه برأسها وأعدت له الماء والثياب ثم خرجت.

أخذوا حمامهم بهناء، تهندموا وتأنقوا وخرجوا ينظرون إلى بعضهم البعض، نظرت رزان إلى أخيها طال شعره لكنه أصبح كسابق عهده نظيفًا مهندمًا، هو أيضًا ينظر إليها بإعجاب حتى لو لم ترتد ثيابًا أنيقة تراها عيناه بكامل رونقها، ابتسمت سمكة فقد تذكرت كيف كانا أول لقاء لهم وهما أبديا إعجابهما بحلتها الجديدة وطلتها. وكما أخبرتهما سمكة قبل دخولهما المكان، قالت للمختصة قبل رحيلهم بأنهم سيفكرون بالأمر ومضوا.

❋❋❋

_ لماذا اشتريتِ هذه الأشياء رزانتي؟

سألها يوسف بطريق عودتها فقد اشترت مشطًا ودهان شعر وصابونًا ذا رائحة عطرة.

نظرت إليه مطولًا بوجه مبتسم فعقد ما بين حاجبيه مستفهمًا فأجابته:

_ لا أريد لهذه الوسامة أن تصبح رثة.

مسح على شعره بيديه ثم مررها على ثيابه هاتفًا بمرح:

_ حقًّا حقًّا؟ هل أبدو وسيمًا؟

أجابته بمرح مقابل:

_ حقًّا حقًّا، هل هناك من هو أوسم منك؟

ارتمى بحضنها يعانقها، قلب يبث محبته بقلب يلاصقه. فرح بكلماتها، وكيف لا يسعد القلب بكلمات المحبين؟ وهل يرى الجمال إلا عيون المحبين؟

***

_ عندي لك خبر سار يا هارون.

صاح بها حسام على الهاتف، فسأله هارون باستبشار:

_ خيرًا إن شاء الله؟ بشرني.

ابتسم حسام وأجابه:

_ هاتفني شريف منذ قليل.

قاطعه هارون بلهفة هاتفًا:

_ حقًّا؟ أخبرني سريعًا ماذا قال لك؟ أعلم مكان أخيه؟ هل سيأتي بالطفلين؟

ابتسامة حزينة ارتسمت على ثغر حسام من لهفته على الطفلين وأجابه:

_ أخبرني.

_ لقد حصلت على رقم هاتف أخي الجديد، أتريدني أن أهاتفه أنا لأخبره أم أنتم من يهاتفه؟

سألته بلهفة:

_ وكيف حصلت عليه؟

فأجابني:

_ قابلت قريبًا لأمي رحمها الله كان في زيارة أهله فهو يعمل بالغردقة جاءت سيرة أخي فأخبرني أنه هاتفه منذ حوالي أربعة أشهر يسأله عن كيفية الحياة بالغردقة وهل تنجح الاستثمارات بها وأسئلة من هذا القبيل.

ثم استطرد شريف:

_ يبدو أنه كان يبحث عن مكان يصلح لاستثمار أمواله وحمدًا لله حصلت منه على رقم هاتفه.

ثم أكمل حسام بتهكم:

_ وبالطبع لم تنتهِ المحادثة دون مقابل ولو كان محتمل، بعدما أخبرته أننا سنهاتفه نحن، وإذا لم يجب علينا فسنخبره أن يهاتفه هو فأجابني: بالطبع أنا في خدمتكم، نحن عائلة واحدة واليوم أساعدكم وغدًا تساعدونني. لا أعلم، أحسست من صوته بنبرة طامعة في شيء ما.

ابتسم هارون بتهكم قائلًا:

_ من شابه أخاه فما ظلم.

❋❋❋

الفصل التاسع

«اظهر وبان»

_ السلام عليكم، كيف حالك يا زوج أختي؟

هتف بها هارون بتهكم على الهاتف؛ صمت ساد من صدمته؛ كيف عرف رقم هاتفه؟ هتف هارون ثانية:

_ مرحبًا هل أنت معي؟

همحم وقال متلجلجًا:

_ أنا معك، لكن من معي؟

متهربًا متصنعًا الجهل، رفع هارون حاجبه متعجبًا من مكره، لكن لا بأس يتصنع الجهالة إذَنْ أتصنع البراءة والتصديق:

_ أنا هارون؛ أخو رحمة يا... زوج أختي رحمها الله.

تصنع للمفاجأة والترحيب باحتفاء:

_ حقًّا هارون أخي، أهذا أنت؟ أجئت في إجازتك السنوية؟ لكن هذا ليس رقم جوالك.

باغته هارون يناوره:

_ نعم، هذا رقم هاتفي الجديد الدائم فقد استقريت بمصر وأنهيت أعمالي بالخارج.

من المؤكد أنه قد علم بما فعله بطفليه وتركه لهما مع طليقته، لا بأس برمي طُعْمٍ كي يخرج هارون ما بجعبته فربما يستطيع استغلاله في صالحه.

_ فعلتها أخيرًا، حسنًا فعلت.

هل إذا سبه بأبشع الألفاظ سيكتب آثمًا؟! كظم هارون غيظه قائلًا:

_ حمدًا لله، لكنني أريد لقاءك كي أنهي أمر ميراث رحمة، فقد كانت شريكة لي من الباطن في أحد المشروعات، هلا أتيت كي نتحدث بهذا الأمر؟ ثم استطرد:

_ وبالطبع تحضر الطفلين معك فقد أوحشانا كثيرًا.

فرح وتراقص قلبه وأقام حفلًا راقصًا داخل صدره لكن ما إن سمع جملته الأخيرة صدم أو ربما صعق!

الطفلان؟! أليسا معهم؟ ألم يصلوا إلى طليقته أو تصل إليهم هي وتسلمهم الطفلين؟! أم أنها خدعة منهم كي ينتقموا من تركه إياهما لدى طليقته وهجرهما؟

_ ماذا تقول يا أخي؟ أليس الطفلان معكم؟

سأله بريبة وقلب وجل، لا من أجل طفليه بل من خوفه من بطش أخي زوجه وفقده ميراثه، هذه المرة الصدمة كانت من نصيب هارون؛ شخص بصره وهاج عقله يكاد ينفجر برأسه.

_ ماذا تقول أنت؟ أليس الطفلان معك؟ هكذا قالت طليقتك أيها الحقير؟

ازدرد زوج أخته ريقه ثم أوقفه مراوغًا متصنع المزاح ضاحكًا:

_ أمزح معك أخي نعم هما معي لكنني الآن في عملي، عندما أعود إلى البيت سأجعلهما يهاتفانك.

تجمدت الكلمات على لسانه، أهذا مزاح؟ مزاح سخيف كصاحبه لكنه لا يصدقه ولا يصدق مزاحه.

_ إذا كانا معك فلماذا لم يهاتفا جدتهما طوال هذا الوقت؟ ولماذا أخذتهما ورحلت دون إخبار أمي بمكانكم؟

يا إلهي! كيف يخرج من هذا المأزق؟ لا بأس لن يغلبه:

ـ هاتفي سرق مني في أثناء السفر من الإسماعيلية إلى بورسعيد وضاع مني رقم جدتهما.

ثم استطرد متهربًا:

ـ أنا في العمل الآن في المساء سأجعلهما يتحدثان إليكما.

خبيث ماكر لكن كذبته هذه المرة لا تمر بعقل طفل صغير:

ـ وهل ضاع من عقلك عنوانها كي تزوروها وتطمئن عليهما بدلًا من فزعها وقلقها هكذا؟ ثم هل يجلسان وحدهما بالبيت طوال اليوم هكذا؟

تبًّا ألن تنتهي هذه المراوغة؟ ألن يستطيع خداعه؟

ـ بالطبع كنت أنوي ذلك لكن كنت أنتظر حتى تستقر الأمور لدي ولدى الطفلين في مدرستهما الجديدة، وهما ليسا وحدهما بالبيت قد استأجرت لهما مربية.

حسنًا لا بد من المباغتة وتضييق الحصار:

ـ أين أنت زوج أختي وأين تعمل؟

لا هذا يكفي لا بد من إنهاء هذه المناورة:

ـ سأخبرك بكل شيء حين نلتقي، اعذرني الآن يجب أن أنهي المكالمة.

لم ينتظر الإجابة وأغلق. نظر هارون إلى الهاتف متعجبًا وما زال الوجل يسكن قلبه.

ـ حسنًا أيها الـ.. سترى.

***

أجرى اتصالًا هاتفيًّا آخر بمحامي العائلة يخبره بما حدث وبما يريبه حتى يتخذ الإجراءات القانونية ويبلغ شرطة الأطفال لإهماله الطفلين وفقدهما فأجابه:

ـ حسنًا أرسل إليَّ رقم هاتفه وسأقوم بما يجب لكن ليس هناك دليل على فقدهما حتى الآن كي أقدمه للشرطة.

هكذا أخبره المحامي لكن هارون قال باندفاع:

_ أي دليـل وهو يسـألني أليس الطفـلان معكم؟ أتظنه كان ممازحًا حقًّا أم تظنني غبيًّا؟

حاول المحامي تهدئته قائلًا:

_ ليس الأمر هكذا لكن إذا قدمنا بلاغًا بفقدهما ثم ظهرا بعد ذلك فهذا قد يضعف موقفنا فلنهدأ قليلًا وننتظر ونصبر حتى موعد جلسة حضانة الطفلين لجدتهما وإذا لم يطمئنك على الطفلين في خلال اليوم فقط اتصل بي مساءً وسأحاول التصرف.

***

_ من الطارق؟

_ أنا طليقك.

قالها متهكمًا فشـهقت متعجبة، ما الذي ذكره بها وماذا يريد منها؟ أيكون قد عاد من أجل الطفلين؟ شـهقت ثانية من خوفها، ثم قالت في نفسـها تبثها قوة، أنت لم تفعلي شيئًا هو من تركهما وتخلى عنهما.

فتحت الباب برأس عاليًا، ونظرات ثاقبة وكلمات واثقة هتفت:

_ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

دفعها بيده إلى الداخل ودلف عنوة هاتفًا:

_ أين طفلاي؟

ضحكت منه مقهقهة متهكمة وهتفت:

_ طفلاك! تركتهما وتخليت عنهما الآن تذكرت أنهما طفلاك؟ حسنًا طفلاك قد أخذتهما معك وطلقتني.

صعق من كلماتها، حسنًا فليس إبليس وحده من يفسد فشياطينه قد تعلمت منـه. أمسـكها بقوة مـن ذراعها حتـى أوجعها فتألمـت متأوهة، أتـت أمها على

صوتها وحاولت إفلات ذراع ابنتها من يده لكنها لم تستطع. فصاح بابنتها:

_ أتظنينني أبله؟ أين الطفلان أيتها الـ..؟

ضحكت منه رغم تألمها وقالت متهكمة:

_ حسنًا سأخبرك أيها الأب الحنون، طفلاك ألقيتهما في الشارع فابحث عنهما، إذا وجدت الإبرة في كومة القش ستجدهما.

صاح بها صافعًا إياها على وجهها صفعة أوقعتها أرضًا وأسالت الدم من أنفها:

_ ماذا تقولين أيتها الـ..؟ ماذا فعلت؟

هرعت إليها أمها صائحة به:

_ وماذا كنت تريدها أن تفعل أيها الحقير؟ ألم تتخلَّ عنها وتطلقها بعد أسبوعين من زواجكما وتترك لها الطفلين؟ أتريدها هي أن تربيهما لك وتنفق عليهما بعد أن تخليت أنت عنها وعنهما، يا لوقاحتك!

صرخ بها:

_ ولماذا لم تأخذيهما إلى الشرطة لتبحث لتصل إلى جدتهما؟

هنا وصرخت به طليقته هذه المرة:

_ ولِمَ لا أحرق قلبك عليهما مثلما أحرقت قلبي بطلاقي غيابيًّا؟ هل تخيلت صدمتي لحظة أن أتاني ذاك الموظف يريد توقيعي باستلام ورقة طلاقي؟

نعم، هو من بدل خطته بغتة من العمل ببورسعيد إلى الإسكندرية؛ كان قد أتى إلى بورسعيد بداية للاستثمار واستأجر شقة صديق له بعقد صوري وتعرف إليها حيث كانت تسكن بعد طلاقها الأول مع أمها بالشقة المقابلة فتزوجها لتحمل عنه هم الطفلين. حتى تعرف على أحد المستثمرين من الإسكندرية واتفقا على المشاركة والعمل هناك. لم يرد حملًا فوق رأسه فطلقها وترك الطفلين ورائه فمؤكد أنها ستبحث عن جدة الطفلين وتسلمهما لهما. لكنها لم تكن أقل

منه جحودًا وانتقامًا.

جذبها من شعرها هاتفًا:

_ سآخذك إلى قسم الشرطة لأبلغ عنك هذا هو الحل الأمثل.

دفعته بعيدًا عنها بكل ما أوتيت من قوة، جذبتها أمها تأويها بين ذراعيها فهتفت ساخرة:

_ وماذا ستخبرهم؟ أنك تركتهما لطليقتك بعد أن طلقتها دون علمها؟

_ حسنًا فلتفعل، وأنا سأقول ما قلته لك ولجدتها:

_ لقد أخذهما معه ثم طلقني. وشهادتك أمام شهادتي، ومعي شهودي أمي وأخوتي.

حسنًا هنا واستسلم إبليس رافعًا رايته البيضاء أمام الشيطانة تلميذته، يبدو أنه معلم ماهر وهي تلميذة نجيبة.

لم يستطع المواجهة أكثر، قبض يده يكتم غيظه ونظر إليها بأعين جاحظة ثم تركهما ومضى.

***

جلسة سمر لرفقاء الشارع، رفيق جديد وفد إليهم. صبح فتى يبدو في الرابعة عشرة من عمره يضحك ويمرح مع الجميع كأنه معتاد على الأمر. يقص قصته عليهم، ليست بالجديدة بل مكررة عليهم.

_ كنت أجمع باليوم ثلاثمائة جنيه، أنام وأستيقظ أجد النقود بجانبي وضعها الناس رأفة بحالي.

كانت سمكة تستمع إليه بكل حواسها وفضولها يساورها فسألته:

_ كيف ذلك؟ ألم تكونوا تنامون جميعًا بمكان التجمع الخاص بكم مثلنا هكذا؟

ضحك منها رغم ما دنس من براءتها ما زالت تحمل بعضًا منها ثم قال:

_ كل بلدة ولها نظامها، في بعض البلدات لا يوجد قائد كما هو الحال هنا،

كل يشحذ لنفسه ويعيش وحده وينام بأي مكان حديقة أو أمام المحلات أو ربما بمحطة القطار.

اتسعت عيناها بإعجاب وانبهار

_ تعمل لصالح نفسك لا يجبرك أحدهم أن تعطيه نسبته من حصيلة عملك! يا لها من سعادة تجني الكثير والكثير من المال.

فهمها وفهم نظرتها فأردف:

_ لكن هناك بعض المساوئ، في كل منطقة بلطجي بأي وقت يوقفك ليأخذ ما معك، وإذا أبيت فسلاحه بيده؛ إما أموالك وإما حياتك أو على الأقل إصابتك.

شهقت رزان وكذلك يوسفها ما زالا لم يعتادا هذا السوء والفزع

استطرد في حديثه قائلًا:

_ أي أنه لا فارق كبير بين هنا وهناك سوى بالمسميات، هنا معلم يأخذ حصته مقابل حمايتك وهناك بلطجي يأخذ ما معك مقابل أن يدعك تحيا.

سأله صبي آخر:

_ هل هذا أول يوم لك بالقاهرة؟ تبدو كمن ألفها منذ فترة.

ابتسم فرحًا بغرور ولد من انبهار بأعين ما زالت في بداية الطريق، طريق السقوط في بئر عميق لا يرى غورًا له ولا نورًا، ثم أجابه:

_ أنا هنا منذ أيام، لكنني كنت بمنطقة أخرى قائدها تاجر كبير للمخدرات؛ كان يجعلنا نبيعها ونوزعها لصالحه، لم يكن يبخل علينا ببعض مما نبيعه كمكافأة لنا وضبط دماغنا، كي أكون صريحًا معكم خفت؛ أنا كنت أتناول المخدرات سابقًا ليس اعتيادًا لكن في بعض الأحيان كنت أسرقها من أبي الذي كان يدمنها.

أخبرت المعلم أنني لن أبيعها ثانية لأنني أعلم جيدًا عقاب بيعها قانونًا، بل

وإنني أكرهها فبسببها طلق أبي أمي، أخبرته أنني سأعمل في إحدى أماكن ركن السيارات أو أتسول وأعطيه حصته لكنه أبى وعاقبني بحرق يدي وحلق شعر رأسي بطريقة مشوهة وسخر مني قائلًا:

_ هكذا سيرق قلب الناس لك ويعطونك بسخاء، ولن تعصي أمري وستبيع حصتك من المخدرات بل وزيادة.

بالطبع وافقت خوفًا منه، لكن في الليلة التالية حين أمن لاستسلامي تسللت خلسة من بين زملائي وفررت من المنطقة بأكملها وأتيت إلى هنا.

استكمل الأطفال حديثهم معه في ليلة تبدو مليئة بالحكايات والسمر.

نظرت رزان إلى أخيها ثم انسحبا من الجلسة وذهبا بعيدًا عنهم لينامان، لكن يبدو أن النوم قد جافاهما الليلة، تنهدت فاقترب منها صغيرها:

_ أيجافيك النوم أنت أيضًا؟

أومأ إليها برأسه فابتسمت بحنان:

_ ما رأيك أن أقص عليك قصة؟

ابتسم إليها وهتف بمرح وفرح:

_ قصة نبي الله يوسف؟

ضحكت منه وقالت بمرح:

_ ألم تمل من سماعها؟ سأقص عليك حكاية أخرى.

أومأ برأسه بالرفض وضم شفتيه بغضب طفولي وقال:

_ لا بل ستقصين عليَّ قصة نبي الله يوسف الذي اسمي مثل اسمه.

ضحكت منه ومسدت بيدها الحنون على شعره وقالت:

_ حسنًا لك ما تريد. يحكى أن...

تاها في عالمهما وتلك العينان لم تشيحا عنهما، أبدًا ما تاهت عنهما وما زاغت.

❋ ❋ ❋

ماذا يفعل؟ ها قد حل المساء ولم يصل إلى شيء، هل ضاع منه باقي ميراث رحمة؟

قالها ببرود ممازحًا هارون الذي هتف بلهفة:

_ أوصلني بالطفلين أريد أن أتحدث إليهما.

تلجلج قليلًا ثم كعادته الكذب يجري على لسانه قال:

_ سامحني يا أخي فهما نائمان الآن، تعلم شقاوة الأطفال طوال اليوم ثم ينامان من التعب.

نفد جل صبره عند هذه النقطة صاح به صارخًا:

_ أتظنني طفلًا صغيرًا تخدعه، أين الطفلان أيها الكذاب؟ صدقني إذا لم أجدهما عندي بعد ساعات لن تفلت مني أيها الحقير.

تصنع العصبية والغضب من حديث هارون وهتف:

_ هل جننت؟ إنهما طفلاي أتريد أخذهما مني؟

صاح فيه هارون بغضب:

_ قضية الحضانة مسألة وقت ويتم الحكم فيها لأمي، ثم ماذا يثبت لي أنهما معك أسمعني صوتهما على الأقل.

إلى هنا وبحر كذبه توقف عن المد لم يجد حجة، حسنًا فلينه الأمر:

_ لن أسمعك صوتهما، هما طفلاي ولن يأخذهما مني أحد.

وأغلق الهاتف دون أن يسمع ردًّا.

احمر وجه هارون غضبًا تكاد الدماء تنفجر من رأسه وعينيه. أجرى اتصالًا آخر وقبل أن يرد سلام مجيبه:

_ افعل ما اتفقنا عليه.

❋❋❋

_ يوسف رزان اختبئا سريعًا الشرطة في المكان

هتف بها فجر مهرولًا فجريا معه هما الاثنان أيضًا ليختبئوا بأحد الشوارع الجانبية يراقبون من بعيد ما يحدث لكن مهلًا ما هذا؟

الشرطة تحاوط إحدى سيارات الأجرة وتخرج منها السائق ومن هذه؟ يا ربي! إنها العبيطة ورضيعها زميلتهم بالشارع لماذا يلقون القبض عليهم ولماذا كانت تركب مع هذا السائق؟

ذهبت الشرطة بهم مع ذهول رزان ويوسف ومعهما فجر سألت رزان شاخصة ببصرها:

_ لماذا قبضوا عليها وعلى طفلها؟

أجابها فجر شاردًا:

_ لا أعلم لكن حتمًا سنعلم الآن تعاليا نخرج إلى الطريق العام.

خرجوا وكانت الناس ما زالت متجمعة كل يدلي بدلوه يتلو شهادته التي ربما هي محض خيال من تأليف راويها الذي جمع بعض المشاهد بعينيه وبعض الكلمات التي التقطتها أذناه، أتت زهرة من بعيد بأعين تائهة متحجرة بدموعها تحتضن طفلها دنت منهم لما رأتهم وقالت بصوت مختنق:

_ أرأيتم؟ لقد أخذوها لقد حذرتها تلك البلهاء ظنت أنها هكذا ترتاح من حمل طفلها

نظروا إليها بعدم فهم فسألها فجر:

_ ماذا تقصدين؟

أجابته وقد أبت تلك الدمعات إلا أن تسقط:

_ أخبرتني بالأمس أن أحدهم جاءها يعرض عليها:

_ أهذا طفلك؟

فأجابته:

_ نعم.

ابتسم لها بخبث بعد أن تفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها وقال:

_ ما رأيك أن يربى في بيت عز وسط أناس يربونه أفضل تربية؟

اتسعت عيناها بعدم فهم ثم قالت:

_ ماذا تقصد؟

فأجابها بذات الابتسامة الخبيثة على وجهه:

_ سآخذه منك وأعطيه لأناس يكون ابنهما ويصبحان أبويه ويصرفان عليه ويتعلم في مدارس خاصة ويعيش في قصر وترتاحين أنت من حمله وأيضًا تأخذين بعض المال لتحصلي على ما تريدين.

عقدت ما بين حاجبيها ثم أجابته:

_ دعني أفكر في الأمر.

_ سآتي هنا في الغد في نفس الموعد وسأكون جاهزًا في انتظارك.

هذا ما قصته علي تلك البلهاء بالأمس لكنني حذرتها منه هي فقط أرادت أن يعيش طفلها عيشة هنيئة وترتاح هي أيضًا من مسؤوليته وها هو ذاك المخادع قد سمعت الشرطة يتحدثون بأنهم كانوا يراقبونه وأنه يعمل مع تجار الأطفال والأعضاء البشرية وكان سيبيع الطفل لصالحهم واتهموها أنها شريكة لهم في تلك التجارة البشعة.

فاغري الفاه مشفقون على الفتاة كان الجميع ينادونها بالعبيطة ساخرين منها متنمرين فتاة لديها تأخر عقلي وجدت نفسها أمًّا دون أب لطفلها ككثير من فتيات الشارع حسنًا هي لم تعد الآن فتاة شارع يا لهنائها ستصبح نزيلة سجن! سجينة وسط غيرها من السجينات كل لها تهمتها لكنها كانت وستظل بينهن البلهاء! في عالم لا يحمل بقلبه رحمة يتلذذ بالسخرية والتهكم على ضعفائه.

***

أنهى الاتصال وجلس واضعًا رأسه بين كفيه يكاد رأسه ينفجر فقد صدق ظنه في زوج أخته لكن الأمر هكذا أصبح كارثيًا إذا لم يكن الطفلان معه فأين هما؟ أخبرته أمه أن طليقته كانت متلجلجة متوترة كأنها تخفي شيئًا لكن ماذا قد تخفي ولماذا؟

_ أمي! حمدًا لله أنني لم أخبرها أنني توصلت إليه وأنني آثرت الصمت حتى أحضر إليها الطفلين لكنني لم أصل إليهما.

قالها في نفسه ثم زفر بضيق من زوج أخته حقًّا لا يعلم كيف كانت تحتمله؟ علم من مريم ما أخبرتهم به جارتها لكنه لم يفهم لماذا انتظرت عودته ولم تخبره في حينها، كان سيغفر لها خطأها ربما بعض اللوم والعتاب كي تتصافى القلوب والألباب، كان سيترك كل شيء ويأتي من أجلها.

***

يفترش الأرض وأطفاله الثلاثة بإحدى الحدائق على الطريق يشبهونهما ويشبهون ساكني الشوارع يتخذون مخلفات الصناديق الكرتونية فراشهم، الكلاب تنام بجوارهم كأفراد أسرتهم المشردة يبدو أن أحدهم قد عطف عليهم وتصدق بوسادة تريح رؤوسهم الشاردة وغطاء يدفئ أجسادهم لكن من يدفئ برد قلوبهم؟!

نظرا إلى الرجل بتفحص أيمكن أن يكون خاطفًا لهؤلاء الأطفال من أهلهم؟ لكن لا يبدو عليه ذلك بل يبدو كأب حنون على أطفاله وهم أيضًا يلتصقون به يستمدون من محيطه الأمان يلتحفون بعطفه وحنانه

ظلا شاردين ينظران إليهم حتى وقعت أعينهما على أعين طفلين منهم ينظران إلى ما بيديهما يا إلهي! إنهما يحملان كيسين بلاستيكيين بهما شطائر كي يتناولاهم قبل نومهما.

نظرت رزان إلى صغيرها نظرتهما التي تغني عن جلسة اجتماع ومشورة لساعات مطولة. اقتربا منهم مبتسمان برقة:

_ السلام عليكم.

نظر الأطفال إليهما ثم اقتربوا من أبيهما بترقب حاوط الأب أطفاله بذراعيه مطمئنًا.

نظرا إلى بعضهما بابتسامة حزينة فهما لم يحظيا يومًا بحضن أبيهما ولم يشعرا بأمانه بل هو من تخلى عنهما وتركهما لذئاب تعيث في الشارع تنهش كل فريسة شاردة مشردة ولضباع تنتظر ما يتبقى من بواقي لحم الفريسة وعظامها بعد أن شبعت الذئاب وامتلأت بطونها؟!

استطردت رزان:

_ كيف حالك أيها العم؟ أنا رزان وهذا أخي يوسف.

ثم مدت يدها بكيس الطعام الذي بيدها واستبقى يوسف ما معه ليشاطره معها وقالت:

_ هذه بعض الشطائر هلا قبلتها منا كي يتناول الصغار طعامهم.

نظر الرجل إلى أطفاله الذين ينظرون إلى ما في الكيسين باشتهاء وجوع ورغبة يزدردون ريقهم ثم التفت إلى رزان يومئ لها بالموافقة والقهر يكسو وجهه، أخذ منها الكيس وشكرهما ثم قدمه لأطفاله الذين فرحوا وأخذوا يلتهمون الطعام بنهم.

وبالطبع أحدهم لم يستطع كبت فضوله فسأله:

_ لماذا أنتم بالشارع؟ أليس لديكم بيت لتسكنوا فيه؟

وجم وجه الرجل وبدا عليه الحزن وقبل أن يجيب همست رزان لأخيها بصوتها الذي كعادتها تظنه همسًا:

_ يوسف ماذا تفعل؟ لا نتدخل بأمور الكبار هو ليس مثلنا هو كبير ولا ينبغي أن نسأله عما ليس من شأننا.

وكعادته يجادلها:

_ أنا لا أتدخل بأمره أنا أسأله فقط .

تكلمت من بين أسنانها كاظمة غيظها تضرب الأرض برجلها:

_ وسؤالك هذا أليس تدخلًا؟

أومأ برأسه ببراءة وقال:

_ كلا بالطبع.

أدارت رأسها بعيدًا تزفر ثم استغفرت ربها ومسحت بكفيها الرقيقين وجهها، التفتت تكمل حوارها معه فرأت الجميع ينظر إليهما الأطفال يتابعون بعدم فهم والأب يبتسم منهما ابتسامة حزينة ارتسمت على ثغره رغمًا عنه. نظرت بالأرض خجلًا ثم قالت بتلعثم:

_ سنذهب الآن حتى لا نتأخر.

يبدو أنه لم ينتبه سوى الآن سألهما الأب:

_ ماذا تفعلان وحدكما بالشارع بالليل هكذا؟

خدع بمظهرهما! فملابس الجمعية مازالت نظيفة يحافظان عليها وشعرهما منمق فكيف أن يعرف أنهما طفلا شارع؟

تلعثمت رزان وأخفضت بصرها بخزي قالت:

_ نحن نسكن بالشارع أيضًا لكن مع زملائنا تحت حماية المعلم سرحان.

دهش الرجل ثم تنهد بحزن لأجلهما وقال:

_ وما الذي ألقى بكما في الشارع هكذا؟

زمت شفتيها بخزي ثم قالت هاربة:

_ فلنكمل حديثنا غدًا حتى لا نتأخر ونتأذى، جذبت يد أخيها ومضيا والأب شارد في أثرهما، يا لهذه الدنيا! كم من نقي طاهر يلقى في غور بئر مليء بالأفاعي! وكم من أفاعي خبيثة تسكن قصورًا فارهة!

***

ـ بشرني هل من جديد بأمر الطفلين ووالدهما؟ مرت أيام وقد أغلق هاتفه.

قالها هارون بلهفة فارتسمت على ثغر المحامي بسمة أمل وقال:

ـ يبدو أنه بالفعل أوقف خطه لكنني تواصلت مع أحدهم في شرطة الاتصالات وعلمنا أن آخر مكالمة أجراها كانت من محافظة الإسكندرية وقمت ببعض التحريات والبحث عن طريق الإنترنت وعلمت مكان شركته التي أسسها حديثًا مع شريك له.

هتف هارون فرحًا:

ـ يا بشرى أعطني العنوان سريعًا.

باغته المحامي قائلًا:

ـ لكن بشرط ألا تتصرف تصرفًا أهوج.

زفر هارون بفراغ صبر قائلًا:

ـ رغم استحقاقه العقاب لكنني لن أفعل فقط أريد الطفلين بين يدي.

ابتسم منه المحامي قائلًا:

ـ حسنًا، العنوان هو ...

***

ـ كيف يمكنني مساعدتك سيد هارون؟

سأله شريك أبي الطفلين بحيطة بعد أن عرفه بنفسه، فقد أفهمه أبوهما كم أن هارون مخادع متجبر، أجابه هارون محاولًا الهدوء:

ـ أريدك أن توصلني بزوج أختي.

ـ لا أعرف مكانه.

هكذا أجابه ببرود مصطنع، حسنًا لن ينفعل يجب أن يتريث عله يستطيع إفادته، ابتسم هارون بهدوء مفتعل وقال:

ـ استمع إلي سيد عادل أعلم جيدًا أنك تعلم مكانه فهو شريكك

ثم استطرد بصوت مختنق وعينين اتخذهما الحزن مسكنًا:

_ نحن فقط نريد طفلينا. أخبرني بالله عليك كيف سيرعاهما وهو كان بشهادة الجيران يهملهما وأمهما في حياتها.

وأكمل محاولًا استعطاف قلب الأب بداخله:

_ جدتهما تأكل نيران الفقد قلبها تكاد تهلكه، ألا يكفيها فقدها صغيرتها روح قلبها؟ تكاد تجن من قلقها على حفيديها مهجة قلبها.

صدم! نعم صدم عادل فأبوهما أخبره أنهم كاذبون وأن الطفلين بحوزتهم لكنه، لكنه يشعر بصدقه وبألم قلبه وحرقته على طفلي أخته، لماذا لا يشعر بهذه الحرقة من شريكه بل يراه بارد القلب فاقدًا لشعور الوحشة والاشتياق لصغيريه؟

_ صدقني لا أعلم مكانه.

هو بالفعل لم يخبره بمكانه بعد أن ترك شقته هربًا مما هو متوقع.

_ ألا تعرف رقم هاتفه؟ لقد أوقف رقمه الذي معي.

سأله بعينين مرتابتين محاصرتين له علها تستخرج منه اعترافًا يسعد قلبه. أشاح الشريك بوجهه لا يستطيع الخيانة نعم رق قلبه له لكن الحكمة والرزانة يجب أن يكونا رفيقي الحيطة حاليًا.

فهم هارون أنه يتكتم فلم يستطع الصمود أمام انفجار بركان غضبه الذي ثار صرخ فيه قائلًا:

_ أتتخذاننا لعبة بين أيديكما أنت وشريكك؟ أخبرني كيف أصل إليه وإلى الطفلين وإلا..

انتفض الشريك واقفًا وصاح بغضب مقاطعًا إياه:

_ هل أتيت لتهددني بشركتي؟ سأستدعي لك رجال الأمن!

سخر منه هارون مستهزئًا وقال بصوت كالفحيح:

_ استمع إلي جيدًا أخبر شريكك هذا أنه إذا لم يأتني بالطفلين في أقرب وقت، بل إن لم يأتني بهما اليوم لن أدعه إلا وهو في السجن.

أخرج من جيبه ورقة هاتفًا:

_ قد قدمنا بلاغًا باختفائهما هذه صورته. وشركتكما هذه سأجعل الخسائر تنهال عليها من كل صوب.

ثم أخرج من جيبه بطاقة بها أرقام هاتفه ووضعها على مكتبه وقال:

_ هذه أرقام هاتفي، إذا بدلت رأيك وعاد إليك ضميرك.

ثم استدار وذهب غاضبًا.

***

_ هل حدث شيء؟

سأل أبو الطفلين شريكه بعدما هاتفه _ يعلم أن هارون سيصل إليه فلديه علاقات بمن يستطيعون مساعدته، لذلك احتاط وابتعد حتى يدبر أمره _ فأجابه:

_ أتى خال الطفلين يبحث عنك وأخبرته بما اتفقنا عليه لكنه سأل عن الطفلين ويقول أنك تخفيهما عنهم.

تلجلج الأب قليلًا ثم قال مراوغًا كاذبًا:

_ هذا افتراءٌ منه لأنني حصلت على ميراثي بقوة القانون بعد أن منعوه عني في البداية هددوني بحرماني من رؤية طفلي، أنا ما تركت طفلاي لهم إلا خشية أن أقصر في حقهما ورعايتهما بعد أن طلقت زوجتي التي ما تزوجتها إلا لأجلهما وطلقتها حينما أهملت في حقهما لكن ماذا أقول في الغدر والخيانة؟ ها هم الآن يبتزونني للتنازل عن ميراثي أو حرماني من طفليَّ أبدًا.

ثم استطرد بحزن مفتعل:

_ لكنني لن أتخلى عن طفلي وسأبحث عنهما بكل مكان وبذات الوقت

لن أتخلى عن حقي بميراث زوجتي رحمها الله التي كانوا يعاملونها بازدراء لأنها طالبت بميراثها بعد موت أبيها فأخذتها وسافرنا إلى الإسماعيلية.

تأثر عادل قليلًا لكنه انتبه قائلًا:

_ لكن ...

***

أنهى عادل مهاتفة أبي الطفلين فما زادته المحادثة سوى دعمًا لشكه بشريكه، ما الذي يجب عليه فعله؟ هارون كان غاضبًا عصبيًّا لكنه أبدًا لم يبد عليه ما قال فيه شريكه، عادل ليس بالساذج؛ يستطيع معرفة حقيقة من يراه دون أن يخدع بمظهره وأدائه، ربما حينما تعرف بشريكه ضلله ظاهره الخلوق الطاهر لكن بمرور الأيام شعر ببعض مكره لكن أيمكن أن يكون أبوهما قد خدعه بالفعل وصدق خالهما؟ لغز اختفاء الطفلين يحيره أين هما إذَنْ؟ لا بد من التأكد بنفسه.

***

وقع بصرها على تلك الفتاة الصغيرة كتكوتة زميلتهم لماذا تبكي هكذا وتجلس بعيدًا عن رفقائها الذين اعتادت معهم اللعب والمرح والتدخين؟

_ يوسف انظر إلى نملة إنها تبكي وحيدة تعال معي نرى ما حل بها؟

قالتها وهي تشير بسبابتها تجاهها رق قلبها لحالها. أفاقته من شروده فقال:

_ لا، اذهبي أنت وأنا سأنتظرك هنا.

نظرت إليه بتعجب إنها المرة الأولى التي يأبى أن يذهب معها ويخبرها أن تمضي وحدها هو دائمًا يخاف أن يفترق عنها.

_ ماذا؟ أتريدني أن أذهب وحدي دونك؟

أومأ إليها برأسه اتسعت حدقتاها متعجبة.

_ لا يا يوسف لن أتركك وحدك، ستأتي معي.

أومأ إليها برأسه يمنة ويسارًا رافضًا مردفًا باستعطاف:

_ تعبت من السير طوال اليوم وأريد الراحة قليلًا رزانتي.

نظرت إليه بيأس ثم التفتت إلى زملائهم من الأطفال الذين يدخنون ويشتمون ما يشتمونه ثم عادت إليه ببصرها محذرة:

_ يوسف، تبقى هنا، لا تتحرك ولا تذهب إلى أي مكان، ولا تجلس معهم حتى أعود.

ابتسم إليها موافقًا:

_ بالطبع رزانتي.

***

_ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته سيد هارون.

***

_ ماذا هنالك فجر؟ لماذا تصيح به هكذا؟

قالتها بصوت متهدج من الهرولة فزعًا حينما سمعت فجر يعنفه.

نظر إليه محدجًا بغضب ولم يجب، ترقرقت عينا يوسف بدموعها اقتربت رزان منه تضع يديها على كتفيه تحاوطه مؤازرة نظر بخزي إليها ثم نكس رأسه عقدت ما بين حاجبيها وقالت بحنان:

_ ماذا هنالك يا يوسف؟ أخبرني لا تخف.

لم يستطع الجواب فالتفتت إلى فجر تزأر بغضب:

_ ماذا حدث؟ وماذا فعلت به؟

لم يجبها ظل نظره معلقًا بيوسف التفتت إلى يوسف ثانية فلمحت ما يسقط من يده المخبأة خلفه يا إلهي! سيجارة!

شهقت واتسعت حدقتاها واحمرت شرايينها غضبًا:

_ يوسف! أكنت تدخن؟

صرخت به تهزه تؤدب صغيرها أضاع ما علمته إياه هباءً، أأصبحا بالفعل

مثلهم؟

_ كيف تفعل هذا يوسف؟ ألم أخبرك أن هذا يضرك؟ ألم تقسم بالله ألا تفعلها أبدًا؟

يبكي ويبكي وتعلو شهقاته ويزداد عويلها لا يستطيع رفع عينيه في عينيها يتعرق رغم برودة الجو مختنقًا.

_ لماذا كل ذلك رزان؟ هو لم يجرم هو فقط اشتمَّ شمة واحدة من الكُلَّة ودخن سيجارة ألا يحق له التجربة؟ أسيظل طفلًا صغيرًا مدللًا ابن أمه؟

ثم استطرد متهكمًا:

_ أقصد ابن أخته؟

هكذا تحدث نمس فقد مل من هذا المشهد المبالغ في مأساويته. كادت عيناها تخرج من مقلتيها من الذهول أيوسف صغيرها يفعل هكذا؟ جذبته من وسط الجمع المشين وذهبت به بعيدًا، ازداد نحيبه وعويلها تلومه وتلوم نفسها أن تركته، ذهبت تواسي أخرى تبكي شجارها مع زميلتها وتركت صغيرها لصغار الشياطين يعبثون برأسه.

_ لا تخاطبني أبدًا ما حييت هل سمعت؟

هكذا هو عقابها له بل عقابها لنفسها وهل هو إلا نفْسُها ونفَسُها؟ تصرفت كما يتصرف الأطفال؛ ستخاصمه أوليس هذا أشد عقاب من طفل لمثله؟

جلس يضم ساقيه بذراعيه، يدس رأسه المطأطئة من الخزي بينهما، يبكي معنفًا نفسه بشهقات مستجدية عطف أمه الصغيرة لعلها ترقق قلبها، تركته وجلست بعيدًا عنه بأشبار، بالفعل رق قلبها، لكن عقلها ما زال صلبًا مرت دقائق والحال ذاته، رفع رأسه بتريث يراقبها بعينيه، هل لانت وهدأت، أم ما زال الغضب يملؤها؟

تقابلت أعينهما، عينان تلومان معاتبتين وأخريان نادمتان متوسلتان، أشاحت برأسها بحدة عنه تنظر في الاتجاه الآخر، اقترب منها متزحزحًا حتى

التصق بها ابتعدت عنه شبرًا فاقترب هو.

ظلا هكذا حتى أمسك بذراعها يحتضنه وعاد لنحيبه معتذرًا:

_ آسف، والله لن أعيدها لن أفعلها ثانية

لم تنته نظرات اللوم والعتاب ولا الغضب، وكذلك نظرات الندم والاعتذار والترجي

مسحت دموعها بأناملها الرقيقة وقالت بحدة:

_ قلت لك ألا تحدثني ما حييت.

زاد نحيبه وقال مترجيًا من بين شهقاته:

_ والله لن أفعلها ثانية، سامحيني رزانتي.

وكيف لا يلين قلبها مهما احتله الغضب؟

_ لقد أقسمت ووعدتني يوسف.

قالتها هذه المرة بلين معاتبة أخفض رأسه وبصره وشاركت شهقاته كلماته:

_ آسف لن تتكرر.

تنهدت بحزن لكنها لن تمنعه مسامحتها له وغفرانها وهل كان قلب الأم إلا للمغفرة؟

أومأت برأسها وقالت وما زال الحزن يرتسم على ملامحها:

_ حسنًا سأسامحك، ولكن على ألا تعيدها أبدًا.

أومأ برأسه فرحًا وارتمى يعانقها ويقول:

_ لن أفعلها أبدًا أبدًا ما حييت، صدقيني.

فرح بعفوها عنه لكنه وعد بشيء لا ضمان له وكيف يضمن ألا يعود إلى فعلته وجل من حوله يفعلها؟ وهل يمكن لثمرة طازجة صحيحة وضعت بصندوق للثمرات الفاسدة ألا تتعفن؟

أخرجته من حضنها تبتسم له بثغرها دون عينيها وكعادتها مسحت دموعه بيديها ثم قالت:

ـ حسنًا، هيا لننم، تصبح على خير.

فسألها ببراءة:

ـ ألن تقصي عليَّ قصة قبل النوم؟

الفصل العاشر

«ليس كل والد أب»

ـ السلام عليكم أيها العم، كيف حالكم؟

قالتها رزان تحيي ذاك الرجل وأطفاله الذين رأياهم بالأمس يبيتون بالشارع، لكنه كان واجمًا تعسًا، يتمتم بكلمات غاضبة يلملم أشياءه القليلة المبعثرة.

رد عليها السلام دون أن ينظر إليها، تعجبت وتبادلت النظرات مع أخيها رافعة حاجبيها ثم سألته:

ـ هل أنت بخير أيها العم؟

رفع رأسه إلى السماء مغمضًا عينيه بماذا يجيبها؟ حاول منع دموع القهر التي تحارب للسقوط، فهل هناك أصعب من قهر الرجال؟ أيسهل على رجل ناضج أن يخبر طفلة أن زوجته أم أطفاله فرت من ضيق العيش وتركتهم له، وأنه بالفعل قد رضي وحاوطهم بين أضلعه، يكفيه أن يجمع الزجاج من هنا وهناك يبيعه من أجل لقمة تسد جوع أطفاله هو لا يطمع بأكثر من ذلك يكفي أن له بيتًا يسترهم ويؤويهم؟

أم يخبرها أن الله قدر أن يحترق البيت المصنوع من الخشب بكل ما فيه فسكن الشارع بأطفاله؟

قلقا من صمته أغاضب هو منهما؟ تبادلا النظرات ثم سألته رزان:

ـ هل حدث شيء أغضبك أيها العم؟

تنهد بشدة يخرج إعصار الألم الذي يحرق ذاك النابض بصدره، ثم أجابها

بصوت منهك من الحزن والقهر:

_ أتى بعض الأفراد التابعين لإحدى الجهات المهتمة بالأطفال والكبار بلا مأوى يريدون أخذنا للإقامة بإحدى هذه الدور المختصة بمن لا مأوى لهم، لكنهم يريدون تفريقي عن أطفالي وحينما رفضت اتصلوا بشرطة الأطفال؛ أي أنني أصبحت مطاردًا.

استطرد العم قائلًا:

_ ما بالهم؟! ألا يكفي ما أصابنا من هم وتشريد؟ بدلًا من أن يساعدونا بتوفير بيت يؤوينا يريدون تفريقنا يريدون حرماني من أطفالي وحرمانهم مني هل يوجد أب في هذا الكون يستطيع فراق أطفاله؟!

قالها وأصابتهما الكلمة في مقتل، لم يدرِ أن أمامه طفلين تركهما أبوهما بملء إرادته. لم يفهما جل ما قاله وقصه ولم يهتم هو، كان يحدث نفسه بصوت عال ربما يجد صدى يرد إليه بجواب.

سألته رزان بحزن لما شعرت منه بحزنه:

_ ولماذا تلملم أشياءك هكذا؟ أسترحلون عن هنا؟

فأجابها:

_ نعم أخاف أن تأتي شرطة الأطفال هنا وتأخذهم مني ونفترق.

نظرا إليهم بحزن بدا جليًّا عليهما واستأذنا ليذهبا وقد ظلل الهم وجهيهما.

***

_ كيف حالكما أيها الصغيران؟

قاطع فجر جريهما خلف بعضهما يلعبان بعيدًا عن زملائهم الذين يدخنون بمكان تجمعهم الجديد بإحدى الحدائق البعيدة المهجورة يقتنصون من الحياة بعض اللحظات يعودون بها إلى عالمهما حيث لا غم فيه ولا هم.

نظر إليه يوسف بغيظ فهو من تسبب في كشف رزان لِفعلته. أجابته رزان:

_ حمدًا لله.

نظر إلى يوسف الذي قطب حاجبيه وزم شفتيه غضبًا منه، ثم أشاح بوجهه عنه فسأله متهكمًا:

_ ما بك يوسفها؟ أرى أن عقابك قد انتهى فلماذا أنت غاضب مني هكذا؟

أجابه يوسف وما زال الغضب يسكن ملامح وجهه:

_ لأنك السبب في غضب رزان مني ولأنك...

لم يكمل جملته، ود أن يقول لأنك أوقفتني عن التجربة لكنه خاف غضب رزان فقال فجر:

_ لماذا توقفت يوسفها؟ أتريد أن تقول لأنني أوقفتك عن التدخين وشم الكُلَّة واستغلالك غياب أختك عنك.

اشتعل به الغضب واحمر وجهه وهتف:

_ وماذا في ذلك؟ الجميع يفعلها.

يبدو أن غضبه قد أنساه وجود أخته ووعده إياها هتفت فيه غاضبة:

_ يوسف، ألم أخبرك أن هذا يضرك ويؤذيك؟

هم بأن يجيبها فتدخل فجر قائلًا بهدوء:

_ ليس لك شأن بالجميع طالما يفعلون السوء، أنت ترى بعينيك كم يسعلون بشدة، وأنت نفسك كنت تسعل حين جربت، البعض منهم أصابته البلاهة والبلادة من استمرار فعلهم هذا، أتعلم كيف يصبح حالهم إذا لم يتناولوا هذا السم؟ إنهم يمرضون ويصابون بالوهن وربما الجنون. أخبرني إذا صاحبتهم وفعلت مثلهم ثم مرضت هل سيذهبون بك إلى المشفى؟ بل سيفرون منك ويبتعدون عنك كقط مشاكس كان يسلي أصحابه ويمطرونه دلالًا ولعبًا وحينما مرض ألقوه بالشارع يتلقى مصيره بالموت إن لم يكن من المرض فهو من الجوع.

ما زالت نظرات رزان الغاضبة تخترق حصون شجاعته أخفض بصره قائلًا:

ـ فقط كنت أريد التجربة، أردت أن أعرف ما شعورهم.

أجابه فجر بابتسامة حزينة:

ـ بعض التجارب قد تؤذينا وعلينا أن نسمع كلام من هم أكبر منا وأعلم. صدقني هذه الأشياء ليست حلوة ولا ممتعة.

رفعت رزان حاجبيها وضيق يوسف عينيه يسأله:

ـ وكيف علمت ذلك؟ هل جربتها؟

ضحك فجر منه ثم أجابه:

ـ ربما، وربما.

كعادته معها غامض محير نظرا إلى بعضهما بتعجب فاستطرد بمرح محاولًا تغيير حالة الغضب والتعجب هذه مشاكسًا يوسف:

ـ بعض الفضول يقتل صاحبه يا فضولي.

يا إلهي كم استفزه! صاح به يزم شفتيه ويضرب بقدمه الأرض:

ـ لا تقل فضولي هذه! أنا لست فضوليًا!

ضحك منه فجر وقال بمشاكسة:

ـ بل أنت فضولي يا فضولي.

قالها وهو يشعث شعر يوسف بيديه فاغتاظ يوسف منه يبعد يديه فقال له بمرح يغنى:

ـ مرة في حينا زارنا طفل صغير ذهب يخوض التجربة لأنه فضولي كبير.. يوسف الصغير فضولي كبير يوسف الصغير فضولي كبير.

قالها وهو يجرى مازحًا فجرى يوسف خلفه محاولًا إمساكه وانقلبت المشاجرة إلى لعبة طفولية جميلة انضم إليها لاعب جديد لاعب استطاعت البراءة اختراق حصنه المحاط بالكثير والكثير من الغموض تعالت الضحكات والقهقهة منهما ورزان تضحك من مشاكستهما. وكذلك لم تبتعد تلك الأعين

عن ضحكاتهما تراقبهما دون أن يلاحظا أو يشعرا.

***

بمقعده بالطائرة شاردًا فيما حدث في خلال أيام قليلة.

_ ألا لعنة الله عليك يا هارون، تبًّا لك كل شيء كان يسير على ما يرام حتى جئت أنت.

قالها أبو الطفلين في نفسه بعد أن اضطر إلى السفر إلى الخارج متذكرًا ما حدث:

_ لكن هناك أمرًا ما لا أفهمه ...

وقبل أن يكمل عادل باغته أبو الطفلين هاتفًا:

_ هل صدقته؟ إنه كاذب.

قاطعه عادل:

_ لكنه أراني أوراق محضر الشرطة باختفاء الطفلين وأقوال طليقتك.

تلعثم أبو الطفلين وسأله بتوتر وقلق حاول إخفاءهما بالمراوغة وسأله:

_ هل أخبرته عن مكاني؟

عقد الشريك جبينه وقال بحدة:

_ وهل أعلم مكانك؟

هو لم يخبره بمكانه الجديد كيف له أن يسأل سؤالًا غبيًّا كهذا؟ حسنًا يجب عليه الهدوء وتصنع اللا مبالاة والرزانة، عاد إلى حديثه لكن هذه المرة بهدوء وبرود متصنع قال:

_ اعذرني أقصد هل أعطيته رقم هاتفي الجديد؟

زفر عادل بضيق وقال:

_ بالطبع لم أفعل لكن كيف يقدم بلاغًا كهذا إذا كان الطفلان بين أيديهم وأنا لم أرهما معك أبدًا؟ وأخبرني أن طليقتك أخبرت الشرطة وأخبرتهم أنك

أخذت الطفلين معك أنا لا أفهم شيئًا.

أما لهذا الحصار أن ينتهي؟! تنهد الأب بألم متصنع قائلًا:

_ ألم أخبرك أنهم ثلة من الخبثاء؛ لا بد أنهم قد دفعوا الكثير من الأموال لطليقتي كي تشهد زورًا وبهتانًا، وأنهم قد قاموا بإخفاء الطفلين ليحاصروني إما التنازل وإما السجن.

سأله الشريك بصوت تائه:

_ وماذا ستفعل الآن؟

أجابه بذات الهدوء المفتعل:

_ لا شيء سأتحدث إلى المحامي، ومؤكد سأتخذ جميع الإجراءات القانونية.

أنهى المكالمة وقد شعر بريبة شريكه فيه، حسنًا قد ضاق الخناق عليه ليس بيده حيلة؛ فطليقته قد ألقت بالطفلين في يم ثائر ومضت وإذا ألقى بأصابع الاتهام عليها فهي معها من شهود الزور ما يدحض روايته وإذا لم تحضر شهودًا فهل سيدعه هارون هكذا؟ لا بد أنه سيقاضيه لإهماله في حق طفليه وتخليه عنهما وإذا لم يواجهه وانتظر حتى موعد الحكم بحضانة الطفلين لجدتهما فسيحكم عليه بعدها بالسجن لعدم تنفيذ حكم المحكمة وتسليمهما لها هكذا أخبره محاميه. إذَنْ لا سبيل سوى الفرار!

غادر البلاد بعد أن باع نصيبه وبيته لأحد رجال الأعمال الذين تعرف عليهم مؤخرًا.

***

في الطريق طفل يبدو أنه في السابعة من عمره يمد يده يشحذ منهما، من هذا؟ هذا ليس من زملائهما أيعقل أنه جديد بالشارع؟ أيمكن أن يحدث له ما حدث لهما؟

أعطته رزان قطعة حلوى وهي تسأله:

_ أأنت جديد بالشارع؟ لم أرك معنا من قبل؟

_ ماذا تقصدين بمعكم؟

سألها مستفهمًا فأجابته وهي تطرق برأسها وتلعب بأصابعها:

_ نحن أطفال الشوارع بهذه المنطقة تحت حماية المعلم سرحان.

فهم مقصدها لكنه تعجب من مظهرهما المهندم.

_ لا أنا لست جديدًا بالشارع ولست تحت حماية أي معلم.

نظرا إلى بعضهما متعجبين ثم سألته:

_ كيف ذلك؟ إذا بقيت وحدك هكذا ستتأذى.

ضحك من سذاجتها وقال:

_ أنا أعمل بالشارع مع أسرتي أمي وأبي وأخوتي، نجوب الشوارع تسولًا ثم نعود إلى بيتنا ليلًا.

دهشت ولم تتفوه ببنت شفة، مضى الطفل في سبيله وتركهما في دهشتهما لم يستفيقا سوى على كلمات صبح:

_ هو وإخوته ثروة والديهما.

انتفضا يلتفتان إليه فزعين فهما لم يشعرا بوجوده ثم سألته رزان:

_ لا أفهم ما تقصد.

فأردف صبح:

_ والداه يتسولان ويكسبان أموالًا وينجبان أطفالًا يعلمانهم التسول ليشحذوا هم أيضًا ويكسبوا أموالًا، فيأخذان ما يكسبه أطفالهم ويضعونه مع ما كسباه ويصبح لديهما أموال طائلة، وكلما ازداد عدد أطفالهما كلما ازادت ثروتهما أي أن أطفالهما كنز لهما وهم مشروعهما الاستثماري الناجح.

❋❋❋

_ السلام عليكم سيد عادل، أنا آتٍ إليك بالطريق لا تقلق على موعدنا إن شاء الله

هتف بها هارون بلهفة فرحًا، فقد اتفق مع عادل أن يهاتف زوج أخته يحدد معه موعدًا لمقابلته ومناقشة بعض الأمور، وبالفعل اتفق معه على يوم بعد غد، وها هو أتى اليوم ويكاد يطير قلب هارون فرحًا إلى المقابلة التي أعداها كمينًا له. لم يعلما أن ذاك الماكر الخبيث ليس بالهين. أجابه عادل بضيق متلعثمًا:

_ ذاك الشقي لن يأتي.

تجمد وجهه وكذلك كادت تفعل دقات قلبه، نطق لسانه مستفهمًا بعد أن أوقف سيارته:

_ ماذا؟ كيف ذلك؟ هل شعر منك بشيء؟

أجابه عادل بحزن وصوت محتنق:

_ لم يحادثني بعدها، فقط وجدت أحد معارفنا من رجال الأعمال يدخل علي مكتبي قبل قليل يخبرني أن أبا الطفلين باعه بالأمس نصيبه من الشركة وأخبره ألا يأتي إلي ليخبرني إلا وهو على متن الطائرة مسافرًا وحين سألته:

_ كيف حدث ذلك؟

فأخبرني أنه قص عليه بأعين تحجرت الأدمع بمقلتيها من الحزن وألم بادٍ على وجهه وصوته ما قصه عليَّ من قبل وخدعه قائلًا:

_ الوحوش معدومو الرحمة أرسلوهما خارج البلاد وأنا لا أحتمل فراقهما لذلك سأسافر لأبحث عنهما، لا تخبر أحدًا حتى أخبرك لا أريد أن يعلم أهل زوجتي ويتسببوا بمنعي من السفر.

ذاك الماكر الخبيث خدعنا وتظاهر بالموافقة والجهل بما يحدث وهو يماطلنا حتى يفر بفعلته، لكن لا أفهم كيف علم بالأمر؟

لم يجبه هارون فقد سكنت الغصة بحلقه واحتلت قلبه هل سافر؟ هل

هرب؟ هل أخذ الطفلين معه أم هما ليسا معه من الأصل؟

أخرج الكلمات من حلقه بحرب ضروس ثم أجابه:

_ هو يعلم جيدًا أنني لن أدعه، مؤكد أنه سأل محاميًا وأخبره بعاقبة الأمر خاصة وأن الحكم بحضانة الطفلين لصالح أمي قد اقترب فخاف أن يسجن لعدم تنفيذ الحكم وهذا ما يخيفني ويؤكد ظني هو لم يبالِ يومًا بطفليه بشهادة جارتهم فلماذا هو مستمسك هكذا بعدم تسليمهما لأمي؟ إلا إذا..

فهم عادل مقصده وصاعقة آلمت قلبه أيمكن ذلك بالفعل؟ أنه فقد الطفلين، هو ذهب لسكنه يسأل حارس البناية السكنية وجيرانه هل رأوا يومًا طفليه معه؟ فأجابوه:

_ ألديه أطفال؟ لم نر معه أي طفل مذ أتى إلى هنا.

فأرسل إلى صديق له بالقاهرة:

_ أريد منك خدمة أريدك أن تتحرى عن..

وأخبره ليبحث الأمر عن طريق عنوان الشركة الذي بالبطاقة التي تركها له هارون، لم يخذله الصديق وبالفعل ذهب إلى الشركة، وببعض الحيلة سأل عن هارون وعلم عنوان بيته، سأل حارس البناية والجيران عن الطفلين ثم هاتفه وأكد له ما أخبره هارون به.

لم يعلم عادل ماذا يقول كي يهون عليه؟ لكنه قال:

_ إن شاء الله سيكونان بخير.

***

هاتف هارون المحامي عله يطمئنه ويدله، صمت المحامي هنيهة ثم أخبره:

_ مع الأسف لا يمكننا الآن سوى الانتظار حتى صدور الحكم بحضانة الأطفال لجدتهما ثم عمل جنحة ضده بعدم تسليم الطفلين لجدتهما، وبعد صدور الحكم والإجراءات وقتها يمكنني التواصل مع الشرطة لإصدار أمر تتبع بحقه؟

ثم استطرد قائلًا:

_ لكن هناك أمر ما يجب أن تعلمه؛ للأسف الحكم عليه لعدم تسليم الطفلين إلى الجدة الحاضنة ربما يستغرق عامًا وإجراءات تنفيذ الحكم ربما تستغرق عامين هذا غير أن هذا النوع من الأحكام _ أحكام قضايا الأسرة _ لا يتم الاهتمام بها كثيرًا وقد لا يتم تسليم المتهم في وقت قصير هذا إذا تم تسليمه. على كل سأفعل ما بوسعي والله المستعان.

هذا ما أخبره به المحامي وهذا ما زاد قلقه وقلة حيلته، لو أنه يعلم أين سافر ربما حينها يمكنه السفر والبحث عنه لكن كيف؟ يكاد يفقد عقله من العجز، وآه من العجز؛ أن تكون بكامل قواك لكن لا حيلة لك، أن ترى بأم عينيك أملك يتبخر دون استطاعتك الإمساك والتمسك به ما كان العجز يومًا عجز جسد بل عجز روح فقدت حولها وقوتها.

***

_ مبارك عليكم حضانة الطفلين قد صدر الحكم أخيرًا.

قالها المحامي مهاتفًا هارون مبشرًا فما كان من هارون إلا أن ارتسمت على ثغره ابتسامة حزينة ثم تنهد قائلًا:

_ وماذا نفعل بالحكم إذا لم نستطع تنفيذه؟ فها هو ذاك الحقير قد فر من البلاد منذ ثلاثة أشهر دون أن نعلم وجهته.

أجابه المحامي بحزن وتعاطف وقال:

_ لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، جمع الله عليكم ضالتكم.

أمَّن هارون على دعائه ثم سأله المحامي:

_ ألم يأتكم أخوه بخبر عنه؟

أومأ هارون برأسه نافيًا وقال:

_ لا، لم يخبرنا بجديد.

أنهى هارون المكالمة وهو يعود بذاكرته إلى يوم معرفته بسفر زوج أخته.

حسنًا هذا وقت التعقل والهدوء والتفكير جيدًا، هدأ من أنفاسه، ثم قال بنفسه بروية:

_ لا بأس يمكنني التواصل مع أخيه، يتواصل مع أخته ربما ذهب إليها لكن يبقى الأمر الأهم هل سافر الطفلان معه؟

_ وعليكم السلام سيد شريف.

قالها هارون متهكمًا بحزن، تعجب شريف من الرقم غير المسجل على هاتفه فسأله:

_ من معي؟

أجابه هارون بضيق وملل:

_ أنا هارون نسيب أخيك.

تهلل شريف مرحبًا فرحًا يكاد يقفز داخل الهاتف ليصافحه:

_ أهلًا أهلًا سيد هارون، كم أسعدتني مكالمتك، أفضل نسب أنتم لمن هو محظوظ بنسبكم.

_ نعم، محظوظ هو من يناسبنا ومتعوسون هم من يناسبونكم، ثمرات فاسدة لبذور فاسدة غرت الناظرين بنضارة ظاهرها حتى اشتروها وذاقوا عفن قلبها.

هكذا حدث هارون نفسه ثم لملم شتات عقله قائلًا بمجاملة مرهقة لروحه:

_ أعلم أننا أثقلنا عليك وأننا مدينون لك بمعروف لكن لي طلب عندك وبالطبع لك ما تريد مقابله.

فهمهما فهما من نفس الصنف والري النكِد؛ لا يقدمان خدمة سوى طمعًا في خير.

أجابه بترحاب:

_ كيف تقول ذلك يا أخي هارون، نحن عائلة واحدة لا فرق بيننا، أليس كذلك؟

يا إلهي! الكلمة ذاتها أخي هارون كم كرهها كم لها من معنى جميل، لكنها خرجت من منطق نجس.

_ أريد منك التواصل مع أختك وسؤالها هل ذهب أخوك إليها أو إلى الدولة حيث هي وهل الطفلان معه؟ أنا فقط أريد أن أتحدث معه وجهًا لوجه لنحل الخلافات بيننا ويرد إلينا طفلينا وبالطبع لن أنسى معروفك هذا.

_ ماذا؟ هل سافر أخي؟ كيف يفعل هذا؟ كيف يأخذ الطفلين منكما ويسافر بهما؟

_ تعلم أن حضانة الطفلين لصالح أمي قانونًا فهل ستساعدنا أم أنني قد أخطأت العنوان؟

باندفاع غير محسوب من قلب طامع أجابه:

_ بالطبع لم تخطئ، أعطني وقتًا حتى أنهي ساعات عملي وأعود إلى بيتي كي أهاتف أختي بهدوء بعيد عن ضوضاء العمل.

تنهد هارون بتعب ثم قال:

_ حسنًا لا بأس لكن لا تتأخر عليَّ.

أجابه شريف:

_ جمع الله شملكم، أعلم جيدًا شعوركم وهل لدى الإنسان أغلى من أبنائه؟ فقدت أختك والآن تفقد طفليها، أنا أيضًا أكبر أولادي في أول عام دراسي له بجامعة القاهرة عندكم، كم أفتقده وأفتقد وجوده بجواري، يعمل ويحمل عني عبء مصروفاته لكنه الآن يدرس بمحافظة أخرى وازدادت مصروفاته وأصبحت عبئًا علينا مصروفات دراسة وسفر وسكن ومصروفات شخصية.

حسنًا هو ذكي ويعلم أن هذه الكلمات خلفها مطلب ابتسم بتهكم منتظرًا إياه أن يفصح عن ما يريد فاستطرد شريف:

_ كنت أفكر لو تستطيع إيجاد عمل له بجانب دراسته عله يرفع عن كاهلي بعض الحمل.

هكذا الأمر إذَنْ كما توقع، أليس هو وأخاه من دم ورحم واحد؟

_ بالطبع هذا أمر هين أخبره أن يهاتفني وأمره محلول بالقريب العاجل.

فرح شريف وشكره بشدة. ساعات قليلة وكان هاتف هارون يدق باسم شريف:

_ هو ليس هناك عند أختي لكنها أخبرتني أنه هاتفها منذ يومين وأخبرها أنه سيأتي لزيارتها قريبًا.

تجهم وجه هارون فقد تبخر أمله مرة أخرى زفر زفرة ينفث بها ذاك الهم ثم قال:

_ حسنًا يا سيد شريف، أشكرك كثيرًا وبالطبع لا تنسى أن تكون على تواصل مع أختك وتخبرني عندما يذهب إليها أو إذا علمت عنه شيئًا.

***

أنهى قراءة الآية ثم التفت إليهما بوجه بشوش سائلًا:

_ أتريدان شيئًا أيها الصغيران؟

أفاقت من شرودها على سؤاله، كانت تمر بجوار دكان بيع الحلوى الذي كان يجلس أمامه، سمعت منه ما ذكرها بأمها أجابته خجلى:

_ لا نريد شيئًا.

ثم استطردت:

_ هل هذه سورة الكهف؛ أعني التي كنت تقرؤها؟

قطب حاجبيه متعجبًا، ثم أجابها مستفهمًا:

ـ نعم هي، لكن كيف علمت؟

هو رآها من قبل تتسول فكيف عرفت ما كان يقرأ؟ أجابته بصوت يغشاه الحزن:

ـ كنت أسمع أمي تقرأها كل يوم جمعة، وهي أخبرتني باسمها وقصتها.

دهش الشاب وسألها:

ـ بارك الله فيها وفيكما، لكن أين أمك؟

صمتت لكن مذيع نشرات الأخبار الصغير يوسف أجابه:

ـ أمنا ماتت رحمها الله.

نظرت إليه رزان بعينين متسعتين؛ أعاد إلى طبعه الذي ظنت أنه قد نسيه؟ نظر إليها ببلاهة ثم أدرك ما فعل، فاتسعت عيناه بصدمة وفغر فاه، لم يجد ما يقوله فزاغ بصره بعيدًا عن عينيها هاربًا، كزت على أسنانها وقالت بصوت تظنه همسًا:

ـ هل عدت ثانية تخبر الناس ما يخصنا؟

أخفض بصره ورأسه أرضًا قائلًا:

ـ آسف، نسيت.

ابتسم الشاب من براءتهما ثم تذكر ما قاله يوسف فقال:

ـ رحم الله أمكما لكن أين أبوكما؟ أليس لكما أهل أو أقارب؟

وضع يوسف كفيه فوق بعضهما على فمه ينظر إلى رزان يومئ برأسه لن يفعلها أبدًا. كتم الشاب ضحكته ثم التفت إلى رزان لعلها تجيبه لكنها أمسكت يد أخيها واستأذنت للذهاب ومضت فاستوقفهما الشاب:

ـ انتظرا.

فالتفتا إليه متعجبين ماذا يريد منهما؟ ابتسم لهما قائلًا:

ـ لم تخبراني ما اسمكما؟

نظر إليها يوسف منتظرًا إذنًا لانطلاق لسانه بالإجابة نظرت إلى الشاب مطولًا، ثم أجابته بعد تفكير:

ـ أنا رزان وهذا يوسف.

ابتسم لهما وقال:

ـ وأنا سراج، انتظرا هنا دقيقة.

دخل إلى الدكان وتركهما متعجبين ثم خرج يحمل كيسًا بلاستيكيًّا ممتلئًا بالحلوى، ثم مد يده به إليهما.

شكرته رزان خجلة متعففة قائلة:

ـ أشكرك يا عم سراج، لا نريد، حينما نرغب سنشتري ثم إن هذا كثير.

أجابها بابتسامته الهادئة ذاتها:

ـ ليس كثيرًا عليكما، كلا ما تريدان وبيعا ما يتبقى منها.

قطبت رزان حاجبيها يبيعان ما يتبقى! بعض زملائها يبيعون المناديل أو فلنقل يشحذون بها فهل يمكنها بيع هذه الحلوى؟!

ـ هيا يا فتاة، أمسكي بها.

قالها سراج بمرح مخرجًا إياها من شرودها. أخذته منه باستحياء وشكرته ثم جذبت يد أخيها ومضت.

***

ـ وعليكم السلام أخي هارون، لدي مفاجأة ستسعدك.

قالها شريف مهاتفًا هارون فأجابه بلهفة:

ـ بشرني يا سيد شريف هل من خبر عن أخيك والطفلين؟

أجابه شريف بفخر من حل لغز جريمة غامضة:

ـ أجل، أخي سافر لأختي منذ أمس لكنها أخبرتني أن الطفلين ليسا معه وأنه لن يبقى سوى يومان فقط وسيرحل.

أخـذ منه عنـوان أخته وحجز تذكرة للسـفر بالطائرة صباح اليـوم التالي ثم ذهـب إلى بورسـعيد لكنه لم يصعـد إلى بيت طليقة أبي الطفلـين بل طرق أبواب الجيران، علم أن إحداهن من أولئك الذين يتخذون شرفتهم مرصدًا فلكيًّا لكن فلكه هو الشارع وجميع من يمر به.

ـ نعم في صباح أحد الأيام بعد أن سمعنا بطلاقهما، ذهبت ومعها الطفلان وحقيبة سفر ثم بعد ساعات عادت وحدها دونهما.

هكـذا أخبرتـه عالمة المرصـد الجيراني ممـا زاد قلقه وحيرتـه إذَنْ زوجة أبيهما كاذبة؟ لِمَ قالت أن أبوهما أخذهما معه؟ وأين ذهبت بهما؟

حسـنًا سيمضي إلى الأب ليحصل منه على النبأ اليقين ثم يرى علام سيستقر أمره.

***

ـ السلام عليكم يا عم سراج.

ألقيا عليه السلام فأجابهما بابتسامته البشوشة:

ـ وعليكما السلام أيها الصغيران، كيف حالكما؟

أجاباه بأدب:

ـ حمدًا لله يا عم.

ثم استطردت رزان:

ـ هل يمكنك إعطاؤنا بعض الحلوى كما بالأمس وسندفع لك ثمنها.

هي باعت الحلوى للمارة، وكعادتها لم تلح بل تعرضها عليهم بحيائها وأدبها ممـا جعل المـارة يدفعون لها أضعـاف ثمن الحلـوى ويأبـون أن يأخذوها لكنها كانـت تـصر، فبعضهـم كان يأخذهـا والبعض الآخـر يردها إليها مع ابتسـامة إعجـاب وود، لذا قررت ألا تشـحذ مـن الناس تمد يدها فارغـة بمذلة بل تبيع لهم وتكسب منهم بعزة وكرامة.

في بداية الأمر ظنها تشحذ منه الحلوى طامعة بعد أن أعطاها بالأمس لكن حينما أكملت جملتها سألها:

ـ وماذا ستفعلان بها؟

أجابته بعزة ممزوجة بخجل:

ـ سأبيعها للمارة.

ابتسم منها وسألها مستفهمًا متفهمًا:

ـ هل بعت ما أخذته بالأمس؟

أجابته وهي تومئ برأسها:

ـ نعم.

ابتسم لها وبدأ يجهز لها كيس الحلوى لكنه سمع رزان تردد آيات سورة المجادلة مع المقرئ حيث كان سراج مشغلًا للمذياع على إذاعة القرءان الكريم.

لم تنتبه إلى من كان يسمعها متعجبًا، جاءهما بالحلوى ثم جال ببصره عليهما وسألها بحيرة:

ـ هل تحفظين من القرآن شيئًا؟ أم كنت تسمعين أمك تقرأ سورة المجادلة أيضًا؟

أجابته قائلة:

ـ كنت أحفظ بدار لتحفيظ القرآن، حفظت أربعة أجزاء، ويوسف قصار السور من جزء عم.

نظر إليهما مشدوهًا كيف لطفلي شوارع مثلهما أن يحفظا من القرآن هكذا؟ لا يبدوان لأهل يشغلون أطفالهم في الشحاذة ولا ممن يفرون من أهلهم، يبدو من كلامهما عن أمهما أنهما يحبانها إذن فهما إما تائهان وإما مخطوفان.

ـ لم تخبراني أين أبوكما أو أهلكما؟

نظرت رزان إلى يوسف محذرة ثم سألته:

_ بكم هذى الحلوى يا عم سراج؟

فهم أنها لا تريد إجابته، أو ربما خائفة، حسنًا، لا بد أن يكسب ثقتهما أولًا كي يستطيع مساعدتهما، تنهد ثم أجابها:

_ هذه المرة هدية مني والمرة القادمة سآخذ ثمنها.

أبت وأصرت على دفع الثمن فقال لها:

_ حسنًا سآخذ ثمن الحلوى بعد أن تبيعاها ما رأيك؟

تنهدت ووافقت على مضض؛ لا تريد أن يظنها سراج أتته سائلة. همَّا بأن يذهبا لكن أوقفهما مباغتًا:

_ هل تريدان استكمال حفظ القرآن؟ يمكنني أن أحفظكما أنا أحفظ القرآن كاملًا.

التفت إليه بدهشة أيمكنها أن تستكمل حفظها؟ ابتسامة واسعة احتلت وجهها وأومأت بقلبها قبل رأسها موافقة فأخبرها بابتسامته الحانية التي لا تفارق وجهه:

_ حينما تنتهيان من بيع ما معكما تعاليا إليَّ لنبدأ.

فرحت وأي فرحة تعيدها إلى أيام مضت وولت سالبة إياها سعادتها.

***

أنهيا بيع الحلوى وعادا ثانية إلى سراج الذي استقبلهما بترحاب:

_ حمدًا لله على سلامتكما.

ثم استطرد قائلًا بمرح:

_ لا تقولا إنكما قد بعتما كل الحلوى التي معكما.

ابتسما له وأومأ يوسف مفاخرًا كطفل حصل على الدرجات النهائية باختبار المدرسة.

قال سراج مشجعًا:

_ بارك الله لكما وفيكما. إذَن اجلسا كي تحفظا.

أجابته رزان:

_ ليس الآن يا عم، فنحن لم نجمع ما يكفينا.

ثم مدت يديها ببعض المال وهي تقول له:

_ تفضل خذ ثمن الحلوى التي اشتريناها منك.

نظر إلى ما بيدها هي جمعت نقودًا ليست بالقليلة، إذَنْ لماذا تقول لم نجمع ما يكفينا؟ ما جمعته يكفي قوت يوم شابين لا طفلين.

سألها مستفهمًا:

_ ألا تكفيكما هذه النقود لقوت اليوم؟

أومأت برأسها بالنفي دون أن تتكلم. أومأ هو الآخر برأسه رافعًا حاجبيه متعجبًا، ثم أخذ منها النقود يعدها أخذ منها بعضها ورد إليها الباقي.

قطبت حاجبيها مستفهمة فما أخذه أقل بكثير مما ترك فأجابها:

_ ما أخذته هو ثمن الحلوى التي اشتريتها أنت وهذا هو ربحك.

فرحت مبتسمة:

_ حقًّا؟

أومأ إليها بنعم فقالت:

_ حسنًا، أيمكنك إعداد كيس آخر مثل السابق وحين نبيعه سنأتي إليك كي تحفظنا.

ابتسم لسعادتها ثم دخل يعد لها كيسًا آخر.

***

_ من! هارون! ما الذي جاء به إلى هنا؟ كيف عرف مكاني؟

قالها أبو الطفلين لزوج أخته بعدما أخبره بأن هارون أتى وينتظره بغرفة

الاستقبال مندهشًا من قدومه إليه ومطاردته إياه.

خرج إليه بقلب مرتجف يزدرد ريقه:

_ هارون أخي يا لها من مفاجأة!

قالها بترحاب متصنع وبرود يكاد يفتك بأعصاب هارون، لم يعد لدى هارون أي قدرة على الهدوء هتف به صارخًا:

_ أين الطفلان أيها النذل؟

انفعال متصنع وضيق وهتاف لا بد منه لن ينتظر أن يكون في وضع الدفاع بل الهجوم هو أفضل حل:

_ هل أتيت إلى هنا طائرًا لتسبني وتحاسبني على خطأ لم أقترفه وتفتري علي بهتانًا؟!

لا أحد يمكنه تحمل هذا الكم من الكذب، لا أحد يمكنه أن يشاهد أخطبوطًا يتلون بذكاء يتماهى مع ما حوله ليخدعه ويقعد مراقبًا يتحلى بالهدوء متعللًا بالصبر، أمسك بتلابيبه بقوة دفعه إلى الخلف يرطمه بالحائط مهددًا بصوت كالفحيح:

_ أقسم لك، كذبة أخرى ولن تبقى على قيد الحياة ثانية!

دخل عليهما أخته وزوجها بعدما سمعا صياحهما، حاول زوج الأخت تخليصه من بين يدي هارون لكنه لم يفلح.

تعرق وجحظت عيناه، أمسك يد هارون بقوة محاولًا نزعها عنه دون فائدة فقال مستمرًا بكذبه وغضبه المتصنع:

_ ألم تأت طليقتي إلى جدتهما بهما؟ لماذا تريدون خداعي واتهامي زورًا وبهتانًا؟

يقولون إن حرائق الغابات تحرق ما تطاله دون أن تفرق ما بين أشجار أو حيوان، كذلك كانت عينا هارون تشتعل غضبًا وقبل أن يصرخ فيه هارون استطرد:

ـ حين طلقتها تركت لها عنوان بيت الجدة، أخبرتها أن تأخذهما إليها لأنني لم أكن قد استقريت بعد في مكان.

نظر إليه يحاول استنباط أثر كلماته عليه فلم يجد غير عدم التصديق والغضب. وبصوت قهقاع دب صرخ به هارون:

ـ أيها اللعين، ألا تمل من الكذب؟ ولماذا لم توصلهما أنت بنفسك إلى جدتهما، أيها الحذق؟ أخبرني أين الطفلان قبل أن أدق عنقك؟

كاد أن يختنق بين يديه بالفعل، لكن لا خيار لديه سوى الاستمرار بالمداهنة، قال بصوت يخرج مصارعًا ذاك الاختناق:

ـ أنا لا أكذب بل أنتم، أنا لم أوصلهما بنفسي لأنني خفت وداع طفلي لم أستطع وحين هاتفتني منذ ثلاثة أشهر صدقتك وقلت ربما تكون طليقتي لم توصل الطفلين إليكم كيدًا بي حتى أعود إليها، لذلك أخبرتك أنهما معي، لكنني ذهبت إليها وأخبرتني أنها سلمت الطفلين لجدتهما.

سأله هارون بنفاد صبر:

ـ ولماذا أيها الكاذب الغبي أخبرت طليقتك أمي أنك أخذت الطفلين معك؟

حسنًا، هذا ليس وقت استسلام واعتراف، لا بد من إيجاد مخرج.

ـ أنا سألتها وقالت إنها لم تقل هذا، فلا تكذب وتراوغ أنت.

ازداد غضبه وزاد من قبضته على عنق ذاك الكذاب الأشر وهتف من بين أسنانه:

ـ وهل سآتي إلى هنا كل هذى المسافة لأراوغك وأكذب عليك أيها الفاسق؟

نعم هذا هو وقته، وقت الخداع والمكر:

ـ ماذا؟! أتقصد أنكم بالفعل لم تأخذوهما كيف ذلك؟ أيمكن أن يكون قد حدث لهما مكروه وتلك المخادعة قد خدعتنا جميعًا فقط لتنتقم مني لأنني

طلقتها؟

قالها بصدمة متصنعة ودهشة ماكرة معجونة بحزن كاذب لم ينطلِ على هارون الذي يرى الكذب بعينيه قبل كلماته، لكنه أيضًا لم يعد يصدق ما قالته طليقته كلمات الجارة مرصد الشارع تتردد بعقله.

هَمَّ باستكمال تحقيقه معه لولا أن جاء زوج أخت أبو الطفلين:

ـ تفضل أيها الشرطي.

جحظت عينا الأب وكادتا تخرجان من محجريها ما الذي قد تريده الشرطة؟

***

الفصل الحادي عشر

«أربعة وخامسهم الأمل»

_ هذا هو أيها الشرطي، هجم على صهري متعديًا عليه.

قالها زوج أخت أبو الطفلين مشيرًا إليه، تنفس أبو الطفلين الصعداء مستبشرًا.

بقسم الشرطة يتم التحقيق معه مشدوهًا مما سمع؛ ذاك الحقير ألن تنتهي أكاذيبه التي تنثال من فمه ضده؟!

التفت الحقير كي يمضي منتشيًا بنظراته الماكرة الشامتة، هم هارون لمباغتته بلكمة قاذفة، لكن أوقفه الشرطي مانعًا، ثم جذبه قائلًا:

_ سيد هارون فلتجلس هنا.

لعن ذاك المخادع في نفسه، ثم جلس أمام المحقق يخبره بعد أن هدأ قليلًا بما حدث تعاطف معه المحقق لكنه أخبره:

_ أعتذر منك لا نستطيع مساعدتك ليس بأيدينا شيء، ما دام لم يأتنا طلب بتسليمه عن طريق الإنتربول وترحيله إلى مصر.

طأطأ رأسه من الخذلان والقهر، الألم مستعر يحرق قلبه على فقدان صغيري أخته أهكذا انتهى الأمر؟!

رغم أنه تعهد بعدم التعرض له مرة أخرى لكن هذا لم يمنعه من العودة إلى بيت أخته باحثًا عنه لكنه تفاجأ بجواب زوج أخت ذاك النذل:

_ أخذ حقيبته وذهب لا أعلم إلى أين.

_ لقد كان يستعد للذهاب قبل أن تأتي المرة السابقة.

كانت هذه إجاباته على أسئلة هارون الغاضبة غير المصدقة صاح هارون مناديًا إياه بالبيت فلم يجب. خرج غاضبًا لكنه قبل أن يغادر البناية سأل حارسها الذي أكد له أنه رأى أبا الطفلين بالفعل خارجًا من البناية معه حقائبه. لكن إلى أين؟

***

ذهب وأمه مع المحامي لاتخاذ الإجراءات القانونية لرفع دعوى عدم تسليم الطفلين لجدتهما، بالطبع أخفى عنها جل ما حدث فقط قال لها:

_ هناك إجراء قانوني أمي يجب أن نتخذه، ربما يساعدنا للوصول إلى الطفلين.

ولم تتوان الجدة عن أي فعل يطمئنها عليهما، اشتد عليها المرض والوهن من قلق ينخر قلبها وأوصالها.

هذا فقط ما يستطيع فعله؟! أن يقدم بعض الأوراق ويبقى مكتوف الأيدي هكذا؟ لا هو ليس بلا حيلة بعد، لقد اتخذ طريقه إلى بورسعيد وجهة ترافقه إليها أخته، هذه المرة لن يكتفي بمرصد الشارع بل سيواجه طليقة أبي الطفلين.

_ أين ذهبت بالطفلين؟

سألها بصوت محتدٍّ وعيني صقر يترصد بفريسته، يبدو كمن علم ما تخفيه؟

اعتصار باطن كفيها لبعضهما، نظراتها الزائغة وأصابعها الحائرة المترددة بين التعبير عما يفكر به العقل أو السكون كل ذلك يؤكد له ما بعقله من ظنون.

_ لماذا لا تجيبين؟

أجابته بتلعثم:

_ لأنني ليس لدي سوى ما أخبرتكم به من قبل، فلتسألوه هو أين هما؟

نظر إليها بعينين ثاقبتين يسبر أغوارها متيقنًا من كذبها.

_ سألته وأخبرني أنه لم يأخذهما منك بل أنه ترك لك عنوان أمي لتذهبي بهما إليها.

اتسعت حدقتاها صدمة أهذا ما قاله؟ أألقى بها كالكرة بملعبهم؟ نادت أمها تستشهد بها.

_ لقد أخذهما معه ورحل.

هو كان موقنًا بكذبها لكنه الآن يراه عين اليقين حان وقت المباغتة:

_ لكن إحدى الجارات هنا رأتك والطفلين صباح أحد الأيام بعد طلاقكما ومعكم حقيبة ملابس ذهبت بهما صباحًا وعدت ظهرًا وحدك

يا إلهي! هذا ما لم تأخذه بالحسبان أهناك شهود على فعلتها؟!

هنا باغتت الأم الجميع هاتفة:

_ هذا كان يوم رحيله، أخبرها أن تجهز الطفلين وتهندمهما حتى يسافر بهما إلى جدتهما، وبعد نصف ساعة هاتف ابنتي لتوصل الطفلين إليه بأول الشارع وقد فعلت. وكان ذهابه بلا رجعة.

نظرت إليها الابنة بصدمة؛ كيف يكون عقلها حاضرًا هكذا لتأليف الأكاذيب بالتو؟

ازدردت ريقها وأكدت كلام أمها تشير بسبابتها إليها متلعثمة:

_ نعم، نعم هذا هو ما حدث بالضبط.

نظر الأخوان إلى بعضهما غير مصدقين، باغتتها مريم قائلة:

_ لكنك لم تذكري ذلك، بل قلت إنك لا تعلمين إلى أين ذهب بهما!

زفرت بضيق فقد ضاق الخناق عليها وقالت بحدة:

_ هذا ما لديَّ.

هتف هارون بانفعال:

_ حسنًا فلتقولا هذا للشرطة.

قالها وهب واقفًا لن يحتمل سيل الأكاذيب هذا أكثر، ألا يكفيه زوج أخته وخبثه؟ أكملت الأم دورها ودفاعها المستميت:

_ لا بأس، ونحن معنا من الشهود إخوتها، أتظننا لا نخاف الله ونشهد زورًا؟

تدخلت أخته في تلك اللحظة علها تستجدي عاطفة الأمومة بقلبيهما:

_ أمي تكاد تهلك أمامنا من فرط قلقها على الطفلين، لا تفتأ تذكرهما؛ كيف حالهما؟ مع من هما؟ هل يأكلان ويشربان؟ هل يتدثران جيدًا في أثناء نومهما؟ هل مرض أحدهما؟ هل هل هل ولا تنتهي تلك الهل أبدًا فقط لو تدلاننا إلى طريقهما ونعدكما ألا تتأذيا أبدًا.

اغرورقت عيناها بالدموع التي أجبرتها على التحجر شعرت بها الأم، حدجتها ببصرها، ثم قالت بحنق تنهي الحديث:

_ هذا ما حدث، وهذا ما لدينا.

هما امرأتان ولا يستطيع رفع يده عليهما ليهدأ غيظ قلبه فلديه من المروءة ما يمنعه. أمسك بيد أخته وذهب من أمامهما مندفعًا قبل أن يتهور.

خرجا من البيت بيأس لكنه لن يترك آخر خيط من الأمل.

طرق باب الجارة المرصد الفلكي الشارعي استقبلتهما بترحاب امرأة تعاني الفراغ وتريد من تلوك معه.

_ لا أستطيع، هما جارتاي لا أستطيع الشهادة ضدهما، ربما هما على حق وأنا اختلطت عليَّ الأيام.

قالتها متلعثمة يبدو عليها الخوف من الجارة اللئيمة ربما تؤذيها بلسانها أو بافتراءات تقلب حياتها. حاولا طمأنتها لكن دون جدوى، عادا إلى القاهرة برفقة اليأس والإحباط.

هاتف المحامي يخبره بما حدث:

_ مع الأسف لا شيء يمكننا فعله، نعم يمكننا عمل بلاغ باختفاء الطفلين واتهام طليقة الأب والأب، لكن مع وجود شهود الزور هؤلاء وسفر الأب، يصبح ذلك دون جدوى.

هكذا فقد آخر طرف خيط بيده. سيخرجان كالشعرة من العجين هكذا؟! تنهد بألم مغمض العينين لكنه توكل على رب الأسباب وأخبر المحامي:

_ حتى إذا لم يكن ذا فائدة فلنفعله، لا أستطيع ترك هؤلاء الحثالة يمرون بفعلتهم هكذا.

***

أمسك الجريدة يطالعها بشرود، لا يقرأ ما بها تقف عيناه ثابتة يفكر في حال طفلي أخته حتى وقعت عيناه على صورة لطفل وطفلة ذكرته برزان ويوسف.

جاءت الفكرة برأسه إعلان ورصد مكافأة لمن يعثر عليهما أو يخبر عن مكانهما بكل الجرائد، وليس هذا فقط بل عبر صفحته الشخصية على تطبيق الفيس بوك.

هي مجرد وسائل علها تكون مجدية وتنفع، خير من القعود والاستسلام والولولة.

***

رأى فيهما طهرًا لم يدنس بعد لكنه يعلم أن من يسكن الوحل لا بد أن يتسخ يخاف عليهما من البقاء فيه لكنهما لا ينطقان بما يريحه عله ليساعدهما!

_ أما زلتما لا تريدان أن تخبراني عن قصتكما؟

باغتهما سراج بسؤاله ليست أول مرة لكنهما كعادتهما؛ يوسف ينظر إلى رزان، ورزان تتخذ الصمت وتغيير دفة الحديث جوابها، تنهد بيأس منهما.

_ ألا تثقان بي؟

سألهما يستحثهما ربما هذا هو سبب صمتهما، شهران مرا مذ تعرف عليهما،

أحبـاه فقد ذكرهما بحيـاة الطيبين التي كانت حياتها لين قلبه وابتسـامة وجهه، حلـو لسـانه نظرته الحنون التي يشـع الرفـق والطيب منهما كل ذلـك لم يدع لهما ثغرة ليدخل الشك منها.

أومأت رزان برأسها بالنفي مع التزام صمتها فسألها:

ـ لماذا إذَنْ تمتنعان عن إخباري بأمركما؟ أنا أريد مساعدتكما.

نكسـت رأسـها وأخفضت بصرها، كغيره سـيخبرهما أن يذهبا إلى الشرطة ليفترقا لذا فهي كما اعتادت آثرت الصمت. أومأ برأسـه يمينًا ويسـارًا متعجبًا، ثم تنهد وقال:

ـ حسنًا لن أيأس، فلتعلما أني هنا دائمًا موجود لمساعدتكما.

أومأت برأسها وابتسامة امتنان ارتسمت على ثغرها.

***

تشـد قميـص أخيها تريد قطعة حلـوى مما في يد رزان تبيعهـا، طفلة في مثل عمر يوسف أصغر أشهرًا.

ـ ليس معي نقود يا شروق حينما يأتي ليث وحيدر من العمل سنشتري لك.

سمعته رزان فاقتربت منهما تمد يدها بقطعة إلى الصغيرة فشكرها أخو الفتاة الذي يبدو في العاشرة من عمره:

ـ شكرًا لك لا نريد؛ ليس معنا ثمنها.

ابتسمت رزان بحنان وعطف وقالت:

ـ لا بأس، هذه هدية مني إلى شروق.

قالتهـا بمرح مداعبة الصغيرة فأبى أخوها، لكنـه قبل فيما بعد تحت نظرات الاستعطاف من صغيرته ثم سألها:

ـ ما اسمكما؟

بالطبع لم تكد رزان تنطق فصاروخ الحكايات قد انطلق من مدفعه:

ـ أنا يوسف وهذه رزان أختي الكبيرة.

ابتسم منه الصبي لكنه انتبه سائلًا:

ـ وأين أمكما؟

ما بال الجميع يسأل سؤالهم هذا؟ ألا يكتفون بغرز سكين قد اتخذ القلب له موطنًا؟ التفتت رزان بعينيها إلى يوسف الذي كان سيهم بالإجابة قلبت عينيها بيأس منه وقالت:

ـ ماتت.

قالاها بذات الوقت بنفس واحد لكن جواب الصبي هو ما صعقهما:

ـ مثل أمنا توفاها الله منذ أعوام قليلة.

أجابته رزان بحزن مشترك على أمهما وأمهما.

ـ رحمهما الله.

فأمن الصبي على دعائها وانطلق سهم الفضول من قوسه مباغتًا الصبي:

ـ وأنت ما اسمك؟

ابتسم الصبي وأجابه:

ـ ضياء.

وقعت عيناهما على ما بيد ضياء نعم إنها حقيبة ملابس، أعادت إليهما شريط الذكريات إلى ثمانية أشهر مضت هذه المرة، لم يكن الفضول هو رفيق يوسف فقط، بل كان من نصيب رزان التي سألت الصبي وهي تنظر إلى الحقيبة:

ـ ما حقيبة الملابس هذه؟ هل أنتما مسافران وحدكما؟ وأين أبوكما؟

يا إلهي! ذات الذكريات ذات الحقيبة بيد ويده الأخرى تحتضن كف أخته صغيرته ذات الصمت المصاحب للتفكر في جواب، ليس هذا فقط بل ذات النظرة الحزينة التي تسقط على الأرض وتقع ربما تخبئ جوابًا غير مرغوب في كشفه، أيمكن أن يكون لهما نفس القدر؟!

أخفض بصره ينظر إلى الحقيبة بحزن ثم قال هاربًا من الإجابة:

_ نحن قادمان من السفر مع أخوينا الأكبر ليث وحيدر، لكنهما ذهبا يبحثان عن عمل الآن وسيعودان قريبًا.

ثم سألهما مباغتًا:

_ وأنتما أين والدكما؟

رد بضاعتهما إليهما. نظرا إلى بعضيهما ولم يعقبا، أمسكت رزان بيد أخيها وقالت هاربة:

_ سنذهب لنكمل عملنا.

***

انتهى يوم جديد من العمل وفي طريق العودة إلى مكان التجمع مرا بحديقة عامة.

_ رزان انظري، أليس هذان هما شروق وضياء؟

قالها يوسف مشيرًا إليهما، كانا يجلسان مع اثنين يكبران ضياء بأعوام يبدو أنهما أخواهما اللذين ذكرهما ضياء صباحًا.

أشار إليهما ملوحًا بيده مناديًا إياهما، حاولت رزان منعه لكن هيهات أيمكن لقطار يمضي بأقصى سرعته أن يقف حين تصده بيدك؟ ابتسما لهما وناديا إياهما، نظر ليث وحيدر إليهما متعجبين مستفهمين فأجابهما ضياء معرفًا إياهما:

_ هذان رزان ويوسف، تعرفنا إليهما صباحًا.

ثم عرفهما على أخويه ليث الذي يبلغ ثمانية عشر عامًا وحيدر الذي يبلغ خمسة عشر عامًا.

سألتهما رزان التي يبدو أن الفضول قد غزاها هي الأخرى واحتلها وهي تنظر إلى ذات الحقيبة:

_ ألم تذهبوا بعد إلى بيتكم؟

أجابتها شروق باندفاع:

_ لم يعد لدينا بيت.

حدجها إخوتها ببصرهم مؤنبين فتعجبت قائلة:

_ ماذا؟ لماذا تنظرون إلي هكذا؟

يا إلهي! إنها النسخة المؤنثة منه ذات البراءة والاندفاع ذات الكلمات التي تسيل من الفم دون حاجزًا! أجابها ضياء بغيظ:

_ هل نقول أسرارنا هكذا لكل غريب؟

أجابته ببراءة طفولية قائلة:

_ أنا لم أقل أسرارنا، أنا فقط أجبت سؤالها.

يبدو أنه كما شروق نسخة مكررة من يوسف فضياء هو نسخة مكررة من إحداهن.

كز ضياء على أسنانه قائلًا من بين أضراسه:

_ وإجابة سؤالها هذا يخص أسرتنا وأي شيء يخص أسرتنا لا نتحدث به مع أحد، أليس كذلك؟ ألم نقل ذلك من قبل؟

أومأت برأسها بخجل موافقة تحت أنظار رزان التي تكتم ضحكاتها لكن سؤال ليث أفاقها:

_ وأنتما لماذا تسيران وحدكما بالليل هكذا؟

أخفضت رزان بصرها أرضًا وقالت:

_ نحن أنهينا عملنا للتو وفي طريقنا إلى مكان تجمعنا للمبيت فيه.

ضيق عينيه غير فاهم وسألها:

_ ماذا تقصدين بمكان تجمعكم؟

أخبره أخوه أن رزان كانت تبيع بعض الحلوى وأهدت إلى شروق إحداها كل ما جاء بخاطره أنها ربما تعمل ببيع الحلوى تساعد أحد أهلها الذي يقف

ببضاعته القليلة على أحد الأرصفة كما يرى بعضهم ممن يضيق الحال بهم.

كعادتها تهرب من نظرات تذكرها بمصيرهما، أجابته بصوت يحمل الخزي:

_ مكان تجمعنا تحت حماية المعلم سرحان؛ نحن أطفال الشوارع.

نظر إليها مشدوهًا فاغر الفاه؛ لم يظن أنهما من هؤلاء وتحت حماية من؟ هذا الذي ذكر اسمه يذكرهما بليلة أمس!

_ السلام عليكم يا قوم!

ألقى بها أحدهم يبدو أنه في الثلاثين من عمره، ابتسموا له تحت نظرات رزان ويوسف الفضولية.

_ كيف حالك يا عم سند؟

أجابهم ببشاشة وهو يجلس بجوارهم:

_ بخير حال حمدًا لله، من هذان الحلوان؟

أجابته مذيعة النشرة الإخبارية زميلة أحدهم:

_ هذان رزان ويوسف تعرفنا عليهما صباحًا هما صديقانا

ثم التفتت إليهما تقول:

_ أليس كذلك؟

ابتسمت رزان مجاملة وأومأ يوسف برأسه يقول بسعادة:

_ بلى بالطبع.

ضحك العم سند الذي قال مداعبًا إياها:

_ تعرفتم صباحًا وأصبحتم أصدقاءً بهذه السرعة؟

أومأت له ويوسف مثلها مؤكدين على ذلك فأكمل العم قائلًا:

_ يا لبراءتكما ليت العالم يكون بمثلها.

قصت عليه شروق قصة تعارفها بهما، ابتسم لها ولهما وظل يمدح أخلاقهما

وهو يرى نظرات الحياء على وجه رزان وابتسامة فخر يوسف تغزو عينيه، ثم التفت إلى ليث وحيدر يسألهما:

_ أخبراني أيها البطلان، هل وجدتما عملًا؟

أومآ برأسيهما نفيًا وقال حيدر:

_ بعد بحث وكد طوال اليوم لم نوفق.

ربت العم سند بكفه على ساق حيدر قائلًا بمودة:

_ لا تقلقا، إن شاء الله ستجدان عملًا في الغد.

أدركت رزان كم تأخرت فاستأذنت كي يذهبا حتى لا يتأذيا فتعجب منهما العم سند قاطبًا حاجبيه بعدما انتبه لأمرهما قائلًا:

_ لماذا تسيران وحدكما بالليل هكذا؟ أين والداكما؟ وكيف ستعودان إلى البيت وحدكما؟

لم يسأل فضولًا بل خوفًا عليهما، رفقًا ورحمة بعصفورين بديعين قد يطمع بعضهم بصيدهما فقط ليحصل على متعة الصيد المؤقتة ويتركهما مصابين كسيري الروح والجسد أو ربما يختطفهما ليبيعهما لأحدهم يضعهما في قفص خانق يستمتع بصراخهما يظنه تغريدًا أو ربما أو ربما.. كثيرة هي الافتراضات وكثيرة هي المآسي التي قد تصيبهما لا يعلم أن المآسي هذه أصبحت حياتهما.

لم تجبه، لكن حيدر هو الذي أجابه متهكمًا:

_ إنهما من أطفال الشوارع الذين يعملون تحت حماية ذاك المسمى المعلم سرحان.

جحظت عيناه من الدهشة وهو يهتف:

_ كيف ذلك؟ إنهما لا يشبهان هؤلاء المسوخ كيف يعيشان وسطهم؟

ثم التفت إليهما، فأخفضا رأسيهما بخجل يحمل الكثير من الخزي.

استطرد سند يقول بحزن:

_ لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف تعيشون مع هؤلاء الفتيان وهذا المسمى المعلم؟

نظرا إلى بعضيهما بحزن ثم سألته رزان دون أن ترفع بصرها:

_ هل تعرف المعلم وزملاءنا؟

أجابها بنصف ابتسامة متهكمة على ثغره:

_ تعرفنا عليهم البارحة.

ضيقت رزان عينيها مستفهمة و»فضولي» يود سؤاله وسماع الحكايات، فأردف ضياء مستكملًا حديث سند:

_ حاولوا الاعتداء علينا وخطف شروق منا لكننا قاومناهم، كادوا يغلبوننا بكثرتهم لولا حضور العم سند ومؤازرته لنا إلى أن غلبناهم في نهاية الأمر، وحينما تجمع بعض الناس لمعرفة ما يحدث تسللوا جميعًا وفروا.

هكذا إذن هو الأمر، كانوا سيصبحون أربعتهم مثلهما لولا أن الصبيان الثلاثة أكبر منهما فقاوموا لكنهم لم يقاوموا وحدهم هناك من أرسله الله ليكون لهم دعمًا وسندًا.

_ حمدًا لله الذي نجاكم من أفعالهم.

قالتها رزان وهي تتمنى لو كان هناك من ينقذهما مثلهم ليلتها. استأذنت مرة أخرى ليذهبا ثم مضيا تحت أنظارهم جميعًا شاردين بهما لكنها لم تكن أنظارهم فقط هي المعلقة بهما، بل أنظار تلك الأعين التي لا تفتر عن مراقبتهما.

***

_ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أين رأيتهما؟ ومع من؟ هل هما بخير؟

سألها هارون بلهفة مجيبًا بها على إحدى رسائل الفيس بوك والذي أبلغه مرسلها أنه قد رأى الطفلين، فأجاب:

ـ رأيتهما مع أحدهم في طريق عودتي إلى منزلي، يبدو أنه خاطفهما.

هتف هارون مندفعًا بشوق ولهفة:

ـ حسنًا، أخبرني أين بالضبط رأيتهما؟ وصف لي شكل خاطفهما هذا.

أجابه بعد وقت:

ـ لكن أليس هناك مكافأة لمن يدلك عن مكانهما؟ أريد مكافأتي أولًا.

فهمه هو ليس بالغبي شعر بخداعه ومكره فأجابه:

ـ بالطبع هناك مكافأة كبيرة لك، لكن هذا إذا رأيت الطفلين بعيني، قابلني في المكان الذي رأيتهما به وأنا سأحضر الشرطة معي وإذا وجدناهما ستحصل على مكافأتك مني بالتو واللحظة.

ينتظر الإجابة فلا مجيب فقط «تم إغلاق حساب المرسل ولم يعد بإمكانك مراسلته» كان هذا هو الجواب. تنهد بحزن من أناس يتخذون خوف الناس وقلقهم على فلذات أكبادهم سلعة دون مراعاة لما يزرعونه بقلوبهم من أمل ثم يبدلونه ألمًا.

***

مرة أخرى يلتقون في الطريق وتعارفوا أكثر وتآلفوا، هل تألف القلوب إلا من يشبهها؟! ضحكات بريئة ولعب ومرح، أربعتهم يشبهون بعضهم لا يشبهون قاطني الشارع وأطفاله.

في المساء في أثناء عودتهما إلى مكان التجمع التقيا بهم مرة أخرى يجلسون بالحديقة.

ـ رزان يوسف، تعاليا.

نادتهما شروق بفرح، ذهبا إليها فدعاهما الجميع ليجلسا معهم. ظل الصغار يتسامرون قليلًا والكبار يتابعونهم ليث وسند ينظران إلى الطفلين متعجبين متسائلين بحديث جانبي كيف لمثل هذا النقاء أن يصمد ببركة موحلة كهذه؟!

ـ ما الذي ألقى بكما إلى الشارع هكذا أيها الطفلان؟

قذفهما بسؤاله مباغتًا العم سند، أعادهما من عالمهما النظيف إلى واقعهما المرير تبادلا النظرات، طال الصمت قليلًا لكن لا بأس؛ الجميع هنا مثلهما ربما ليسوا أطفال شوارع لكنهم مشردون!

نظرة واحدة من طرف عينيها لراوي الحكايات، أذنت له فتحت سد المياه الذي ما إن فتح حتى انهالت الكلمات. سمعوا حكايتهما وتعجبوا من فعل أبيهما وزوجه، الإخوة الأربعة تفهموا شعورهما فلا يتخيل أحدهما أن يفترق عن الآخر

وكعادة الكبار بعقلانيتهم أخبرهما العم سند أن يذهبا إلى الشرطة ربما يصلان إلى جدتهما وبالطبع قوبلت نصيحته بالرفض.

ـ كيف تركككما أبوكما هكذا؟ أبونا لم يكن ليفعلها أبدًا.

قال ضياء كلماته الطاعنة لقلبيهما متعجبًا؛ لا يقصد إيلامهما ولا معايرتهما فقط مندهشًا من فعل مغاير لطبيعة الآباء وهي التضحية.

هتف به ليث معاتبًا بنظراته؛ يعلم جيدًا كيف تجرح الكلمات حتى لو لم تكن عن قصد، أخفض ضياء بصره أرضًا نادمًا ثم اعتذر منهما:

ـ آسف، لم أقصد، أنا فقط حزين لأجلكما.

أومأت رزان برأسها بحزن متفهمة، لكن الفضولي كان مغتاظًا، ولا بد أن يأخذ ثأره:

ـ وأنتم أين أبوكم؟ ولماذا تركككم؟

خيم الحزن على الوجوه الأربعة نظرت رزان إلى يوسفها لائمة! لكن الجواب خرج من فم ليث، يفهم جيدًا ما يحاول يوسف فعله فأراحه:

ـ أبونا في السجن.

نظرا إلى بعضهما لا يفهم يوسف معنى كلمة سجن، فقط كسائر الأطفال في

نهاية لعبة العسكر والحرامية يرددون جملتهم الخاتمة للعبة «خذوه إلى السجن» هذا هو السجن الذي يعرفون كلمة بلعبة!

استطرد ليث قائلًا بألم:

_ ماتت أمنا بعد ميلاد شروق، عكف أبونا على تربيتنا أصبحنا جل حياته هو الأب والأم لنا، تعرضت الشركة التي كان يعمل بها لبعض المشكلات فصرفت عددًا من موظفيها وكان أبي منهم، أصبح أبي عاطلًا ظل يبحث كثيرًا عن وظيفة كوظيفته السابقة فلم يجد، باع سيارته حتى ينفق علينا من ثمنها ولا يحرمنا من شيء لكنه أيضًا أفلس، لم ييأس حتى إنه عمل كعامل بأحد المصانع باليومية، كان يحمل الهم من أجلنا لكنه أبدًا لم يحملنا إياه.

ظل هكذا حتى اقترح عليه زميل له ممن صرفتهم الشركة مثله أن يبيع شقتنا الكبيرة الفارهة ويشتري أخرى صغيرة ويشاركه بمشروع تجاري بفرق ثمن الشقة وبالفعل فعلها ونجح المشروع حتى أتى يومٌ واستيقظ أبونا على اتصال مفزع:

_ البضاعة كلها سرقت من المخزن.

فزع أبي وهرول وشريكه إلى هناك فهما كانا قد اشتريا بكل ما معهما من أموال بضاعتهما الجديدة هذه. أبلغا الشرطة التي لم تصل إلى شيء؛ كاميرات المراقبة لم تفد فالسارقون كانوا ملثمين والسيارة كانت تنتظرهم بعيدًا عن مرمى الكاميرات واتخذت طريقًا غير مراقب من كاميرات الطرق العامة يبدو أن السارق قد درس المكان جيدًا ووضع خطة محكمة.

بالطبع استدان أبي وشريكه كي يشتريا بضاعة جديدة والتي كان سعرها قد ازداد الضعف وأرباح بيعها لم تكف سداد الديون ومصروفات مدراسنا الخاصة فالسوق كان راكدًا تلك الفترة مما اضطر أبي وشريكه إلى بيع البضاعة بثمن أقل، ازدادت الخسائر وازدادت معها الديون حتى جاء اليوم الذي خُيِّرا به بين سداد الديون أو السجن، باعا كل شيء يملكانه حتى شقتنا الصغيرة التي

كانت تؤوينا باعها أبي واستأجر أخرى كي يسدا ديونهما، لم يتبق سوى القليل من الدين، لكن صاحبه لم يعفُ أو يصبر وسجن أبي وشريكه وشردنا، نحن تركنا الإسكندرية حتى لا يرانا أحد زملائنا ملقين في الشارع فليس لنا أقارب سوى عم مهاجر في بلاد الغربة، انقطع تواصله مع أبينا منذ أعوام.

حزن الطفلان من أجلهم، الصمت ساد المكان والزمان لم يقطعه سوى أن استعادت رزان وعيها بالوقت، نهضت وأشارت إلى أخيها برأسها كي يذهبا استأذنا منهم والتفتا يمضيا في طريقهما لكن استوقفهما العم سند مناديًا:

_ لا تذهبا إليهم، وابقيا معنا هنا.

التفتا إليه بلهفة مشدوهين، بالفعل كانا يتمنيان لو يبقيان بهذا الجوار حيث ينتميان، وهل ينتمى الورد سوى إلى البستان الخصب البهيج؟! هل ينتمي عصفور الكناري سوى إلى عشه فوق أغصان أشجار الغابات الغناءة؟ مكانه ليس قفصًا يحبس فيه ليشدو نواحًا يُمتع صاحب القفص.

أجابته رزان بصوت متردد تتبادل نظرات التمني مع يوسفها قائلة:

_ لا نستطيع، نخاف أن يؤذونا؛ نحن تحت الحماية بأمان منهم ومعهم.

نظر إليها نظرة حزينة لكنها مشجعة ثم قال:

_ لا تخافا نحن هنا ندافع عنكما.

قالها وهو يلتفت إلى البقية ينتظر منهم التأييد فأومأوا برؤوسهم موافقين، أجابته بذات التردد وكفها قابض على كف أخيها:

_ لا أدري، أنا خائفة.

ابتسم إليها ابتسامة مطمئنة ثم قال:

_ لا تخافي، وفكري بالأمر.

ثم قال مداعبًا:

_ ولا تقلقي، لن نأخذ منكما حصة مقابل حمايتكما.

ابتسمت له بامتنان وقالت:

_ سنفكر بالأمر لكننا سنذهب الآن ونرى ما سنقرره غدًا.

***

يتطلعان حولهما، هذا ليس عالمهما، عالمهما هناك وسط إخوة ليث والعم سند لا بل عالمهما هناك وسط جدتهما وخالتهما وأبنائها عالم نظيف ليس به سوى الطهر.

_ ما رأيك يوسفي؟ أنبقى مع العم سند والإخوة الأربعة أم نبقى هنا؟

سألته لعله يَبِد حيرتها التي لا تنتهي.

_ بلى نبقى هناك معهم، أنا أحببتهم هم ألطف وأفضل، حتى إنهم لا يدخنون أو يشمون الكُلَّة، أليس كذلك رزانتي؟

أومأت برأسها موافقة وقالت:

_ بلى، لكنني خائفة؛ أخاف أن نترك هنا، ويرفع عنا المعلم حمايته فنتأذى، وأخاف أن يغضب هو نفسه إذا تركنا هنا وابتعدنا فيؤذينا لا أعلم ماذا نفعل؟ أنا متحيرة.

_ ما الذي يحيرك أيتها الفتاة؟

باغتهما فجر هاتفًا بمرح فانتفضت وأخاها فهما لم يشعرا بقدومه، جلس بجوارهما ثم أعاد سؤاله وكعادته بالطبع مذيع النشرة الإخبارية، هم بإجابته لولا نظرة من رزان أحجمت لسانه، لم تجبه، هو من أقرب زملائهما إليهما وساعدهما كثيرًا لكنها تخاف أن يشي بهما ويخبر المعلم فيتأذيا. شعر فجر أنهما يخفيان أمرًا فسألهما:

_ هل حدث لكما شيء؟ هناك أمر تخفونه هذا جلي على وجهيكما.

ثم قال بمرح مداعبًا يوسف مشعثًا شعره:

_ ماذا هنالك يا فضولي؟ هل أعدت التجربة؟

اتسعت عينا يوسف غاضبًا وهتف بحنق طفولي وهو يقف على ركبتيه:

_ لم أفعلها بالطبع، ثم ألم أقل لك سابقًا أنا لست فضوليًّا لا تقلها لي أبدًا.

ضحك منه فجر وهو يغني له ذات الأنشودة التي ألفها خصيصًا من أجل مشاكسته،جرى عليه يوسف بغضب طفولي يدفعه، فجرى منه فجر ضاحكًا يردد أغنيته وهو يطارده ورزان تضحك منهما. تعبوا من الضحك والمرح جلست رزان وجلسا بجوارها ثانية عادت إلى شرودها تتبادل النظرات مع يوسفها.

لم يستطع فجر لجم فضوله وسأل يوسف مناورًا إياهما:

_ هيا يا يوسفها، أخبرني ما يحيركما؟ ربما يمكنني المساعدة.

ينظر إلى رزانته مترجيًا إذنًا بالانطلاق بما يحتبس داخل فمه.

_ هل هناك من قبل من خرج من حماية المعلم دون أن يتأذى؟

سألته موارية لا تريد البوح بما يجيش بصدرها فقط تريد فهم العواقب دون إبداء الأمر، ضيق عينيه يسبر أغوارها فأشاحت بوجهها بعيدًا عن ناظريه لكنه لم يحرك عينيه عنها مراقبًا ردود أفعالها ثم أجابها:

_ بلى هناك من يمكنهم الخروج من حماية المعلم أو حتى عدم الانضمام إليه من البداية، هناك أطفال وفتية يتعارفون بالشارع ويكوِّنون مجموعة خارج حماية معلم المنطقة ويكونون هم حماية لبعضهم، بالطبع يهاجَمون من قبل المعلم وفتيانه لكنهم يقاومون ويصدون هجومهم ويصبحون قوة في وجههم حتى ييأسوا منهم ويدعوهم وشأنهم. رأيت بعضًا منهم يفعل هكذا وينجحون في الأمر لكن لماذا تسألين؟

تلجلجت وتلعثمت وزاغت بعينيها وقالت:

_ سؤال مر على خاطري.

ابتسم فجر من براءتها، لا تستطيع خداعه ليس المكر طبعها، سألها بمكر تعَلَّمه هو وهو يجول بناظريه عليهما يعلم جيدًا كيف يستنبط ما بخلدهما:

_ أتريدان تركنا والخروج من حماية المعلم سرحان؟

شهقت رزان واتسعت عيناها ونظرت إلى يوسف بنظرات تتحدث بها العيون كيف علم بما تفكر به؟ فضحك منهما مقهقهًا.

_ كيف علمت ذلك؟

بالطبع سأله من يسوقه فضوله، ما زال الضحك هو ردة فعله حتى أجابه:

_ مع من ستبقيان؟ لا يمكنكما الخروج من الحماية هكذا لا بد أن تكونا مع من يستطيع الدفاع عنكما، أنتما ما زلتما صغيرين لا تستطيعان أن تدفعا عن نفسيكما الأذى وإلا ما كنتما هنا.

حسنًا، بكل الأحوال لقد انكشف أمرهما بفضل الفضولي الذي لا يحفظ سرًّا، سألته رزان:

_ قبل أن نخبرك هل تعدنا ألا تخبر أحدًا؟

رسم على وجهه ملامح الجدية وهو يومئ برأسه بنعم فأردفت:

_ هناك بعض من هم أكبر منا..

ثم صمتت قليلًا فحثها مومئًا برأسه كي تستكمل فاستطردت:

_ وليسوا مثل الجميع هنا، بل هم أخلاقهم وسلوكهم أطيب ممن هنا.

بنظرات جامدة تواري ما يجيش بصدره إثر ما قالت تابع كلماتها:

_ قابلناهم بالأمس واليوم طلبوا منا الانضمام إليهم والبقاء معهم.

قاطعها سائلًا:

_ وأنتما ماذا تريدان؟

نظرت إلى أخيها بتوتر وقالت:

_ نحن خائفان متحيران.

قاطعها ثانية بحدة:

_ أنا سألتكما ماذا تريدان؟ لا بماذا تشعران؟

وجلت منه قليلًا، لكنها قالت محاولة الثبات:

_ نريد البقاء هناك معهم.

ثم أردفت:

_ هم يشبهوننا ونحن نشبههم لا نشبه هؤلاء

وأشارت بيدها إلى زملائها فأومأ إليها برأسه متفهمًا، ثم قال بحسم وحزم:

_ إذَنْ فلتذهبا، على أن تتوخيا الحذر على نفسيكما، لا تذهبوا بعيدًا عن جمعهم ليلًا وبالنهار لا تبتعدا عن ازدحام الناس حتى لا تتأذيا.

ثم هب واقفًا ومضى فجأة دون أن يزيد كلمة حتى أوقفته رزان مؤكدة:

_ أنت وعدتنا، لن تخبر أحدًا.

فأجابها بذات الجمود الذي احتل وجهه وحديثه:

_ ألم أخبركما منذ أول يوم لكما معنا أن الجميع هنا كاذبون؟

جحظت عيناهما من كلماته وفغر فاهيهما وقبل أن يتفوها بكلمة استطرد:

_ ربما، وربما.

ثم مضى وتركهما كعادته معهما وسط اندهاشهما من أفعاله وكلماته.

الفصل الثاني عشر

"ربما يكسر العصفور قضبانه ويحلق يومًا ما"

كأمسهما مضى يومهما حتى أتى الليل ينتظر قرارهما، مرا بالإخوة والعم سند قضيا معهم وقت سمر ومرح وذكريات.

_ أخبراني أيها البطلان، هل من جديد؟ هل وجدتما عملًا؟

سأل العم سند الأخوين ليث وحيدر فأجابه حيدر:

_ حمدًا لله، ليث وجد عملًا بأحد المحلات، لكنني لم أوفق لأنني لم أستخرج بطاقة الهوية بعد.

هلل العم سند فرحًا لليث مباركًا، ثم التفت إلى حيدر قائلًا:

_ العقبى لك إن شاء الله، مؤكد ستجد عملًا هناك بعض الأماكن التي لا تهتم بعمر العاملين بها، إن شاء الله تجد أحدها.

تدخل ليث مؤازرًا:

_ وإذا لم يجد حينما أثبت قدمي بالعمل يمكنني التوسط له عند صاحب المحل، يبدو عليه الطيبة والاحترام حتى إنه سألني عندما رأى محل إقامتي ببطاقة الهوية:

_ ألديك مكان تقيم به هنا بالقاهرة؟ يمكنك أن تبيت بالمحل إذا شئت.

بالطبع لم أستطع إخباره أنني أسكن الشارع وأخوتي حاليًا فقلت:

_ أشكرك أنا أبيت مع أخوتي لدى أحد معارفنا العم سند ولا أستطيع مفارقتهم.

قالها ضاحكًا متهكمًا من واقع مر أليم، وكيف يخبره أنه بين ليلة وضحاها ترك بيتًا فارهًا ليسكن شقة صغيرة ثم حديقة في الشارع؟! هو لم يضق ذرعًا بالشقة الصغيرة أو يعترض بل كان راضيًا بها ويتمنى أن يعودوا لها لكن ليس وحدهم بل مع أبيهم.

عاد الصمت والسكون يحتلان المكان، حتى شعر العم سند بالهمهمة فيما بين الطفلين ضيق عينيه ينظر إليهما ثم باغتهما:

ـ هل فكرتما بالأمر؟ هل قررتما البقاء معنا؟

نظرا إلى بعضهما بعضًا دون أن يجيباه، طال صمتهما فسألهما:

ـ ماذا؟ ألا تريدان البقاء معنا؟

أجابته رزان باندفاع:

ـ بلى نريد.

ثم أخفضت بصرها مردفة:

ـ لكننا نخاف من المعلم وفتيانه، وإذا تركنا المعلم وشأننا، لن يدعنا صبيانه، فنحن لم نعد تحت حمايته، أنت لا تعلم ما يمكنهم فعله بنا.

قالت جملتها الأخيرة وقلبها يرتجف أمسكت بيد أخيها الذي شعر بها، فقد عصفت ذكرى تلك الليلة وما حدث لهما بها. دمعت عيناها دون أن تشعر ألقى يوسف بنفسه في حضنها يستمدان الأمان من ذكرى خائنة غادرة، لا يعلم أحد غيرهما آلامها، وهل يشعر بألم الاحتراق سوى من أمسكت النار به؟

قلقوا جميعًا عليهما وسألوهما:

ـ هل أنتما بخير؟

أخرجت يوسف من حضنها بهدوء وأومأت برأسها بنعم اقتربت منها شروق تمسح دمعاتها وتربت على كتفها:

ـ لا تبكي ولا تخافي، نحن هنا إخوتي معك هم يحموننا بأرواحهم.

هكـذا قالت كلماتها التي ربـما لا تفهم أحرفها لكنها تشـعر بها؛ كلماتها التي رددهـا إخوتهـا على سـمعها في تلـك الليلة التي زارهـم بها المعلـم وفتيانه – لا تبكـي ولا تخـافي نحن هنا معك نحميك بأرواحنا – لم تكـن أبدًا كلمات ألقوها بألسنتهم، بل أفعال أسود يحمون عرينهم ويفتدون صغارهم بأرواحهم.

ردد الإخـوة بالفعل تلك الكلمات الداعمة على سـمع رزان ويوسـف لكن لم يرددها الإخوة فقط بل سـاندهم بها العم سـند. ابتسـمت لهم نصف ابتسامة متألمة من تلك الذكرى اللعينة.

_ ستبقيان معنا شئتما أم أبيتما، وستعطوننا حصتنا في حمايتكما كل ليلة.

صدما واتسعت أعينهما فاستطرد العم سند ضاحكًا:

_ قطعة حلوى.

قالهـا ممازحًـا إياهمـا، ضحك الجميـع من مزحته تحـت أنظار وأسـماع تلك الأعين التي ترافقهما أينما حلا.

***

_ وأنت يا عم سند، لماذا تسكن الشارع مثلنا؟ هل تركك أبوك أم سجن؟

إنه يوسـف الفضولي، ضحك الجميع من سـؤاله، لم يستوعب لم يضحكون منه وكذلك شبيهته التي انطلق لسانها كالطائرة النفاثة:

_ العـم سـند مات أبوه وهو صغير، مثلـما ماتت أمهاتنا ونحن صغار، أمه هي من ربته وأطعمته حتى أصبح كبيرًا وطويلًا هكذا.

انطلقت قذيفة جملتها الأخيرة فأطلقت معها قهقهات الضحك. اغرورقت الأعين الضاحكة بالدموع دموع سعادة لا تسقط سوى مع من نشبه ومن نحب.

تحمحم العم سند، ثم قال وهو يروي فضول ذاك الفضولي الصغير:

_ أنـا مـن قريـة صغـيرة بصعيـد مـصر، مـات أبي في صغري وعانـت أمي الأمرين في حياتها، كانت تعمل بكل شيء وأي شيء كي أكمل دراسـتي. أتيت

إلى القاهرة منذ سنوات باحثًا عن عمل كمهندس مدني.

نظر الصغار إليه بعدم فهم فأردف:

_ ذاك الذي ينفذ تصميمات وأشكال البنايات من مجرد رسم على الورق إلى بناية حقيقية ويشرف على بنائها بنفسه ويتابع العمال وهم ينفذون ما يوصيهم به.

ثم استطرد:

_ كنت ناجحًا بعملي مستأجرًا شقة هنا بالقاهرة حتى جاء يوم وأرادني المقاول صاحب الشركة التي أعمل بها أن أغش في مواد البناء، أي أستخدم مواد غير صالحة للبناء وهذا قد يتسبب في انهيار البناء فيما بعد ويقتل أناسًا أبرياء، بالطبع أبيت فصرفني من العمل واتهمني أنا بالغش وسرقة مواد البناء وأشاع عني ذلك في كل شركة أتقدم للعمل بها ظللت، أبحث عن عمل لكن سمعتي التي أساء إليها ذاك الحقير كانت تسبقني في كل مكان أذهب إليه، لم يتبقَّ معي مال أدفع به إيجار الشقة، فأخرجني منها صاحبها ولم أستطع العودة إلى قريتي عند أمي فأحزنها أكثر على حالي، ويزداد مرضها الذي أصابها من كثرة العمل، ومن يومها وأنا أبيت بالشارع، يحاول اللصوص سرقتي بتهديد السلاح فلا يجدون معي شيئًا فيدعونني وشأني، حتى هاتفي كنت قد بعته من قبل، عملت بأحد المحلات كعامل باليومية وبذات الوقت أبحث عن عمل مهندسًا.

وحمدًا لله منذ أيام وجدت عملًا بشركة صاحبها يبغض صاحب عملي القديم ويعرف عنه سوء خلقه، عندما علم أنني كنت أعمل معه سألني عن سبب فصلي من العمل فأخبرته وهو بالفعل تأكد بنفسه قبل أن أعمل معه. لكنني لم أتقاضَ راتبًا بعد حتى أستأجر شقة أخرى.

نظروا إليه جميعًا بإعجاب وفخر.

❋ ❋ ❋

ـ أين كنتما بالأمس؟ لماذا لم تأتيا ليلة البارحة بمكان التجمع؟

سألتهما سمكة متعجبة بقلق فيبدو عليهما السعادة والهدوء لا الخوف والفزع؛ ظنت أن هناك من آذاهما وقلقت عليهما وأبلغت المعلم عن تأخرهما فأخبرها:

ـ إذا لم يأتيا حتى الغد نبحث عنهما، ونرى ربما يتسكعان هنا أو هناك أو ذهبا مع أحدهم إلى مكان، كي يلهوا لكن إذا كانا قد تأذيا من أحدهم فسيرى من يعبث بمنطقة المعلم سرحان ويتعدى على من تحت حمايته حربًا طاحنة لا تبقي ولا تذر.

صمتت رزان لا تعرف ماذا تقول؟ ما زالت تخاف أن يتأذيا هذه المرة لم يفتح صنبور الحكايات على لسان يوسف. نظر إلى أخته بقلق وازدادت دهشة سمكة فسألتهما:

ـ لماذا لا تجيبانني؟ لماذا لم تأتيا بالأمس؟

تحمحمت رزان محاولة الثبات وقالت بجدية واضحة:

ـ لن نعود إلى هناك ثانية سنبقى مع مجموعة أخرى.

وقفت سمكة مشدوهة فاغرة الفاه ثم هتفت فيهما:

ـ لكنكما هكذا لن تكونا تحت حماية المعلم، ويمكن لأي أحد أن يؤذيكما دون رادع!

حاولت رزان التظاهر بالقوة والثبات وقالت:

ـ لا بأس، الله معنا ولن يضيعنا وسيحمينا من أي أذى، ثم إننا لسنا وحدنا.

جذبت يد أخيها هاربة قائلة:

ـ هيا يا يوسف نكمل عملنا حتى لا نتعطل.

وذهبت تحت أنظارها المندهشة المتعجبة.

***

يصرخان بكل ما فيهما من قوة وكيف لا يصرخان فزعًا وهلعًا وهما يريان أمامهما ذات الصبية الذين آذوهما تلك الليلة. حاولوا تهدئتهما فالناس لم تزل بالجوار، لكنهما أبدًا لم يهدآ، تشبثًا ببعضهما وهَمًّا أن يهرولا فأمسكوا بهما؛ أحدهما يضع يده على فم رزان يكتم صوتها ويمسكها من الخلف يقيد حركتها وآخر يفعل مثله بيوسف ويقولان:

_ لم تعودا تحت الحماية فأنتما لنا!

أتاهم صوت من خلفهم صائحًا:

_ اتركوهما وابتعدوا عنهما.

التفتوا جميعًا فإذا به فجر ليس وحده بل معه صبح.

_ ليس لك شأن بهما فجر أنت وصبح إنهما لنا نحن من سبقناكما.

تبادل صبح نظراته مع فجر فهتف فيهم:

_ دعوهما يمضيان إلى حالهما هما ليسا لنا ولا لكم.

ضحك منه أحدهما ساخرًا وقال:

_ وإذا لم نتركهما؟ ماذا ستفعلان؟ تعلمان جيدًا أنه لا يحق لكما أن تمنعاننا وإذا علم المعلم بما فعلتما سيعاقبكما عقابًا شديدًا فاذهبا إلى حالكما وسنتجاوز فعلتكما ولن نخبره.

هنا وانتفض فجر صائحًا به:

_ اتركوهما وإلا لن يحدث خير هما تحت حمايتي ولتخبرا المعلم.

اندفع أحد الفتية يضرب فجر فبادله ودافع معه صبح وتحولت إلى معركة شوارع، أفلت الصغيران من بين أيديهما يبكيان يتشبثان ببعضهما، صاح بهما فجر أن يهربا وبالفعل فرا مهرولين إلى الطريق العام فقابلهما العم سند وحينما رآهما فزعين هكذا حاول تهدئتهما مستفهمًا:

_ ماذا بكما أيها الصغيران؟ ماذا حدث؟

لم يستطيعا الحديث فقط يبكيان، ظل يمسد على رأسيهما حتى هدآ، ثم سألهما ثانية بهدوء فأخبره يوسف بما جرى، سألهما من أي طريق كانا يسيران فأشارا إليه فطمأنهما وأخبرهما أن يبلغا الإخوة ويأتيا بهم.

بالفعل ذهبا وأخبراهم فأتوا مسرعين ليجدوا الفتية قد ازدادوا وفجر وصبح، قد انضم إليهم العم سند، فانضم إليهم الإخوة وأوصوا ضياء أن يتوارى مع الصغار بجانب خفي.

انتهت المعركة بنصر مبين للأسود والسند وابتسامة منهكة أضاءت الظلمة من فجر وصبح.

ـ ألم أخبركما ألا تسيرا وحدكما ليلًا؟

صاح بها فجر بحدة في وجه الطفلين بعدما فر الجرذان، ازدادت شهقاتهما وارتجف قلباهما من الفزع، أمسك صبح بذراعه مهدئًا إياه ثم قال لهما:

ـ لولا أننا كنا نسير بالطريق ورأيناهم مجتمعين يسيرون بطريق غير طريق تجمعنا فتبعناهم شكًّا في أمرهم لكنتما تأذيتما الآن، لا تسيرا في شارع جانبي مرة أخرى هل تسمعانني؟

أومآ برأسيهما وحاول العم سند تهدئة الوضع شاكرًا بامتنان صبح وفجر على صنيعهما، وظل يرثي حالهما الذي أوقعهما في هذه البؤرة القذرة فابتسم فجر بتهكم:

ـ لا تقلق فلن نعود إليهم الآن وإلا عوقبنا وتعذبنا عذابًا أليمًا.

ثم نظر إلى صبح الذي قال:

ـ ليس أمامنا سوى الانتقال إلى منطقة أخرى.

نظرا إلى الطفلين، ثم قال فجر بتحذير:

ـ لن أكرر تحذيري، ابقيا وسط الزحام ليلًا ونهارًا.

ثم أشار إلى صبح كي يمضيا تحت أعين الجميع الحزينة لأجلهما.

لكن استوقفهما صوت العم سند مناديًا:

_ ابقيا معنا، ولا تذهبا.

التفتا إليه متعجبين أيعرض عليهما البقاء معهم؟ لا يبدو عليه أنه معلم أو أحد ساكني الشوارع، تذكر فجر كلمات رزان:

_ ليسوا مثل الجميع هنا، أخلاقهم وسلوكهم أطيب، نريد البقاء هناك معهم فهم يشبهوننا ونحن نشبههم.

ابتسم بألم ينظر إلى صبح يشاوره بنظراته فأومأ إليه صبح بالموافقة. التفت إلى الجميع يرى منهم القبول والترحيب ثم وقع بصره على الصغيرين اللذين ما زالا يرتجفان، وشرايين أعينهم الحمراء بارزة من أثر البكاء، تنهد مغمضًا عينيه ثم أومأ بالقبول.

يا له من فتى ذي رأس صلد ليس سهل الانصياع، لكن يبدو أن هناك سرًّا داخل هذا الرأس العصي على الإقناع جعله يلين ويرضخ.

***

أسرة واحدة دافئة قائدها حنون عاقل سهل حكيم ملك القلوب وأسر العقول، حاضر يعيد ذكرى الماضي إلى بعضهم، هي أمنية وتحققت رأي العين لأحدهم هي كل ذلك لصغيرين بيعا بلا ثمن.

_ أخبراني أيها الصغيران أتذكران اسم أمكما كاملًا؟ اسمها واسم جدكما وهكذا؟

سأل العم سند رزان ويوسف فأجابته رزان:

_ نعم عم سند أنا أعرفه جيدًا، لكن لماذا؟

أجابها بفرح:

_ حمدًا لله، هذا قد ييسر الأمر علينا، لا أعلم كيف فاتني هذا الأمر، نذهب

غدًا إلى قسم الشرطة ونخبرهم.

قاطعته رزان بفزع وهي تمسك بكف صغيرها:

_ لا، لن نذهب إلى الشرطة، لن نفترق.

ابتسم لها بهدوء مربتًا على كتفها أجفلت منه قليلًا فقال:

_ اهدئي يا صغيرتي، نذهب إلى الشرطة، وإذا كانت جدتك قدمت بلاغًا باختفائكما فستحضرهم الشرطة لاستلامكما، وإذا كان غير ذلك فيمكنهم في خلال أيام البحث عن بيت جدك أو أي أحد من أسرتك عن طريق اسم أمكما.

شردت قليلًا ثم قالت:

_ وإذا لم تكن جدتي تعلم باختفائنا، وفي أثناء بحث الشرطة عن بيت جدي أين سنبقى؟ هل سيذهبون بنا إلى دار رعاية ونتفرق؟ لا لن نذهب.

تنهد العم سند متفهمًا ثم قال:

_ إذَنْ ننتظر حتى أعود من السفر وأستأجر شقة لنا جميعًا، وقتها يمكننا الذهاب إلى قسم الشرطة وأتعهد أن تبقيا معي.

انتبه له الجميع متعجبين قاطبي الحواجب ثم هتفوا بصوت واحد:

_ تعود من السفر؟

ابتسم لهم جميعًا قائلًا:

_ سأسافر لأشهر قليلة تسلمت من الشركة مشروعًا بإحدى مدن الصعيد القريبة من قريتي.

لم جل الوجوه قد كساها الحزن؟ أو ربما الخوف والتيه، قرأ ما بأعينهم فاستطرد:

_ سأسافر بعد يومين لكنني سأعود حالما ينتهي المشروع، بمجرد أن أعود سأستأجر شقة تؤوينا جميعًا، كنت أود أن أفعل ذلك قبل سفري، لكنني قبضت راتبي الأول ولم يكف كقيمة تأمين شقة إيجار ومقدم إيجار لعدة أشهر .

لماذا أخفضت الأعين بصرها أرضًا؟ هل ستفقد تلك الأسرة ربها؟

_ أنتم جميعًا لماذا هذا الصمت القاتل؟ أنا لست ذاهبًا إلى القتال، أنا ذاهب في عمل، وسأعود بإذن الله، ألا تثقون بي؟ نحن معًا منذ أكثر من أسبوعين هل كذبت عليكم قط؟

قالها محاولًا قطع صمتهم الذي أقلقه لكن باغته سؤال شروق له:

_ أنت ستسافر وتعود؟ لن تسجن كأبينا وتتركنا، أليس كذلك؟

نظروا إليها جميعًا، ليسوا متعجبين فهي طفلة لا تعرف عن سفر الأب سوى سجنه وفقده.

_ ألن تسافر وتتركنا وحدنا كما فعل أبي؟

هذه المرة كان يوسف، ذاك الصغير الذي تركه أبوه وراء ظهره.

صعق العم سند من أسئلتهما لم تمر بخلده، لم يعلم قبلًا أنه كان لهم العوض الجميل عن كل خزي وخذلان، لم يعلم أنه أصبح هو بيتهم! ما كان البيت يومًا بابًا وجدرانًا فقط بل قلبًا يحتوي بداخله قلوبًا أخرى.

أجابهما بحنان وعطف:

_ لا، لن أفعل، بل سأعود إن شاء الله، ونعيش جميعًا بأمان في بيت يؤوينا ويشملنا.

قطع الصمت موجهًا حديثه إلى ليث:

_ أنت في غيابي كبيرهم سندهم، أنت مكاني هنا تجمع ولا تفرق تساند وتدعم، هل فهمتني؟

أومأ إليه ليث برأسه دون أن يتحدث ماذا يقول؟ لا يستطيع منعه عن خير قادم له.

استطرد العم سند بحديثه لليث وهو يمد يده إليه بورقة:

_ أعطني رقم هاتف المحل الذي تعمل به، وهذا رقمي القديم كنت قد

أوقفته قبل أن أبيع هاتفي وأعدته اليوم واشتريت هاتفًا جديدًا سأحادثك دومًا كي أطمئن عليكم.

ثم جال بنظره عليهم جميعًا:

_ وأنتم أيضًا خذوه جميعًا وهاتفوني من أي هاتف كي أطمئن عليكم.

***

_ بارك الله فيكما، لكما عندي مكافأة على هذا التسميع الممتاز.

هتف بها العم سراج بعد أن تليا عليه ما حفظا، نظرا إليه بمفاجأة وسعادة ملأت قلبيهما الصغيران كما ارتسمت على وجهيهما، نهض وقام بإحضار حقيبة بيده وأخرج ما فيها يقدمه لهما:

_ هذا مصحف وكراسة تلوين وألوان خشبية، مكافأة لكِ يا رزان على حفظك وتعلمك.

ثم مد يده إلى يوسف أيضًا قائلًا:

_ هذا جزء عم وتبارك وأيضًا كراسة تلوين وألوان خشبية كأختك، مكافأة لك يا بطل.

فرحا بهديته كثيرًا وشكراه بنظرات فخر بمعلم يغدق عليهما بطيب قلبه ووده.

_ ها ألن تخبراني ما قصتكما؟ لن أستسلم أو أيأس.

قالها بمرح، فهو بالفعل ما يئس منهما؛ كل يوم يسألهما وكل يوم يقابل بالمراوغة.

استأذنا كعادتهما ومضيا بطريقهما وسراج ينظر في إثرهما متذكرًا حديثه وأمه:

_ بالطبع لن يحدث، لن أجلب طفلي شوارع إلى بيتي وسط إخوتك.

أجابته أمه حينما عرض عليها أن يحضرهما ليعيشا معهم، تنهد وذات الابتسامة الهادئة لا تفارق وجهه وقال:

_ أخبرتك أمي أنهما ليسا كباقي أطفال الشوارع إنهما ذوا أصل وتربية،

فلنأتي بهما ليعيشا وسط إخوتي الصغار.

حدجته أمه بنظرها، ثم تنهدت بألم وحزن وهي تقول:

ـ وهل ستضيف على نفسك عبئين جديدين؟ ألا يكفي أنك مذ مرض أبوك وأنت تعمل مكانه بالمحل طوال اليوم دون أن تأتي البيت لترتاح قليلًا حتى توفر أجر عامل يساعدك وتدخره للإنفاق على إخوتك وعلينا. أخبرني هل ادخرت شيئًا لنفسك وقد قاربت الثامنة والعشرين من عمرك؟ هل أعددت شيئًا كي تتزوج كباقي من في عمرك ممن أصبحوا آباءً؟

أجيبك أنا؟ لا لم تفعل بل تؤثرنا على نفسك، أتظنني لا أرى أو أحس؟ أتظن أباك لا يشعر بالقهر والعجز وهو لا يراك سوى بآخر الليل تأتي مجهدًا متعبًا؟

قبل يديها ورأسها ثم قال:

ـ وهل أعيش بهذه الدنيا إلا برضاكما ودعائكما؟ هذا هو الرزق المبارك بعينه لا أريدك أن تحملي همًّا لأمر زواجي «وفي السماء رزقكم وما توعدون».

ثم استطرد:

ـ ثم ها هو أخي غيث قد وجد عملًا بعد تخرجه ولم يعد عبئًا كما تقولين، بل على العكس يشارك معي بمصروفات البيت وإذا أحضرنا الطفلين سيرزقنا الله برزقهم، لقد فقدا أمهما فلتكوني أنت أمهما الحنون كما أنت لنا، هيا يا أمي وافقي لأجل خاطري.

حركت رأسها بيأس من طيب قلبه يمنة ويسرة ثم قالت:

ـ أنسيت أن لك إخوة في بداية سن المراهقة وأنت تقول إن الفتاة في عامها التاسع، سنوات قليلة وتبلغ مبلغ الفتيات كيف ستعيش معنا؟ وأين ستنام؟ وهي غرفة واحدة لك ولإخوتك تركتها أنت وأخوك الكبير وتنامون في غرفة الاستقبال، أنا أتفهمك جيدًا يا بني وأفهم حسن نواياك ولو كان باستطاعتي الموافقة ما ترددت، لكن ما باليد حيلة ليس كل مرغوب مستطاع، أحسن الله إليك وإليهما ورزقهما بمن يؤويهما.

نظر إليها بيأس لكنه تفهم حديثها؛ ليس من الفطنة وضع الكبريت بجانب البنزين ثم الشكوى من الحريق.

أفاق من شروده على أحد الأطفال يريد أن يشتري فعاد إلى واقعه داعيًا ربه لهما.

***

مضى شهران على سفر العم سند لم تنقطع بينهم الاتصالات.

الجميع ينتظر عودته كل مساء يتسامرون ليلًا بعد عودتهم من عملهم كل يقص كيف مر يومه يشاركه الآخرون بدعمهم ومواساتهم، كان ليث شاردًا فسأله حيدر:

ـ ما بك يا ليث؟ لماذا أنت شارد هكذا؟

نظر إليه بتردد أيقص عليهم ما حدث أم لا أنظارهم جميعًا معلقة به ينتظرون إجابته. تحمحم قليلًا ثم أجابهم:

ـ صاحب العمل ناداني اليوم وسألني:

ـ أين تسكن يا ليث؟

تفاجأت من سؤاله كان مباغتًا فتلجلجت قليلًا ثم سألته:

ـ أتقصد في الإسكندرية؟

نظر إليَّ مطولًا مما جعلني أهرب ببصري بعيدًا عنه، ثم أجابني:

ـ لا، بل أقصد هنا بالقاهرة.

لم أعلم بما أجيبه، أأكذب عليه؟ قلت مواريًا:

ـ أخبرتك من قبل أن هناك عمًّا لنا اسمه سند نعيش معه لكنه الآن مسافرًا في عمل.

لم يبعد عينيه عني أبدًا حتى مللت من حصارها ثم باغتني قائلًا:

ـ كنت أمر ليلة أمس بإحدى الحدائق ورأيت أحدهم يشبهك كثيرًا يدثر بعض الصغار بغطائهم ثم ذهب لينام بجوارهم أهذا أنت؟

باغتني! أأقول الصدق فيفتضح أمري، أم أكذب ويغضب مني ربي؟ لم أجد بدًّا سوى أن أقص عليه حكايتنا.

صمت طويلًا ولم يعقب، ثم أذن لي بالذهاب، ذهبت من أمامه بقلب منشطر؛ أنا لم أعتد خجلًا كهذا من حالي وأمري لكن ما حيلتي فيما قدر عليَّ. أكملت عملي حزينًا شاردًا لكنه صدمني بنهاية اليوم حين طلبني ليخبرني:

_ تحدثت مع أخي في الإسكندرية حيث يدير الفرع الآخر للمحل هناك، أخبرني أنه يستطيع توفير شقة صغيرة لك ولإخوتك وتستطيع العمل معه بالمحل، وحالما يستخرج أخوك بطاقة الهوية يمكنه هو الآخر العمل معك وتعودون جميعًا إلى دراستكم وزيارة أبيكم بسجنه من حين إلى آخر.

وقفت مشدوهًا متعجبًا، أهذا حلم أم حقيقة؟ أما زال هناك أناس يعمر الخير قلوبهم؟ ثم تذكرت العم سند فابتسمت، اعتذرت من الرجل لا أستطيع التخلي عنكم جميعًا، هذه مسئوليتي ووصية العم سند. دهش صاحب المحل مني حتى أفهمته السبب حاول إقناعي حتى تعب وقال:

_ حسنًا فكر جيدًا بالأمر وحينما تقرر أخبرني ستجدني بجوارك.

نظروا جميعًا إلى بعضهم بعضًا، هذه فرصة للإخوة وخير لهم.

_ فلتذهبوا، هذا خير لكم.

هتف بها فجر وأيده صبح لكن الصغيرين يوسف ورزان نظرا لهما بدهشة هل يتمنيان حقًا أن يتفرقوا؟ إذا ذهب الإخوة والعم سند ما زال مسافرًا كيف سيعيشان؟ لن يدعهما المعلم وصبيانه!

نظر ليث إلى فجر وصبح ثم التفت إلى رزان ويوسف ورأى نظرات القلق بأعينهما، ابتسم وقال:

_ لا أستطيع، إذا ذهبنا وتركناكم قبل عودة العم سند لن يدعكم المدعو سرحان وفتيانه، سيؤذونكم أذى شديدًا. لا بأس أن ننتظر عودة العم سند مضى شهران ويتبقى مثلهما حالما يعود نقرر أسنبقى معه في شقته التي سيستأجرها أم

نسافر إلى الإسكندرية، إلا إذا قررتم الذهاب معنا إلى الإسكندرية.

جحظت عينا الصغيران هل أتيا إلى القاهرة ورأيا ما رأيا من أجل أن يكونا بقرب جدتهما حتى يسافرا إلى الإسكندرية؟ نظرا إلى بعضهما بحديث الأعين الذي صدر بقراره، أومآ برأسيهما بالرفض وكذلك فجر وصبح فقال ليث:

_ إذَنْ، فسننتظر جميعًا العم سند.

تنفسا الصعداء، فالعائلة هي الأمان وإذا تفرقت وتشتتت عاثت شياطين الإنس والجن بين أفرادها، هدآ قليلًا لكن بعض القلق ما زال يساورهما.

***

_ ماذا بك يا رزان؟ لماذا تبكين هكذا؟

سألها العم سراج بلهفة وفزع، ثم وقع بصره على فجر يحمل يوسف فشعر أن هناك أمرًا سيئًا.

_ ساعدنا عم سراج، انجد يوسف يا عم.

هتفت بها بقلب مستغيث وصوت متحشرج من البكاء فزعًا على صغيرها، سألها بلهفة:

_ ماذا به؟ ماذا حدث له؟

ثم أمسك وجهه يتفحصه، نائم كملك صغير لكن الحمرة تغزو وجهه وحرارته يا إلهي يكاد يغلي كما يغلي الماء! حمله عن كاهل فجر مسرعًا وهتف به وبصبح اللذين كانا بجوار رزان:

_ سآخذه إلى المشفى ابقيا هنا بالمحل حتى نعود.

لم يفكر ولم يعط لعقله فرصة أن يتدبر، ألا يمكن أن يكونا بلا ضمير ويسرقاه؟

ذهبوا إلى المستشفى وبالطبع أخبرهم العم سراج أنه ابن أخته وإلا وإلا ماذا؟ نعم إنه طفل شوارع لا يذهب إلى المشفى وإلا تم إبلاغ الشرطة وعمل

محضرًا له والقبض عليه وأخته وإبقاؤهما بقسم الشرطة حتى إنهاء الإجراءات ثم وضعه في دار رعاية ويتفرقا.

فحصه الطبيب وعلق له المحاليل ثم خرج من المشفى على كتف سراج كما دخلها، أحضر له الدواء الذي وصفه له الطبيب وعاد بهما إلى المحل. اطمأن فجر وصبح عليه ثم استأذنا تحت أعين العم سراج المستفهمة عنهما بعد أن سلماه بيديه ثمن ما باعا من بضاعة بالمحل. دون جواب رحلا لكن لا بأس ليس هذا بالوقت المناسب.

جالسة على كرسي صغير بالمحل شاردة تحتضن أخاها شبه النائم من المرض بعد أن أحضر له العم سراج مشروبًا ساخنًا وسقاه له مع وضع الكمادات على جبهته تخفض من حرارته.

_ أين تنامان يا رزان؟ أعلم أنكما تنامان في الشارع، لكن أين؟ هل تتدثران جيدًا؟

أخرجها من شرودها بسؤاله، لم تعرف بأيهما تبدأ إجابته كل سؤال إجابته علقمًا بالحلق غصة بالقلب. نظرت إليه بحسرة وقالت بصوت متألم:

_ نتدثر ببعضنا بعضًا، لدى إخوتنا غطاء لكنه لا يكفي جميعنا.

هل يكفي غطاء واحد ثمانية أفراد؟ لم تخبره بارتجاف قلبيهما وارتعاش جسديهما من صقيع الليل ولا بأضراسهما التي تكاد تتهشم من تعارك فكيهما دون سيطرة منهما على الرجف ولا بأطرافهما التي تتصبغ بالأزرق أو ربما الأصفر بهروب الدماء منها فتكاد أن تتجمد.

كيف لم يفكر بذلك من قبل؟ هل يحتاج إلى أن يمرض أحدهما كي يخطر بباله هذا الأمر؟

_ لماذا لا تريدين إخباري بقصتكما يا رزان؟ هل رأيت مني ما يشين مذ قابلتكما؟

أومأت برأسها بالنفي لماذا يحاصرها هكذا بطيب قلبه وعطفه؟ تنهدت

بحـزن علها تبرد صهر قلبهـا وحرقة روحها، نظرت إلى أعلى تناجي ربها بقلبها ثم قالت:

_ حسنًا، سأقص عليك.

بقلب منفطر سـمع حكايتها لا يصدق ما يسمعه، لا يكذبها فقط لا يتخيل أن أبًا يمكن أن يترك فلذتيه وراءه دون أن يلقي لهما بالًا، هكذا ربما سمع بعض الحـوادث في الصحـف والصفحات الإلكترونيـة والبرامـج التليفزيونية، لكنه دائـمًا ما يظن أنها من خيال الكاتـب أو المعد، كيف يمكن أن يمر بخاطره؟ هذا ليس بفعل بشر ولا حتى بفعل حيوان! يمسح بيديه دموعها لكنها أجفلت منه وابتعـدت وأبعـدت يديه، هي لم تقص عليه ما تعرضـا له من أذى من زملائهم بالشارع هذا سرها وسر أخيها، وحياؤها هو حارس السر الأمين.

مسح بكفيه وجهه متنهدًا بألم ثم قال:

_ أتفهم جيدًا خوفك، لكن أعتقد أن الذهاب إلى الشرطة هو الحل الأمثل، ربما جدتك وخالتك يبحثان عنكما الآن وقدما بلاغًا باختفائكما، وقتها يمكنهما الوصول إليكما ببساطة!

تأوه يوسف النائم على صدرها فتذكرت:

_ لكنهـم سـيفرقوننا إذا لم يكن هناك بلاغ من جدتي كـما قلت، ووقتها لن يكون هناك مجال للرجعة!

تنهد العم سراج وقال:

_ ألم تقولي إن جدتك وخالتك يحبانكما كثيرًا، وكانا دائمتي السؤال عنكما؟ إذَنْ، لا بد أنهما يبحثان عنكما.

أجابته بتفكر:

_ أتظن أنهما قد علما أن زوجة أبينا رمتنا هكذا؟ أو أنهما قد ذهبا إليها؟

نظر إليها بغضب من ذكر طليقة أبيهما وقال:

_ لا أعلم إذا كانا قد علما بفعلتها الدنيئة أم لا، لكن لا بد أنهما يبحثان عنكما، ولو كنت أنا مكانهما لذهبت إلى الشرطة أولًا.

شردت قليلًا تنظر إلى أخيها النائم على صدرها وقالت:

_ لا أعلم، أشعر بحيرة من أمري .

ابتسم لها بعطف وقال:

_ حسنًا، فكري بالأمر جيدًا وسأنتظر جوابك وأستطيع الذهاب معكما إلى قسم الشرطة إذا أردت.

أومأت له بالإيجاب ابتسم لها بسمة حزينة لأجلهما، ثم نظر إلى أخيها النائم. كيف لهذين الملكين أن يعيشا وسط شياطين الأرض ببراءتهما هذه؟

نهض فجأة وقال:

_ بالطبع لم تأكلي شيئًا طوال النهار، سأحضر شيئًا نأكله أنا وأنت.

وقبل أن تهم بالرفض أشار إليها يمنعها:

_ أنا جائع وستأكلين معي وكذلك سأحضر ليوسف طعامًا خفيفًا على معدته.

أحضر الطعام، وفي أثناء تناوله جاءه صوت إشعار من هاتفه ففتحه ثم هتف صائحًا ببهجة:

_ جاءتني فكرة، قفي يا رزان وحاولي مساعدة يوسف الذي أفاقه الدواء والكمادات بعض الشيء.

نظرت إليه رزان متعجبة تسأله:

_ ماذا؟

ابتسم قائلًا:

_ سأصوركما!

عقدت جبينها بدهشة فأجابها ضاحكًا:

_ سـأصوركما وأنشر صورتكما على تطبيق الفيس بوك، وهناك صفحة قد رأيت منشورًا لها من قبل اسمها «أطفال مفقودة» سأنشر عليها أيضًا صورتكما، لعـل أحدًا من أهلكما يراهـا ويصل إليكما حتى يحين الوقـت ويلين هذا الرأس اليابس ويوافق على الذهاب إلى الشرطة، ربما لا نحتاج إليها.

أمل جديد ينشره ذاك المبهج الخيِّر، ليس هناك ملائكة يعيشون على الأرض لكـن هنـاك من يحملـون بعـض صفاتهم؛ نقـاء قلـب وسريرة، حـب خير لهم ولغيرهم رغم صعاب الحياة وضيقها قلبهم يتسع للجميع.

***

_ أما زالت حرارته مرتفعة؟

سأل فجر رزان عن يوسف فأجابته بإرهاق:

_ بـلى، طلب منا الطبيـب ألا نجزع لأن حرارته قد ترتفع ليلًا مرة أخرى، وأن نلتزم بالدواء في موعده مع وضع الكمادات.

أومأ إليها برأسه ودعوا جميعًا ليوسف بالشفاء، وهنا جاء دور طبيبة المستقبل العبقرية شروق وهي تنصح رزان:

_ إذَنْ، اسقه زجاجة الدواء كاملة جرعة واحدة كي يشفى سريعًا.

لم تجبهـا رزان لكن أجابتها ضحكات الجميع مـن نصيحتها المذهلة. قطبت شروق ما بين حاجبيها ومدت شـفتيها بغضب من ضحكاتهم وسخريتهم منها وهتفت:

_ لمـاذا تضحكـون هكـذا؟ هـل قلـت شـيئًا خاطئًـا؟ ألا يسـاعده الدواء ليتحسـن؟ لماذا إذن يأخذ كل فترة ملعقة ما دام يسـتطيع أخـذه كله مرة واحدة ليشفى سريعًا؟

أمسكها ضياء من خديها مداعبًا مشاكسًا يقول:

_ إذا شرب زجاجـة الـدواء جرعـة واحـدة بطنه سـتفزع وتؤلمه ويمرض

أكثر، لكن إذا تناوله ملعقة كل عدة ساعات ستأخذ بطنه الدواء بهدوء وتجعله يقتل المرض رويدًا رويدًا دون أن تزيد عليه الألم.

ـ فيم تشردين يا رزان؟

أفاقت على سؤال صبح فأجابته:

ـ العم سراج حدثني بعد أن عدنا من المشفى أن نذهب إلى الشرطة كما قال العم سند.

ـ فلتذهبي يا رزان أنت ويوسف.

قالها فجر فاتسعت عيناها دهشة، هذه أول مرة يقولها! رأى نظراتها المتعجبة فاستطرد:

ـ أخبريني يا رزان، إذا لم نجد العم سراج اليوم من كان سينقذ يوسف؟ ليث هو أكبرنا وهو الوحيد بيننا الذي يحمل بطاقة هوية تسمح له بالذهاب به إلى المشفى لكنه كان في محل عمله الذي لم نكن نعرف مكانه. أخبريني كيف كان سيكون حال يوسف؟ أنا في الشارع منذ عامين رأيت الكثير والكثير.

تنهد مغمضًا عينيه ثم قال:

ـ ألا تذكرين يا رزان حين مرضت كم عانينا وتذللنا كي نجد من يداويك؟ بيدي هاتين حملتك أتوسل هذا وذاك دون رحمة من أحد!

ابتسم فجر متهكمًا بحزن من واقعه مستطردًا:

ـ نحن في الشارع لا قيمة لنا نمرض نموت بلا ثمن، أنتما لديكما أمل فأهلكما يريدانكما ليسوا كغيرهم ممن لا يريدون أطفالهم في حياتهم ويعتبرونهم عبئًا عليهم.

قاطعته رزان بتوتر:

ـ لكنني أخاف، أخاف أن نذهب إلى الشرطة فنفترق.

تنهد بصبر وهدوء وحكمة:

_ ألم يشرح لك العم سند الأمر؟ وكما تقولين فالعم سراج أيضًا قد فعل، أنا متأكد أن جدتك قد قدمت بلاغًا إلى الشرطة بفقدكما، مثلها لا يتنصلون من أبنائهم، ثم مم تخافين؟ أن تذهبا إلى دار رعاية فتتفرقا؟ أليس ذلك أفضل من خسارة أحدكما للآخر بمرض أو اختطاف؟

وضعت كفها على قلب أخيها النائم تتمسك بثيابه، ذكرى محاولات خطفه طافت بقلبها فأرجفته، فزعها من مرضه وخوفها من فقده.

_ حينما يعود العم سند سنفعل ذلك، لكن ليس قبلها، هو وعدنا أن يتعهد برعايتنا أمام الشرطة ولا نتفرق.

أومأ إليها برأسه مبتسمًا ذاك الرأس الصلد اليابس يذكره بأحدهم، بلى، هو نفسه فجر العنيد الكتوم شديد البأس صلب الرأس، لكنه ما زال طيب الروح نقي القلب، ظاهره الشدة والغموض، باطنه الرحمة ولين القلب.

_ حسنًا ذات الرأس الصلب، ها قد مرت ثلاثة أشهر على سفر العم سند وتبقى شهر على عودته، فات الكثير وبقي القليل.

ضيقت عينيها بغيظ من كلمته، كزت على أسنانها تقول من بين أضراسها بغضب طفولي تكتمه:

_ أنا لست ذات رأس صلب.

أخرج ذات العقل الرزين عن طورها فأغضبها؛ يا له من طفل كبير يستمتع بمشاكسة من حوله مازحًا مرحً!! هدأ من ضحكاته وقال بجدية متصنعة:

_ بل أنت ذات الرأس الصلب الحديدي أيتها الفتاة.

اتسعت عيناها غضبًا برزت شرايينها غيظًا وهتفت بحنق طفولي كانت قد نسيته:

_ أنا لست كذلك، لا تغضبني.

هنا انضمت إلى صفها شروق مؤازرة:

ـ بلى، رزان ليست كذلك هي حلوة طيبة.

ربما لا تفهم شروق معنى ذات الرأس الصلب، لكنها تعلم أن رزان صديقتها وتحتاج إلى الدعم في هذه المعركة. انضم إليهما أيضًا ضياء ينظر إلى فجر بتعال وغيظ قائلًا:

ـ بلى، رزان ليست كذلك! بل هي طيبة القلب.

نظر له فجر رافعًا حاجبيه قائلًا:

ـ يا لها من حرب ضروس خانني فيها الصديق وانضم إلى الأعداء.

قهقهات عالية صدرت من حيدر وليث وصبح، هتف حيدر بحزن متصنع:

ـ كل أصدقائك خانوك يا فجر، استسلم خير لك!

أجابه بجدية وحزن متصنع:

ـ لن أستسلم، سأهزم رافع الرأس.

تعالت الضحكات من الجميع، ضحكات تخرج من قلوب دافئة رغم الصقيع.

***

ـ كيف حالك اليوم أيها البطل؟

سأل العم سراج يوسف فأجابه بتعب:

ـ حمدًا لله، رأسي يؤلمني قليلًا وأسعل كثيرًا.

نظر إلى رزان متسائلًا:

ـ ولماذا أتيت به؟ كان يجب أن يرقد متدثرًا.

لم تستطع إجابته شخص بصرها بعيدًا عنه، أتقول له خفت أن أبقى في الحديقة أنا وهو وحدنا أو حتى معنا شروق وضياء فيأتي فتيان المعلم ويؤذونا؟

ـ خفت أن أبقى وحدي معه في الحديقة دون إخوتنا.

أومأ لها متفهمًا خوفها، طلبت منه كيس الحلوى ككل يوم فسألها:

_ لماذا؟

قطبت ما بين حاجبيها بعدم فهم، ثم أجابته:

_ كي نبيع الحلوى ككل يوم.

جذب يوسف من كتفه برفق ثم قال:

_ لا، لـن تذهبـا، يوسـف مـا زال مريضًـا سـتبقيان معي هنا، هـات دواءه واجلسا حالما أحضر إفطارًا لنا.

أومأت برأسها بالنفي قائلة:

_ يجب أن أذهب إلى العمل يكفي أنني لم أعمل بالأمس.

نظر إليها محدجًا فزاغت ببصرها ثم استطردت قائلة:

_ صدقني، لا بد أن أذهب.

تنهد بيأس من رأسها اليابس ثم قال بجدية:

_ إذَنْ، سيبقى معي يوسف.

اتسعت عيناها دهشة هي لم تعتد أن تفارقه ولو لساعات قليلة! لا تستطيع.

سألها بذات الجدية:

_ مـاذا قلـت؟ إما أن يبقى معي هو وإما أنتـما! هو لن يتزحزح من هنا وهو متعب هكذا.

زفـرت بضيـق وهي تنظـر إليه، يبدو عليـه بعض الإعياء والنعـاس بالفعل فاستسلمت.

_ حسنًا، سأذهب أنا ولن أغيب فقط سأبيع كيسًا واحدًا وأعود.

بالفعل ذهبت إلى عملها دقائق معدودات، ثم تعود تطمئن على صغيرها، ثم تذهـب تكمل عملها وهكذا تحت أنظار العم سراج المبتسـم من فعلها وحنانها وقلقها.

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث عشر

«وهو على جمعهم إذا يشاء قدير»

في أثناء عملها نادتها، إنها هي «أمل» صديقة فتاة المسجد نسمة، ليست المرة الأولى التي تتحدث معها فيها، بل في كل مرة تراها وأخاها في الشارع تناديهما لم تيأس منهما، ولا جواب لرزان ويوسفها سوى الرفض.

ـ كيف حالك يا رزان؟ وأين يوسف؟

سألتها بتعجب يحمل بين طياته قلقًا، فأجابتها رزان ببعض الحزن:

ـ مريض قليلًا!

ضيقت أمل عينيها تسألها:

ـ وأين هو؟ مع من تركته؟

تسألها بريبة فأجابتها رزان:

ـ مع أحد معارفنا في محله.

تنهدت أمل بحزن وسألتها:

ـ وبالطبع لم تذهبا إلى المشفى لعلاجه؟

أجابتها رزان بابتسامة تحمل الكثير من الامتنان:

ـ بل ذهبنا، أخذنا العم سراج إلى المشفى وأحضر له الدواء وهو الآن معه.

ابتسمت أمل منهما، يا لهما من طفلين محظوظين! سخر الله لهما من يكون لهما عونًا! كم من طفل شوارع لا يجد من يحمله إلى المشفى أو يداويه.

ـ حمدًا لله على سلامته.

قالتها لها ثم نظرت لها نظرتها التي لم ولن تمل منها ثم استطردت:

_ أما زلتما مصرين على عدم الإقامة معنا في الجمعية؟

أومأت رزان إليها برأسها مؤكدة على صمود قرارها، ملت من سؤالها ذات السؤال فقررت إنهاء الأمر.

_ سنذهب إلى قسم الشرطة حالما يعود العم سند الذي وعدنا أننا سنقيم معه بعدها.

لم تفهم أمل مقصدها فسألتها:

_ ولماذا ستذهبان إلى قسم الشرطة؟ لا أفهم.

تنهدت رزان بنفاد صبر وقالت:

_ حتى توصلنا الشرطة بجدتنا وخالتنا.

ما زال غموض القصة يوقف عقل أمل فقالت:

_ حسنًا، لا أفهم جل الأمر، لكن هلا أخبرتني بقصتكما، ربما يمكنني المساعدة وحلها.

ملت رزان من الحديث فقالت:

_ أخبرتك أن العم سند سيحل الأمر.

ربما شعرت أمل بالحرج، لكنها اعتادت الأمر فهو عملها الذي تطوعت بوقتها من أجله، فاعتذرت منها رزان:

_ آسفة لم أقصد مضايقتك.

كعادتها ورثت الطيبة ورقة القلب من أمها، تضايقت من نفسها لأنها أحزنتها فاستطردت:

_ حسنًا سأخبرك قصتنا ...

لم تبد أمل أي اندهاش أو تعجب أو حتى تأثر فقد سمعت الكثير من القصص المدماة لقلوب الجبابرة، لم تسمع فقط بل رأت بأم عينيها

ـ يـا لكما من طفلين عنيدين! الأمر يسـير أنتما فقـط من تصعبانه وتضيعان الوقت.

عقدت رزان جبينها بتعجب وقالت:

ـ ماذا تعنين؟

ابتسمت لها بحنان وقالت:

ـ من المؤكد أن جدتكما قد أبلغت الشرطة باختفائكما طوال هذه المدة.

قاطعتها رزان قائلة:

ـ وماذا إذا لم تكن تعرف ما فعلته زوجة أبينا، وظنت أننا مع أبي؟

أجابتها أمل بعطف وقالت:

ـ هنـاك طـرق كثـيرة تصل بها جدتك إلى طليقة أبيـكِ وخاصة عن طريق الشرطـة؟ بعض الإجـراءات والتحريات تقوم بها الشرطة تسـتطيع من خلالها التوصل إلى عنوانها.

تنهدت قليلًا ثم استطردت:

ـ صدقينـي حتـى لـو ظنـت جدتـك أنكما مـع أبيكما، فـلا بد أنهـا أبلغت الشرطة والتي لا بد أنها تبحث عنكما أيضًا، فلا داعي للانتظار حتى يعود العم سند مؤكد أن جدتكما يقتلها القلق عليكما.

يبـدو أن هـذا الـرأس الصلد قد تزحزح قليـلًا عن عناده، فكـرت قليلًا ثم سألتها:

ـ أتقصدين أن نذهب نحن إلى الشرطة وحدنا؟

ابتسمت لها أمل وقالت:

ـ لا ليس وحدكما، ما رأيك أن تأتيا معي إلى الجمعية؟

نحـن في جميـع الأحـوال قبل اسـتلام أي طفل نذهب بـه إلى الشرطة لعمل محضر باستلامه وإقامته معنا والشرطة بدورها تقوم بعمل بحث عن أي بلاغات

لديها باختفاء هذا الطفل أو اختطافه، هذا أفضل من أن تذهبا إلى الشرطة وتبقيا في القسم حتى تنتهي الإجراءات ثم يتم تحويلكما إلى أي دار رعاية أخرى قد تفرقكما فكما أخبرتك من قبل أننا في جمعية «نفس» نسمح بزيارة الأخوة.

وإذا لم تصل إليكما جدتكما – وهذا لن يحدث بإذن الله – ستبقيان معنا، وأيضًا يمكنني مساعدتكما فأنتما الاثنان بعمر متقارب يمكننا إدخالكما المدرسة ذاتها وبذلك تريان بعضكما كل يوم، أعتقد أن هذا أفضل من بقائكما في الشارع.

أجابتها رزان باندفاع قائلة:

_ لا، لا أريد! لا أستطيع البقاء بعيدًا عن يوسف لساعات، لن يبيت في مكان غير الذي أنا فيه! سننتظر العم سند ونذهب إلى الشرطة ثم نذهب معه.

تنهدت أمل منها بيأس وقالت:

_ ولماذا تنتظرين أمرًا غير مضمون؟

عقدت رزان جبينها فأردفت أمل:

_ إذا ذهب بكما العم سند إلى قسم الشرطة فلا بد أن تتم الإجراءات، وإذا علمت الشرطة أنه لا يعيش مع أسرته وغير متزوج، ربما لا تقبل تسليمكما إليه بتعهد هذا غير مضمون، لكن إذا أتيتما معي ربما تصلان إلى جدتكما دون انتظار كل هذا الوقت بلا داعي، ونحن سنعلن عن وجودكما لدينا عبر صفحات الإنترنت ونبحث بكل الطرق عن آلكما، صدقيني نحن لا نريد تكديس الدار لدينا بالأطفال فلدينا الكثير ونحاول قدر المستطاع ردهم إلى أهلهم.

لم تجبها، وطغى الجمود على ملامح وجهها، تنهدت أمل وقالت:

_ لا بأس، ما رأيك أن تعديني بالتفكير في الأمر؟ وأنا سأكون هنا في الغد بالموعد ذاته إذا بدلت رأيك!

ومدت يدها ببطاقة وقالت:

_ هذه بطاقة الجمعية عنوانها وأرقامنا، فلتبقيها معك.

أجابتها رزان بشرود:

_ معي أخرى كنت قد أعطيتها لنا.

ابتسمت أمل وقالت:

_ لا بأس فليكونا اثنتين.

ثـم ودعتها ومضت، وتلك الأعين التـي ما كلت من المراقبة تتابع ما يحدث دون شعور من أحد.

***

_ ماذا بك رزان؟ لماذا أنت شاردة هكذا؟

سألها ضياء فأجابته:

_ لا شيء، أنا فقط حائرة بعض الشيء.

انتبهوا لها جميعًا، وسألها فجر:

_ وماذا يحيرك يا ذات الرأس الصلب؟

يا له من فتى لا يفتر عن المشاكسـة! لكنها ليست بحال يسمح لها بالمجادلة. نظرت إليه بغيظ، ثم قصت عليهم ما قالته أمل.

_ لديها كل الحق، اذهبا معها أفضل لكما، لماذا تنتظران العم سند شهرًا آخر وهناك أمل أن تصلا إلى جدتكما في خلال أيام؟

قالهـا فجر وأيده بها صبـح، أما ليث وحيدر فالتزما الصمت فهما يميلان إلى رأي فجر، لكن ليث يخاف أن يفرط بأمانة العم سـند، عقله مقتنع بحديث أمل لكنه يتفهم خوف رزان من الفراق!

صاحت به رزان منفعلة بغضب:

_ وإذا تفرقنا ولم نصل إلى جدتنا، ماذا سيحدث لنا؟

أجابها بتعقل دون مزاح هذه المرة:

_ لن تخسرا شيئًا، بل على العكس، ستعودان إلى دراستكما وتعيشان بأمان

وحياة تشبه الحياة، تدرسان في ذات المدرسة هذا غير زيارتكما لبعضكما، هذه الدار أفضل لكما صدقيني.

أجابته بتهكم:

_ حقًّا؟! وما يدريك أنت بذلك؟

ابتسامة حزينة ارتسمت على ثغره وهو يقول:

_ لأنني كنت أقيم لديهم.

نظروا إليه مشدوهين، أحقًّا ما يقول؟! سألته رزان:

_ ولماذا إذَنْ تركتهم إذا كانوا جيدين كما تقول هكذا؟

تنهد قليلًا وقد كسى وجهه الحزن ثم أجابها:

_ لأنهم أعادوني إلى أهلي.

هذه المرة سبقها يوسف الذي استفاق من مرضه وعاد إلى ممارسة وظيفته وسأله:

_ حقًّا هل أعادوك إلى أهلك؟ ولماذا عدت إلى الشارع ثانية؟ ألا تحب أهلك؟

نظر إليه بعينين قد منع أدمعها من السقوط، لكنه لم يستطع منع شراينها من الاشتعال لوعة ثم قال بصوت حزين محتنق متحشرج:

_ أهلي! رحم الله أبويَّ كانا طيبي القلب، لم يبخلا عليَّ بشيء رغم رقة حالهما.

أخذ نفسًا عميقًا ثم أخرجه يخرج معه لهيب قلبه المحترق ثم أردف:

_ مات أبي مذ كنت في العاشرة من العمر، كان مريضًا وقد تداينت أمي لتنفق على علاجه، فإخوته أبوا أن يساعدوا في علاجه، وادعوا ضيق اليد، مات أبي وخيم الحزن على قلبي وأمي، ضاق بنا الحال فاضطرت أمي إلى أن تبيع المحل الذي كان يملكه أبي كي تتمكن من سداد الديون، ثم لم تجد بدًّا من البحث عن عمل كي تنفق على طعامنا ودراستي، فأنا ولدها الوحيد، وكنت

طالبًا أزهريًّا متفوقًا حافظًا للقرآن، عكفت أمي على العمل وتربيتي ودراستي عامين كاملين، حتى جاء يوم وانقلبت سيارة العمل بها وبزملائها في حادث تصادم، وذهبت هي الأخرى وتركتني وحيدًا وسط الذئاب.

جدتي لأمي كانت مريضة تعيش ببيت خالي الذي أبت زوجته أن يضاف على كاهلها حمل آخر، ربما تكون محقة؛ أما خالتي فزوجها أبى بمجرد عرض الأمر:

ـ لدينا فتيات في البيت، ولا يصح أن يكبر بينهن فتى غير محرم.

ونفس الكلمات قالها زوج عمتي، فاضطر عمي مكرهًا إلى أن يأخذني وسط أبنائه، فجدتي لأبي متوفاة منذ زمن.

لم يعاملني عمي بسوء لكن زوجته! كانت تترصد لي سواء أخطأت أم لم أخطئ، وكنت أتحمل فلا مأوى آخر لي حتى فوجئت بصياحها ذات يوم حين دخلت إلى الغرفة باندفاع وأشارت إليَّ صائحة:

ـ أين أخفيت الأموال أيها اللص؟

جحظت عيناي وفغر فاهي من الصاعقة، لا أفهم عم تتحدث ولا ماذا تقصد؟

ـ أي أموال؟ لا أعلم عم تتحدثين؟

دفعتني إلى الخلف وذهبت إلى خزانة الملابس ونقبت في ملابسي وأخرجت درزينة من الأموال، صعقت:

ـ من أين جاءت هذه الأموال؟ أنا لا أعلم عنها شيئًا، كيف أتت إلى ملابسي؟

جذبتني من كتفي وهي تهتف:

ـ هل تتصنع البراءة وتمثل عليَّ؟

وألقتني خارج البيت، كل هذا تحت مرأى ومسمع من عمي الذي لم ينبس ولو بكلمة واحدة! فقط كان يتابع الأمر بعينيه، ظللت أتذلل إليها وأتوسل إلى

عمي وأرجو أولاده، لكن أحدًا لم يحرك ساكنًا.

سكنت الشارع كحالنا هذا حتى قابلني أحد أفراد هذه الجمعيات وأقنعني بالذهاب معه فأنا لا أنتمي إلى الشارع أبدًا.

قالها بتهكم لكنها كلمة حق هو لا ينتمي إلى الشارع أبدًا، لا أحد ينبغي أن ينتمي إلى الشارع! الأطفال مأواهم البيت، الشارع ليس مأوى لأحد.

ـ سكنت معهم في الدار، كان المكان ليس بالرائع ولا بالسيئ، لكنه بكل الأحوال أفضل وأكرم من الشارع ومن بيت عمي!

تواصلوا مع عمي بعد أن قصصت عليهم حكايتي، وكالمرة الفائتة استحيا عمي منهم وأعادني إلى بيته، لكن هذه المرة كانت زوجه تعاملني أسوأ من ذي قبل؛ إهانات وسب وهمز ولمز. لم يمر الشهر علي ببيتهم حتى وجدتها تصرخ فيَّ:

ـ أيها السارق، سرقت خاتمي الذهبي.

هربت الدماء من جسدي:

ـ كيف ذلك؟ أنا لم أفعلها أبدًا.

وهذه المرة دست يدها في حقيبة مدرستي وأخرجته، ثم قذفتني بالشارع لكن هذه المرة ليست وحدها بل معها عمي الذي صفعني على وجهي ولكمني في كتفي قبل أن يدفعني خارج البيت:

ـ أيها اللص النذل ناكر المعروف، أتسرق زوجة عمك الذي آواك؟

أي معروف هذا وأي عم! وهو لم يتبين من صدق اتهام زوجته أو يسألني مبررًا. عدت هذه المرة إلى الشارع وقد أقسمت ألا أعود هناك أبدًا.

رقت قلوبهم الطاهرة لقصته، فتى صغير من أسرة محبة قدر الله ابتلاه باليتم، كل تنصل منه متبرئًا.

ـ أنتم جميعًا، فيم تشردون؟

أفاقهم بكلماته ملوحًا بيديه أمام وجوههم. اقترب منه يوسف مربتًا على

كتفه بعطف:

_ لا تحزن، لن تعود إلى عمك مرة أخرى ولا تتحدث إلى أحد من هذه الجمعية مرة أخرى حتى لا يرجعوك إليه.

ابتسم فجر من براءته وقال:

_ هل صدقتني؟ ألم أخبرك قبلًا أن الجميع كاذبون لا أحد يقول الحقيقة.

صدموا جميعًا منه، ثم قالوا بوقت واحد وهم يرفعون أكتافهم:

_ لكنك لست بكاذب.

نظر إليهم نظرة لم يفهموا لها معنى ثم أجابهم كعادته مع الجميع يحيرهم:

_ ربما، وربما.

قال وهو يجول ببصره بين رزان ويوسف:

_ لهذا أخبركما أن هذه الشابة محقة، هم بالفعل يحاولون إعادة الأطفال إلى أهلهم إلا إذا كانت عودتهم فيها خطر جلي عليهم.

شردا وازدادت حيرتهما أكثر فقال ليث:

_ ما رأيكما أن تهاتفا العم سند وتسألاه؟

أومأت رزان له برأسها دون أن تلاحظ ذاك الذي يرتجف قلبه هلعًا.

***

_ السلام عليكم، كيف حالك يا حبيبتي؟

أجاب هارون مريم التي كانت تهاتفه فأجابته بلهفة:

_ هارون لقد وجدناهما وجدنا طفلي رحمة.

فز هارون عن مكانه وسألها بلهفة مضاعفة:

_ أين؟ أين هما؟ وكيف وجدتموهما؟

أجابته تقص عليه:

ـ اليوم في مدرسة موسى ولدي الثانوية ناداه معلمه: أنت يا فتى أين اختفيت؟ أرسلت إليك عدة رسائل عبر الفيس بوك، وهاتفتك كثيرًا وهاتفك مغلقًا.

أجابه موسى بقلق:

ـ كان لدي مذاكرة كثيرة بالأمس فأغلقت التطبيق وهاتفي كان قد فرغ شحنه ولم أنتبه سوى وأنا قادم إلى المدرسة، هل هناك شيء؟

ابتسم له المعلم فرحًا ثم قال:

ـ بالأمس رأيت منشورًا لأحد الأصدقاء على صفحة الفيسبوك شاركه عن صفحة اسمها «أطفال مفقودون» لفت نظري صورة لطفلين صغيرين فتاة وصبي. شعرت أني رأيتهم من قبل حتى تذكرت منشورك عن طفلي خالتك المفقودين فدخلت على صفحتك أبحث عن صورتهما وبالفعل هما يشبهانهما إلى حد كبير، أرسلت إليك رابط المنشور في رسالة لكنك كنت في عزلتك هذه وهاتفتك كثيرًا حتى يئست.

اتسعت عينا موسى دهشة، أراه المعلم المنشور فهتف فرحًا:

ـ إنهما هما بالفعل طفلا خالتي وجدناهما أخيرًا، حمدًا لله.

هتف بها موسى فرحًا ثم هاتفني يبشرني وأرسل إليَّ رابط المنشور. إنهما هما بالفعل يا هارون، يوسف كبر وطال شعره ويبدو عليه التعب ورزان أيضًا قد كبرت ويبدو عليها الهم والحزن.

هتف بها هارون:

ـ أعطني العنوان بسرعة.

أجابته بفرحة:

ـ سأغلق معك وأرسل إليك رابط المنشور برسالة.

وبالفعل أرسلته إليه، نظر إلى الصورة متمعنًا بأعين دامعة من الحزن على

حالهما مختلطًا بالفرح. مسح دموعه بأصابعه ثم قرأ المنشور ووجد عنوانًا ورقم هاتف، لم يصبر حتى يهاتفه أخذ مفاتيحه وخرج مسرعًا، رآه حسام الذي أنهى مكالمته للتو مع مريم فلحق به.

_ هما بالفعل كانا يأتيان إلى هنا كل يوم، لكن مضى يومان دون أن يأتيا حتى أنني قلقت عليهما وسألت زملاءهما من أطفال الشوارع عنهما فلم يُفدني أحد.

هكذا أجابه سراج عند سؤاله مهرولًا إليه معرفًا نفسه وحسام.

_ أطفال شوارع!

***

_ لماذا تبكي يا رزان؟

استفاقت من شرودها على سؤال إحدى الصغيرات معها بالدار، مسحت بيديها الصغيرتين دموعها ولم تجبها، فيوسفها كان يحب هذا الفيلم الكرتوني، كم اشتاقت إليه ويهفو إليه قلبها يأكله الذنب لكن لا حيلة لها! تعلم أنه غاضب منها الآن لكنها فعلت ذلك ظنًّا منها أنه لصالحهما، عادت مرة أخرى بذاكرتها إلى قبل يومين:

_ السلام عليكم يا عم سراج، كيف حالك؟

أجابها بتلك الابتسامة التي لا تفارق ثغره:

_ بخير حال حمدًا لله! كيف حالك أنت؟ وكيف يوسف الآن؟

بالطبع سبقها يوسف بالإجابة:

_ أنا بخير يا عم سراج، حمدًا لله، فقط أسعل قليلًا.

قبل رأسه العم سراج بحنان وعطف وهو يقول:

_ حمدًا لله على سلامتك.

ثم التفت إلى رزان قائلًا بمرح:

_ كيس حلوى كل يوم؟

فأومأت له بابتسامة مقابلة ثم سألته:

_ هل أستطيع إجراء مكالمة هاتفية من هاتفك؟

ابتسم لها بمرح يقول:

_ العم سند؟

أومأت له برأسها مبتسمة خجلى فأعطى لها هاتفه المحمول وقال:

_ يمكنك الاتصال به حالما أعد لك كيس الحلوى.

هاتفت العم السند وأخبرته بما يحيرها فأجابها:

_ اذهبي يا رزان، لا تخافي واذهبي! واتركي بطاقتهم مع ليث وأنا حين أعود سأذهب لأطمئن عليكما هذا إذا لم تهاتفيني من بيت جدتك قبلها.

أنهت المكالمة وقلبها يرتجف، جميع من حولها يخبرها بالذهاب لكنها تخشى الفراق! لم تخبر يوسف بما قاله العم سند لم تستطع ويبدو أنه هو الآخر قلبه ينبئه بالإجابة بما يخشى سماعه فلم يسأل.

باعت الكيس الأول بعقل تائه، نظرت إلى يوسف تريد إخباره ومناقشته لكن قلبها ولسانها لم يطاوعاها، أخذت نفسًا عميقًا وأغمضت عينيها ثم قالت:

_ يوسف، ما رأيك أن نذهب إلى الجمعية؟ الجميع ينصحنا بذلك وكذلك العم سند.

يا إلهي ما خاف منه قد حدث! أومأ برأسه بالرفض فقالت رزان:

_ يقولون إن هكذا سنصل إلى جدتنا أسرع يوسفي! أيام قلائل نتفرق بها ثم نجتمع لكن لسنا وحدنا بل مع جدتنا وخالتنا.

صاح بها صارخًا:

_ لا لن نذهب، لا أريد أن تتركينني رزان أخاف أن نفترق إلى الأبد.

طفل صغير لا يستطيع أن يصوغ مشاعره، كيف له أن يخبرها أنه يخاف من دونها؟! كيف يصف لها شعور التيه الذي يحتله دون وجودها؟ هما جسدان

وروح واحدة إذا افترقا ماتت روحها ولو بقي الجسد. بكى وانتحب وهي مثله تبكي وتنتحب.

_ لن أتفوه بأسرارنا أو أتدخل بشأن الآخرين ثانية، صدقيني رزانتي ولا تفارقيني.

شهقاته تقطع نياط قلبها واحدًا تلو الآخر لا تستطيع التحمل. ضمته إلى قلبها لعل القلبين يربتان على بعضهما يطمئن أحدهما الآخر، أخرجته من صدرها بهدوء تمسح بأناملها الرقيقة دموعه تقول:

_ أنا لست غاضبة منك يا يوسفي، أنا أحبك كثيرًا لكن هذا أفضل لكلينا، وقد وعدني العم سند أنه إذا لم نخبره قبل عودته أننا أصبحنا ببيت جدتنا سيذهب إلى الدار ويفعل ما بوسعه لإخراجنا.

ثم حاولت التخفيف من بؤس الموقف وقالت:

_ لدي خطة، ما رأيك أن نتفق أن يأخذ كلًّا منا رقم هاتف العم سند وهاتف المحل الذي يعمل به ليث وإذا لم تأتِ جدتنا لتأخذنا في خلال أسبوع نهرب من الدار كما فعل صبح هو أخبرني أن الأمر سهل، ونهاتف من أحد المارة العم سند أو ليث ليأتي ويأخذنا. لكن بشرط لا يفعلها أحدنا إلا يوم الثلاثاء القادم أي بعد أسبوع.

يا للطفولة والبراءة، يخططان وينسجان بخيالهما خيوطًا يظنان أنها توصلهما بر الأمان، لا يعلمان أنها خيوط عنكبوت واهنة، ريح ضعيفة تطير بها تقذفها.

أصر على رفضه وهي تحاول إقناعه.

_ كيف حالكما أيها الصغيران؟ هل قررتما ولان الحجر الذي برأسيكما؟

إنها أمل عادت بموعدها. نظرا إلى بعضيهما يتشبث بكفها يرجوها ألا يذهبا. لم تفلت كفها بل جلست على ركبتيها لتكون مساوية له أعادت ضمه تبثه أمانًا لا تملكه ثم أفلتته من عناقها قبلت جبينه والتفتت إلى أمل تقول:

_ هل يمكنك انتظارنا دقائق؟

أومأت لها أمل بفرح فذهبت رزان تجذب يد صغيرها مسرعة إلى ضياء وشروق تخبرهما بما قررت وتودعهما وأعطتهما بطاقتي الجمعية كي يعطوا إحداهما إلى ليث والأخرى إلى فجر، طغى الحزن على الوداع وهل أصعب من الوداع والفراق؟!

ذهبا إلى العم سراج كي يودعاه لكنهما وجدا المحل مغلقًا للصلاة، ودا لو رأياه لحظة وداعهما يشكرانه على ظهوره كطيف ملائكي يحاوطهما بلطفه وحنانه. نظرا إلى المحل بحزن ثم ذهبا مطأطئًا الرأس إلى أمل التي تناديهما.

ركبا معها السيارة متشبثين ببعضهما وأنهار دموعهما تفيض دون أن تنتهي، ذهبا معها إلى قسم الشرطة وقامت بعمل محضر باستلام الجمعية لهما مع طلب منهم للشرطة للبحث عن جدتهما. ثم حانت لحظة الفراق التي لا يستطيع أحدهم وصفها، أهي كمفارقة الروح للجسد؟ أم ربما هي كقطع وتين القلب؟ هي لحظة لا وصف لها ولا تعبير، هي فقط لحظات الفراق والوداع!

متشبث بها يرجوها بعويل ينتحب هي مثله لا تريد الفكاك! يحاولون فصلهما عن بعضهما لكنهما كجسدين قد التحما. محايلات ووعود ومحاولات تهدئة لم تجد لساعات حتى أقبل الليل لم يستطيعا تفرقتهما، إلا حينما ناما من تعب البكاء.

استيقظت فزعة تنادي باسمه فما وجدت ملبيًا ندائها بل وجدت نفسها في سرير وسط فتيات صغار كل على سريرها، أفاقت على واقعها الذي تمنت لو لم يكن حقيقة.

مضى اليوم الأول في الفحص الطبي ثم الحديث إلى الأخصائية الاجتماعية ثم الطبيبة النفسية وهكذا مر وصاحبته مغيبة بعقلها شاردة بيوسفها، هل ستراه قريبًا ويجتمعان؟ تريد أن تراه! تعدها المشرفة أنها بمجرد انتهاء الإجراءات والفحوصات لها وله ستطلب من الإدارة زيارة لهما.

ترى كيف حاله الآن أيبكي مثلها؟ أما زال غاضبًا منها أم سامحها؟ هل

كرهها؟ هل يأكل ويشرب أم مثلها لم يذق الطعام منذ فراقهما؟ ترى هل كان قرارها صائبًا أم سيقتلها الندم؟

***

_ أطفال شوارع!

هتف بها هارون زائغ البصر بين حسام وسراج، أخفض سراج بصره حزنًا على حاله ثم أخبرهما بما قصته عليه رزان.

خانته قدماه وكاد أن يسقط أرضًا لولا أن أسنده حسام وأحضر له سراج كرسيًّا.

طفلا أخته أصبحا طفلي شوارع! من اعتادا العيش منعمين أصبحا متسولين! من كانا ينامان على فراش ناعم يلتحفان بغطاء دافئ ينامان على الأرض الصلبة يتدثران ببعضهما بعضًا!

_ أين يمكن أن يكونا قد ذهبا؟

سأل حسام سراج فأجابه:

_ لا أعلم، مذ أتيا صباح أول أمس لم يعودا بعدها، قلق قلبي عليهما وسألت عنهما كثيرًا ولم يطمئن قلبي أحد.

ماذا يخبئ لهم القدر؟ كلما اقتربوا من بعضهم تفرقت السبل، زفر هارون ثم مسح وجهه مستغفرًا.

_ تذكرت أمرًا.

هتف بها سراج فالتفتا له بقلبيهما قبل وجهيهما لهفة تسأله أعينهما دون أن ينطق بها لسانهما، فأجابهما:

_ العم سند، لقد هاتفته رزان قبل أن تذهب، ربما لديه خبر عنهما!

أمسك بهاتفه يهاتفه لكن...

_ هذا الرقم غير متاح حاليًا من فضلك أعد المحاولة في وقت لاحق.

أغلق مكبر الصوت والمهاتفة.

ملامح وجههم كساها اليأس والحزن تبخر أملهم جميعًا وتبدد.

_ أيمكنك إعطاؤنا رقم هاتفه؟

تبادلوا أرقام الهواتف ثم قال هارون:

_ هيا نسأل نحن أيضًا عنهما ونبحث، لعلنا نصل إلى أحد قد رآهما.

أغلق سراج محله وشاركهما بالبحث لكن دون جدوى الجميع يعرفهما لكن لا يعرفون أين ذهبا سوى أنهما كانا ينامان بالحديقة مع الإخوة وصبح وفجر، ذهبوا ثلاثتهم إلى الحديقة لكن لا يوجد أحد سوى المتنزهين بالحديقة لا أثر للعائلة.

قارب اليأس أن يبلغ مبلغه لولا أن هتف سراج مشيرًا إلى أحدهم:

_ هذا الفتى أنا أعرفه لقد رأيته معهما قبلًا.

هرولوا إليه بلهفة يسألونه فأجابهم:

_ من أنتما؟

سألهما دون أن يسأل سراج فأجابه هارون:

_ أنا خالهما وهذا زوج خالتهما.

سألهما الفتى مرة أخرى:

_ وما الذي يؤكد لي ذلك؟ هما أخبراني من قبل أن خالهما يعمل بالخارج.

نفذ صبر هارون غير منتبه إلى هاتفه الذي يدق وصاح بالفتى:

_ هل تعرف مكانهما أم لا؟

أجابه الفتى ببرود:

_ ربما وربما.

_ هارون، يجب أن نذهب إلى قسم الشرطة لقد وصلوا إليهما وهاتفوا

أمك كي تذهب لاستلامهما وهي في طريقها إلى هناك مع مريم.

هتف بها حسام، هرع هارون مهرولًا إلى سيارته فهتف فجر وسراج بذات الوقت:

ـ إنهما بجمعية نفس لمن لا مأوى لهم.

نظر إليهما هارون وحسام بتعجب فأوضح سراج:

ـ أعاد سند الاتصال بي عندما وصلته رسالة – هذا الرقم حاول الاتصال بك – في أثناء محادثتك مع الفتى فأخبرته بما حدث فأخبرني بمكانهما.

أومآ إليه برأسيهما متفهمين دون أن يعيرا الفتى أي اهتمام وذهبا مسرعين.

❋ ❋ ❋

أنهوا الإجراءات وحان وقت استلام الطفلين.

ـ لدينا هنا طبيبة نفسية للأطفال تتابع الأطفال المقيمين بالدار، لكنهما لم يبقيا معنا سوى يومين لذلك لا بد من عرضهما على طبيب نفس أطفال بعد خروجهما ما مرا به ليس هينًا ولا بد أن يترك أثره بنفسيهما.

ثم وضعت أمامهما ملفًّا وقالت:

ـ وهذا تقرير الفحص الطبي يجب أن تروه لتعلموا ما الذي حدث لهما من أضرار جسدية وما مداه وأثره عليهما نفسيًّا، ثم فتحت أوراق الملف وأشارت على بعض الأسطر.

أخذه هارون منها يقرأه جحظت عيناه من هول الصدمة فسقط منه الملف، تناولته مريم لتعلم لماذا صعق هارون هكذا فقرأته وحسام بجانبها يشاركها قراءته فإذا بها تكتم شهقاتها ويزيغ بصرها وتنهال العبرات على وجنتيها دون تحكم أمسك بها حسام يساندها وقد غرز سكين الصاعقة بقلبه وتاه عقله وأبى أن يرجع.

يكاد قلب الجدة يخرج من بين أضلاعها لماذا كل من يقرأ التقرير يذهل

هكذا؟ سألتهم فلم يجيبوا فجذبته من يد مريم بشدة تزيغ عيناها بين السطور من شدة التوتر حتى وقعت عيناها على ذات الأسطر ويا ليتها ما رأتها، وقعت الجدة على إثرها أرضًا مغشيًّا عليها.

ـ أمي!

صرخت بها مريم فزعة، حاولوا إفاقتها لكن دون جدوى، حملها هارون وساعده حسام وذهبوا بها إلى المشفى.

***

ـ مر يومان ترى هل سينفذ يوسف خطتنا إذا لم تأتِ جدتنا لاستلامنا؟

هل يمارس مهنته ويثرثر بأسرارنا؟ هل يروي فضوله بشؤون من حوله؟

ـ رزان تعالي أهلك حضروا لاستلامك.

قالتها إحدى المشرفات لها بسعادة، لم يستوعب عقلها ما سمعت أذناها تجمدت بمكانها، أحقًّا أجيبت دعوتها وستجتمع مع جدتها ويوسفها؟!

ـ هيا يا رزان، هيا أسرعي.

يا إلهي! أهذه خالتها؟ أهذا خالها؟ ظنت أنها قد نسيت ملامحهما، تجمدوا بأماكنهم فقط تفيض عينا مريم بما يجيش قلبها وهارون وحسام تحجرت الأدمع بأعينهما.

خطوات صغيرة تخطوها مريم كأن قدمها تحمل أثقالًا تعيق سيرها.

ـ هيا يا رزان، اذهبي إليهم، ألم تكوني تتوقين إلى رؤيتهم؟

أفاقت من تيه عقلها وهرولت إليهم، تلقفتها ذراعا مريم تعانقها تكاد تعتصرها داخل حضنها، سقطتا على الأرض كل منهما تنتحب.

مسح هارون دموعه وقال محاولًا المزاح تخفيفًا من تلك الأجواء الكئيبة القاسية:

ـ وخالك؟! أليس له عناق كبير مثل هذا؟

مسحت وجهها بباطن كفيها وابتسمت له فجذبها إلى حضنه لكنها أجفلت منه فشعر بها، تجمد وجهه صدمة يفهم ما بها ليته ما فهم وما وعي لما حدث، مسد حسام على شعرها قائلًا:

_ حمدًا لله على سلامتك يا رزان.

وقبل رأسها، ثم استطرد:

_ ألن نذهب كي نحضر يوسف؟ أم لا تريدونه؟ سأخبره.

قالها ممازحًا فابتسمت رزان له وأومأت برأسها بلهفة وقالت:

_ نعم، هيا بنا.

وجذبت يد خالتها مريم تجرها مسرعة، تسارع خطاها دقات قلبها لكنها استوقفتهم فجأة وقالت:

_ أين جدتي؟

***

حسنًا هو غاضب منها فهي من تخلت عنه، هي من أرادت الفراق لذا لن يبكي لفراقها! لكنه اشتاق إليها، تفتقدها روحه، هناك خواء داخل قلبه لا يمتلئ بلعب أو حديث أو مشاهدة فيلم كرتوني. حين استيقظ ولم يجدها جواره وظل يبكي ويصرخ باسمها، وعدوه أن يراها ويزورها، ترى أسيصدقونه حقًا أم يكذبون عليه؟ أخذ عهدًا على نفسه إذا رآها لن يحادثها وسيخاصمها.

_ هيا يا يوسف، تعال، هناك من أتى من أجلك.

قطب ما بين حاجبيه، ترى أهي رزان قد جاءت لزيارته؟ لكنهم أخبروه أن الزيارة ستكون بعد أيام من اليوم. مضى مع المشرفة حائرًا يفكر حتى وصل أمامها... لم ير غيرها رزانته، ارتمى يعانقها يبكي يخبرها كم اشتاق إليها، نسي كم كان يتوعدها منذ دقائق ألا يسامحها أو يتحدث إليها. تقبل رأسه تفلته من ضمتها تملأ عينيها برؤياه كم أوحش قلبها.

_ نحن هنا أيها الأخوان.

قالتها مريم من بين دموعها، ابتسمت رزان وقالت:

_ خالتنا مريم يا يوسف قد جاءت كما كنا ننتظرها وخالنا هارون أيضًا قد أتى وسيبقى معنا.

حمله خاله معانقًا إياه وكذلك فعلت مريم برزان، عناق جماعي يبث شوقًا وحرمانًا ووعدًا بعوض جميل آتٍ.

هتف حسام بهم:

_ هيا أيتها العائلة السعيدة فالجدة تنتظرنا على أحر من الجمر.

ذهبوا جميعًا إلى الجدة فهرولا إليها يرتميان بحضنها وهي نائمة بسريرها بالمشفى. بكت بكاء اشتياق وقهر على حفيديها وما قاسياه.

_ حمدًا لله على سلامتك يا جدتي.

قالتها رزان لها بابتسامتها الحنون والتي تشبه ابتسامة أمها، ابتسمت لها الجدة بألم فسألها يوسف:

_ جدتي، لن تموتي وتذهبي مثل أمي، أليس كذلك؟

نظروا إليه جميعًا بصدمة! طفل صغير فقد أمه مريضة بالمشفى، فهل يعني له سرير المشفى سوى فراش للموت؟! أجابته رزان بغيظ:

_ ماذا تقول يا يوسف؟ ادعُ لها أن يشفيها الله.

أخفض بصره قائلًا:

_ شفاكِ الله جدتي.

ثم قال بمرح:

_ هيا يا جدتي، خذي الدواء كي تشفي، أريد أن أذهب إلى البيت وألعب مع أولاد خالي وخالتي.

ثم استطرد غائظًا شقيقته:

ـ ولن ألعب مع رزان هذه.

شهقت رزان بغضب قائلة:

ـ أنا التي لن تلعب معك، العب معهم ولا تحادثني أبدًا.

ضحكوا منهما على طفولتهما وبراءتهما التي ما زالا يحتفظان بها رغم كل ما قاسياه. وضعت مريم ذراعها تحاوط رزان وتقول بمرح:

ـ حسنًا رزانتي أنت ستلعبين معي ومع ابنتي، وهو يلعب مع الصبيان مثله.

فغر فاهه واتسعت عيناه، ثم قال هاتفًا يبعد ذراع خالته عنها:

ـ لا تناديها رزانتي! هي رزانتي أنا وحدي، هي أختي وستلعب معي.

ثم خطا فوق جدته النائمة متعبة يجذب رزانته يعانقها دون أن يعي تأوه جدته المتألمة من قدمه التي دهستها في فراشها.

ضحكات ملأت أرجاء الغرفة بالمشفى، أعادت إلى الروح المريضة حياتها وحيويتها.

***

الخاتمة

بعد سبعة عشر عامًا

_ لماذا تصر عليَّ للحضور معك إلى هنا؟ أنا عملي مكتبيٌّ لا ميداني.

نظر إليه نظرة جانبية مبتسمة ثم أجابه:

_ ألا يذكرك هذا المكان بشيء ما؟

شخص ببصره باسم الثغر متنهدًا ثم قال:

_ وهل نسيت يومًا؟! مثل هذا المكان كان هو منجانا ومأوانا، كان يد العون التي انتشلتنا من قاع الخبث.

زاد اتساع ابتسامة الآخر وهو يتمتم:

_ هذا المكان خاصة يذكرني بأطهر قلبين قابلتهما وربما كانا هما سبب رجوعي عن طريق الشقاء.

عقد صاحبه ما بين حاجبيه مضيقًا عينيه وقبل أن يسأله التفتا على هتاف أحدهم:

_ ألم أقل لك ألا تتحدثي مع الصبية؟ أنت تتحدثين مع الفتيات وأنا مع الصبيان؟

هتف بها يوسف معاتبًا رزان بعصبية، فجحظت عيناها غضبًا وقالت:

_ هل جننت يا يوسف؟ إنه طفل في التاسعة!

ابتسم متهكمًا، ثم قال وهو يكز على أسنانه:

_ حقًّا حقًّا! وهل هذا الطفل الصغير لا يستطيع أن يتجاوز حدوده معك رزان؟

حركت رأسها يمنة ويسرة تبتسم بيأس منه تبدلت الأدوار وأصبح هو من

يخاف ويرعى.

_ معذرة، هل تعملان بالجمعية هنا؟

سألهما الشاب الثلاثيني مستفهمًا، جذب يوسف رزان خلف ظهره ثم أجابه:

_ بلى نحن نعمل هنا بجمعية "نفس" لمن لا مأوى لهم، وأنت؟

اعتدل الشاب في وقفته رافعًا رأسه ثم أجابها بوجه جامد:

_ أنا المهندس الذي سيقوم بتركيب كاميرات المراقبة والحواسب الآلية. أين مكتب المدير؟

أشار يوسف إلى المكان فاستأذن منه الشابان وذهبا في طريقهما، نظر الشاب إلى صاحبه نظرة ذات معنى ففهمه وانطلقت منهما ضحكات مدوية.

يوسف ورزانته ينظران في إثرهما، هذا الشاب يشبه أحدهم لكنهما لا يتذكران من؟ ملامح مألوفة وصوت رخيم ونظرات ثاقبة، لكن من هو؟! نظرا إلى بعضهما بعد رحيله متعجبين ثم ذهبا خلفهما إلى مكتب المدير.

***

عرف الشاب عن نفسه لهارون مدير الفرع الجديد للجمعية والذي كان يجتمع معه حسام وعرف عن صاحبه قائلًا:

_ مدير حسابات الشركة.

ظلت رزان شاردة ذكرها هذا الشاب بأحدهم، ابتسمت لذكراه.

طلب هارون من يوسف أن يأخذ الشابين بجولة بالمكان كي يعايناه ويحددا ما سيقومان بعمله. أومأ له يوسف وقال للشابين:

_ تفضلا معي.

فقال له الشاب بوجه جامد متعال:

_ حسنًا أيها الفضولي.

اتسعت عينا رزان وفغرت فاه أما يوسف فغضب لوصفه إياه بالفضولي

فهتف:

_ أنا لست فضوليًّا، وهل تعرفني حتى تناديني هكذا؟

ضحك منه الشاب مقهقهًا وقال:

_ ربما، وربما.

هتفت رزان بدهشة:

_ فجر!

نظـر إليها لحظة نظرة أخجلتها فأخفضت بصرها حياءً ثم غض بصره بعيدًا وأومأ برأسه. صاح بها يوسف قائلًا:

_ هل تعرفينه يا رزان؟

أومأت برأسها، وما زالت دهشتها تحتل وجهها ثم قالت:

_ إنه فجر الذي كان معنا بالشارع والذي أنقذنا مرات عديدة.

ابتسم وجه فجر ثم جذب يد صديقه وقال معرفًا إياه:

_ وهذا صبح.

هنا تدخل هارون متعجبًا وقال:

_ كيف حدث هذا؟ أقصد كيف أصبحتما هكذا؟

سألهما هارون لم يعرف كيف يصيغ سؤاله فقاطعه فجر مبتسمًا:

_ بعد رحيلهما حاولنا أنا وصبح إقناع ليث وإخوته بالسفر إلى الإسكندرية كما خطط لهم صاحب المحل الذي كان يعمل به ليث لكنهم أبوا التخلي عنا إلا بعد عودة العم سـند. وقتها وبعد أن قابلتك حين سـألتني عن رزان ويوسـف وتأكدت أنكم توصلتم إليهما.

عقد هارون ما بين حاجبيه وقاطعه قبل أن يكمل هاتفًا بمرح:

_ لا تقل أنك ذاك الفتى المستفز الذي حيرنا وأفقدنا صبرنا.

ضحكـوا جميعًا وابتسـم فجر متحمحـمًا متحرجًا وهو يومئ إليـه بالموافقة، فردد صبح كلمته:

ـ ربما، وربما.

استمرت نوبة الضحك حتى قطعها حسام قائلًا:

ـ أكمل ما كنت تروي.

استطرد فجر قائلًا:

ـ لم نجد أنا وصبح بدًّا سوى الرحيل، حتى ييأسوا ويذهبوا دون أن نكون عقبـة في طريـق نجاتهم وتركنا لهم رسـالة ورقية مع ضيـاء وشروق. انتقلنا إلى منطقة أخرى وهناك قابلنا أحدهم من إحدى الجمعيات حاول إقناعنا فأجبناه:

ـ نحن موافقان، لكن لدينا شرطًا واحدًا.

تعجب منا ثم أومأ برأسه لأكمل فأخبرته:

ـ عدم إعادتنا إلى أهلنا.

حاول أن يستفهم منا فأخبرناه بقصتينا ولم نكذب حتى لو ظن بنا ذلك.

سـاعدتنا الجمعية باستكمال دراستنا، كانوا دومًا يحاولون إقناعنا بالعودة إلى أهلنا وكلما سـألنا أحدهم عن عنوانهم للتواصل معهم لعلهم يصلون إلى نقطة تفاهم بيننا وبين آلنا كان الصمت جوابنا.

كان أحـد زملائنا بالدار يعمـل مع أحد المتطوعين بالـدار بمحله، ومضت الفكرة برأسـينا وطلبنا منهم توفير عمل لنا مع دراستنا وبالفعل عملنا مع أحد الشـباب والذي كان يملك مطعمًا صغيرًا وكنا تحت ناظريه يتابعنا، وكان يومنا ما بين دراسة وعمل وبيات بالدار، حتى أتممت عامي الثامن عشر تركت الدار لكن الشـاب صاحب المطعم أصر أن يستمر عملي معه وأن أبيت بالمحل، ذلك لمـا رآه منـي من أمانـة وضمير بالعمل، رغـم أن الدار كانت توفـر أحيانًا عملًا بأحـد المصانـع الذي يوفر سـكنًا مشـتركًا للعاملين به. حتى جاء يـوم وفي أثناء

عملي فوجئت بوكيل مدرستي الإعدادية الأستاذ أبو بكر والذي كان قد انتقل إلى مدرسة أخرى عند عودتي لاستكمال دراستي.

_ فجر! أهذا أنت؟ كيف حالك يا فتى؟ لماذا تركت المدرسة يا بني؟ كنت دومًا من الطلبة المتميزين المتفوقين؟ ما الذي حدث؟

هتف بها متعجبًا لم يترك لي فرصة للإجابة فانتظرت حتى انتهى وأخبرته بكل ما جرى فهو كان دومًا لنا أبًا حنونًا قبل أن يكون معلمًا. حزن من أجلي وقبل رأسي كما كان يفعل أبي لكنه سعد كثيرًا لعودتي إلى دراستي.

فى اليوم التالي عاد إليَّ يخبرني:

_ ستأتي لتعيش معي أنا وزوجتي، لم يرزقنا الله بأبناء وستكون أنت ابننا.

أبيت استحياءً لكنه أصر وعقد العزم على ذلك، لم يتركني حتى أنهيت دوامي وأخذني من يدي إلى بيته. كان لي أبًا ومعلمًا، كان يشرح لي دروسي التي تستصعب عليَّ. تولى مصروفات دراستي وطلب مني ترك العمل حتى أتفرغ لدراستي لكنني أبيت؛ يكفي تحمله مصروفات دراستي أنا أتحمل مصروفاتي الشخصية، عندما أتم صبح عامه الثامن عشر أصر أبي أبو بكر على أن يعيش معنا وهكذا أصبحنا عائلته وما زلنا نعيش معًا.

عندما تخرجنا ساعدنا صاحب المطعم بتوفير عمل لنا لدى معارفه، حتى اكتسبنا خبرة وأنشأنا أنا وصبح منذ عام شركة صغيرة لأجهزة الحاسوب وكاميرات المراقبة، صبح يدير حسابات الشركة وأنا إدارة الشركة ذاتها.

هذه قصتنا مذ رحلنا حتى أتى إلينا السيد هارون اليوم صدفة طالبًا تركيب كاميرات للدار هنا.

نظرات إعجاب من الجميع ببأس هذين الشابين قطعها سؤال صبح:

_ وماذا عن ليث وأخوته؟ هل تعلمون عنهم شيئًا؟ هل سافروا إلى الإسكندرية؟

هنا تحدثت رزان وقالت على استحياء:

_ بعدما عدنا هاتفنا العم سند نخبره ففرح كثيرًا، وأخبرنا أن ليث أخبره أنهم بالإسكندرية. وعندما عاد العم سند من سفره زارنا وأخبرنا أن صاحب المحل الذي يعمل به ليث وصديق له تشاركا في دفع دين أبو ليث وخرج بالفعل من السجن، لكنه لم يجد عملًا لأن له سابقة سجن فعمل مع ليث بالمحل ذاته حتى توافر عمل مدير حسابات للمحل فعينه صاحب المحل بعد أن رأى أمانته.

ابتسم الشابان بسعادة ونظرات أحدهما جعلت وجنتي الفتاة تتوردا وتنظر أرضًا خجلًا مما جعله يغض بصره ندمًا. ثم تحمحم موجهًا حديثه لهارون سائلًا:

_ أليست هذه الدار ذاتها التي أتيا إليها وهما صغيران؟

سأل وهو يشير إلى يوسف ورزان فأجابه هارون:

_ بلى، لكن هذا فرع منها أسسناه خصيصًا للأسر، الأخوة والأمهات وأطفالهم والآباء وأطفالهم.

ابتسم فجر مقاطعًا إياه:

_ حتى لا يتفرقوا؟

أومأ إليه هارون وبالطبع لم يستطع أحدهم الصمت طويلًا هكذا فتدخل قائلًا:

_ سيبقى الأطفال مع أمهاتهم حتى تصبح الأمهات قادرات على تربيتهم تربية نفسية وتربوية صحيحة ونوفر لهن عمل ونعمل على حث فاعلي الخير على توفير مسكن للأم وأطفالها. أما إذا أتى إلينا إخوة صبيان وبنات فإذا كان الصبي دون العاشرة فيبقى مع أخته أو إخوته هنا طوال اليوم تحت أعين المشرفات ومراعاة الأمهات فإذا أتم العاشرة ينفصل الأطفال كل مع جنسه والفرع الخاص به، لكن هناك يوميًّا لقاء لهم في نادي "رحم" الملحق بالمبنى هنا. وإذا كانت الحالة لأب وأطفاله فإنه يذهب إلى مبنى الرجال حتى يتوافر له عمل وسكن ويجتمع مع أبنائه يوميًّا أيضًا بنادي "رحم".

هنا قال هارون مازحًا:

_ كان معكم المتحدث الإعلامي لمؤسسة "نفس" يوسف.

ضحكوا جميعًا من جملته إلا أحدهم نظر إليهم بغضبه الطفولي الذي لم يكبر وهتف:

_ أنا فقط أخبره بماهية عملنا!

وهَمَّ أن يذهب مع ضحكاتهم المكتومة جميعًا لولا أن أمسكته رزان من ذراعه قائلًا:

_ لا تغضب يوسف خالنا يمزح معك.

هتف به خاله:

_ اجلس يا يوسف.

فأيده فجر قائلًا بمزاح:

_ اجلس يا يوسفها.

نظروا إليه جميعًا فتحرج قائلًا:

_ آسف هكذا اعتدت مشاكسته في صغره.

***

دقات قلبها تكاد تخترق أضلاع صدرها. كفَّاها يعتصران بعضهما. أما وجنتاها تشتعلان حمرة. لا تستطيع رفع عينيها عن الأرض من التوتر والخجل.

_ أعتقد أنك تعرفين كل شيء عني وأنا كذلك فهل هناك ما تريدين سؤالي عنه؟

سألها فجر في أثناء الرؤية الشرعية. أومأت برأسها بلا.

ابتسم وهو ينظر إلى هارون قائلًا:

_ أخبرني خالك أنك ترفضين الأمر برمته وأنه من أصر على هذه الجلسة. فهل لي أن أعرف السبب؟

يأبى صوتها الخروج من حلقها ولسانها أصابه الخمول جبينها متعرق.

_ أخـاف. أخـاف المغامرة، أخـاف أن أثق بأحدهم ثم يكشـف عنه القناع فأجده نسخة من أبي. أخاف من نفسي ألا أكون كما كانت أمي لنا. أخاف أن لا أكون زوجة صالحة.

ثم أخفضت رأسها وقالت بصوت خفيض:

_ أخاف من الزواج.

فهمهـا وفهـم مقصدها. منذ صغرهما وهـو يفهمها. هو ليـس بالغبي يعلم مكنـون كلماتها الذي تواريه. يعلم أنها فقدت الثقة بنفسـها وبمن حولها. تخاف مذ أوذيت من وحوش الشارع. لكن لا بأس هي تستحق الصبر والمثابرة

_ وهل يليق بطبيبة نفسية أن تخاف وتفقد ثقتها بنفسها هكذا؟

قالها مسـتفزًّا إياها كعادته. رفعت عينيها عـن الأرض فجأة فالتقت عيناها عينيـه. يكفـي هذا أيها القلب قـد أهلكتني كفى خفقًا بقـوة وسرعة هكذا تكاد أضلعي أن تتهشم.

أخفضت عيناها سريعًا ثانية وقالت:

_ بعدما عدنا إلى هنا أخذتنا جدتي إلى طبيبة نفسـية للأطفال. كنت أشـعر بالراحـة معها وكنت أخرج من عندها سـعيدة. وقـررت وقتها أن أكون مثلها. ظننـت أنني قد تجاوزت كل الصعاب وانتهـى كل ما مر بنا ومضى دون رجعة. لكننـي كبرت! وحان وقت الاختبار؛ مع أول من دق باب خطبتي فهمت أنني أبـدًا مـا تجاوزت أنا فقط تعايشـت، تعايشـت مع مـا مر وما مضى لكنـه أبدًا ما تركني ورحل. أصبحت كما تمنيت طبيبة نفسـية للأطفال وأعيش حلمي بإنقاذ أطفال الشوارع. ربما أستطيع مساعدتهم لتجاوز ما لم أستطع تجاوزه. ربما وربما.

قالت كلماتها الأخيرة تبتسـم حتى سقطت على كفيها الرقيقين دمعة جعلتها تدرك كم فاضت عيناها من الدموع دون أن تشعر.

هرول إليها يوسفها يمسح أدمعها ويقبل رأسها.

تحمحم فجر وقال:

ـ مـن قـال إننا نسـتطيع تجاوز الماضي فهو كاذب. المـاضي يمضي ويترك بنا جراحًا ربما تندمل لكنها تترك ندوبًا لا تمحى. لكننا معًا نستطيع أن نجعل هذى الندوب مصابيح هدى تنير لنا طريقنا توقفنا إذا ضللنا الطريق. تظهر لنا أغوار أنفسنا الخفية لنصلحها.

ـ لماذا أنا؟ ولماذا لم تتزوج حتى الآن؟

ضحك من سؤالها وقال:

ـ لماذا لم أتزوج إلى الآن؟!

لن أكذب عليك. أنا بالفعل تقدمت لخطبة إحداهن منذ سنوات لكن حينما علمت وأهلها بماضيَّ أبوا وقالوا:

ـ لن نعطي ابنتنا لرجل كان يسكن الشارع لا أهل له ولا نسب.

بالطبـع غضبت وحزنـت لكنني تجـاوزت وقررت أن أكمـل طريقي حتى أصل إلى هدفي ويأتي اليوم الذي أفتخر أمام نفسي أنني أستحق؛ أستحق النجاح والحياة وأستحق أن أفتخر بأنني أنا.

أمـا لمـاذا أنت؟ فبالطبع لم تكن قصة حب مراهقة طفولية فقد كنت أنا بطور المراهقـة وأنت طفلـة صغيرة. لكن حينما التقينا ثانية رأيتك كما كنت تلك الفتاة البريئـة الحييـة والتي أراها تسـتحق أن تعطي نفسـها فرصة لتفتخر بنفسـها كما يفتخر بها جميع من حولها. فهل ستعطينها أنت هذه الفرصة؟!

ابتسامة خجلى غزت ثغرها دون إرادة منها. لم تستطع الجواب فأجاب عنها هارون قائلًا:

ـ سأخبرك جوابها في خلال أيام قلائل.

والتفت إليها ثم أعاد النظر إلى فجر مبتسمًا يغمز له بعينه ويقول هامسًا:

ـ أبشر، إن شاء الله خيرًا.

***

_ إلام تنظرين أيتها الفتاة؟

قالها فجر ممازحًا رزان محيطًا كتفيها بذراعه. ابتسمت له قائلة:

_ أراقب الأطفال وهم يلعبون. أذكر حين أتوا إلى الدار هاهنا كيف كان حالهم رافضين البقاء والآن يضحكون ويمرحون ويشعرون بأمان كان قد ضل عنهم.

ضحك منها فجر وقال بهمس مشاكسًا:

_ هل أخبرك سرًّا؟

ضيقت عينيها وأومأت له بنعم فأجابها:

_ كان هناك عينان تراقبكما بالشارع مثلما تفعلين الآن لكنها أبدًا لم تفارقكما أو تفتر عن متابعتكما.

عقدت جبينها وقالت:

_ عينا من؟

ابتسم ينظر إلى الأطفال مردفًا:

_ عينا فتى رأى فيكما نفسه قبل أن يتلوث. حقًّا كان يبغضكما بداية الأمر. فلا أحد يحب من يذكره بسوئه وسوآته. لكن بذات الوقت وجد نفسه يخاف عليكما أن تتحولا مسخًا مثله. نصب نفسه حارسكما الأمين دون انتظار لرأيكما أو حتى سؤالكما. لن يسمح لأحد منكما أن يكون نسخة منه. لم يعانِ منكما سوى من رأس إحداهن الصلد الذي يذكره برأسه.

اغتاظت منه وقالت بغضب:

_ أنا لست ذات رأس صلد بل أنت. تعلم أن هذه الكلمة تفقدني صوابي فلا تقلها ثانية.

قالتها وهي تحرك سبابتها أمام وجهه مهددة ويا لها من فرصته لمشاكستها. تصنع التفكر والجدية وقال ممازحًا:

ـ حقًّا أنت لست ذات رأس صلد! ربما وربما. إذَنْ أخبريني أيتها الفتاة ذات الرأس غير الصلد لماذا تماطلين بشأن إتمام الزواج؟ ألا يكفي شهران خطبة رغم عدم حاجتنا لها ويليهما ثلاثة أشهر أخرى عقد قران. لقد هرمت بجوارك يا آنسة.

تنهدت رزان وعادت تنظر إلى الأطفال فسألها بصوت دافئ حنون:

ـ أما زلت تخافين رزان؟ ألم تطمئني معي بعد؟

فالتفتت إليه تجيبه:

ـ بلى أنا مطمئنة معك، لكن الخوف ما زال يسكن قلبي.

تنهد هو هذه المرة قائلًا:

ـ أخبرتك من قبل وسأخبرك دومًا أنا بجوارك دائمًا حين تميلين ستجدينني لك سندًا. وإذا خفت والتفت فسأكون خلفك مطمئنًا أبعد عنك وحوش الوساوس التي تطاردك وأكون لها هازمًا.

ابتسمت له بحياء فقال:

ـ هيا رزانتي قوليها موافقة. هيا رزانتي.

ـ ليست رزانتك هي رزانتي أنا فلا تعدها ثانية.

هتف بها يوسف قاطعًا حديثهما. زفر فجر بفراغ صبر وقال:

ـ يا إلهي! الكلمة كانت ستخرج حالًا من فيها ما الذي أتى بك أيها الفضولي الآن؟

غضب منه يوسف كعادته وقال:

ـ قلت لك من قبل لا تقل فضولي هذه مرة أخرى.

أراد فجر أن ينتقم منه لمقاطعة حديثهما فأكمل مشاكسته له وقال:

ـ مرة في حينا جاءنا طفل صغير ذهب يخوض التجربة لأنه فضولي كبير يوسف الصغير فضولي كبير يوسف الصغير فضولي كبير.

غنى له أنشودته القديمة فدفعه يوسف غاضبًا كصغره. فر منه فجر ضاحكًا فهرول خلفه. يا لهما من شابين لا يكبران أبدًا. وهل يكبر الإنسان حتى إذا شاب؟! يبقى هذا الشق الطفولي بقلبه مصاحبًا له مدى الحياة ويعود ويطغى مع شيخوخته فيرجع طفلًا بجسد هرم.

***

تمت بحمد الله

الفهرس

المقدمة 5
الفصل الأول: «انتظار أم تخل؟!» 7
الفصل الثاني: «بعض الطيبين» 23
الفصل الثالث: «طريق اللا عودة» 37
الفصل الرابع: «قانون الغاب!» 55
الفصل الخامس: «كيف يربي الشارع أولاده؟» 72
الفصل السادس: «هل ستصبحان مثلنا؟» 90
الفصل السابع : «لست مريضًا لكنني أتألم» 107
الفصل الثامن: «أمل!» 126
الفصل التاسع: «اظهر وبان» 144
الفصل العاشر: «ليس كل والد أب» 166
الفصل الحادي عشر: «أربعة وخامسهم الأمل» 188
الفصل الثاني عشر: "ربما يكسر العصفور قضبانه ويحلق يومًا ما" 208
الفصل الثالث عشر: «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» 231
الخاتمة 252